الإندابة

قِصةُ الأُفْنَانُ والعَبِبْرُ

رواية

صلاح البشير

الإنداية «قِصَةُ الأقْنَانُ والعَبِيْدُ»
المؤلف : صلاح البشير

الطبعة الأولي : يناير 2018
رقم الإيداع : 3024 / 2018
الترقيم الدولي : 5-217-769-977-978

الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف– الدور
الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : 23963002(02)

إهداء

إلى صديقي العزيز مكي أبي نورة الذي شجعني وساندني بقوة لإكمال هذا العمل.. دمت طيبًا..

صلاح

(1)

استلقى على «عنقريبه» فِي حوش الرجال الكبير الواسع، يبدو مهمومًا قلقًا ومضطربًا، ينظر إلى السماء راجيًا تعطفها عليه ببعض الهدوء والراحة، يريد أنْ يبثها بعض الأحاديث التي توغر صدره، لكنه لا يدري إنْ كانت ستفهمه أم لا. ليس مِنْ عادته أنْ يفضي بمكنونها إلى أحد، فكيف به يكاشف السماء بما يعِنُّ فِي دواخله. ربما هو مضطر إلى ذلك أو مكره عليه. كان يعجب مما صار عليه حاله، وكان هذا العجب يعظم حتى يستحيل إلى سخرية ملتهبة، ثم إلى رفق به وشفقة عليه. وكان هذا دخيلًا عليه فهو رجل عنيد لا يصادف غامضًا أو جليًا إلا فقه منبته ورده إلى علته. وقد يرضى بما بلغ مِنْ نتيجة وهذا فِي الأعم الأغلب، وقد يسخط إنْ عجز عنْ التعليل والتأويل وهذا حال هذه المرة. لمْ تستعصِ عليه الأمور عظيمها ووضيعها قبلًا سواء كان ذلك فِي مجلسه أو بعيدًا عنْه، فلِمَ استعصى عليه هذا الأمر؟.. لِمَ لمْ يستطع أنْ يوقف ابنه الأوسط عند حده؟ همهم قائلًا: «الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل يِصغِّرَنِي قدام

الرجال.. أمنعه عنْ العبيد والخدم.. وبرضو يسوي الدايرو.. الله يلعن تعليم أولاد الريف ..».. سمع نداء آذان المغرب فنهض عنْ «عنقريبه» وحمل «إبريقه» بيدٍ عازمةٍ وقلبٍ حازمٍ كأنَّه يريد أنْ يحطم همومه وقلقه واضطرابه أو كأنَّه يرغب فِي السيطرة مجدداً على ابنه الأوسط الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل. توضأ مرتين وأعاد الوضوء ثالثة وهو يبسمل ويحوقل ويكبر ويستعيذ بالله مِنْ الشيطان الرجيم.

.. خرج العُمدة إبراهيم ود الأرباب مِنْ الباب الكبير لحوش الرجال صوب المسجد لأداء فريضة صلاة المغرب وهو بكامل زينته وبعض عقله، مشغول بأمر ابنه الأوسط الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل مع الأقنان والعبيد. دخل مِنْ باب المسجد رأى الجمع يصطف للصلاة، قال بصوت جهوري حازم:

• يا ولد.. ارجع لي ورا.. مِنْ اليوم ده تاني ما تصلي بينا فاهم.. أقيم الصلاة يا أنيس..

وتقدم يؤم الناس، تلفت المصلون فِي حيرة لكن الطيب ود العُمدة إبراهيم ود أحمد ود الأرباب تراجع خطواتٍ إلى الوراء وهو يرسم ابتسامة راضية وادعة واستعد ليصلي خلف أبيه العُمدة صلاة المغرب، فاستعاد المصلون طمأنينة يحتاجونها ليخشعوا إلى الله ـ عز وجل.

.. الطيب ود العمدة إبراهيم هو الابن الأوسط بين الأبناء الذكور للعمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب والبكر لأمه فاطنة بنت العُمدة حمد

النيل ود سعد. شاب فِيه مِنْ فتوة الصبا وقوة الشباب ما يثير أخلاطًا مِنْ الدهشة والعجب والغيرة على السواء، وهو مِنْ أولئك الذين يرقبهم التاريخ فِي غدوهم ورواحهم، والتاريخ لا يأبه بالناس كلهم ولا يُعنى إلا بالذين يصنعونه لا الذين يمرون عليه مرور الكرام أو الذين يكتفون بقراءته فقط. كان على علم غزير بالدين وأصوله وشريعته ناله بالتعلم على يد الكثير مِنْ المشايخ وبعضهم مِنْ مصر الكنانة. يعتني بالدهماء والسابلة ويبحث عنْ حقوقها ويسعى فِي ذلك سعيًا جادًّا لا وانيًا ولا فاترًا، ويدفع بالمستضعفين إلى سماواتٍ لمْ تكن تسمو إليها نفوسهم ولا عقولهم ولا خيالاتهم. لا يخاف فِي قول الحق لومة لائمٍ، ما دام يؤمن ويتقي ويحسن فِي القول ويبرئ قلبه مِنْ الإثم وضميره مِنْ السوء. انسلخ مِنْ عمره بضع وعشرين دون أنْ يتزوج، وهو مِنْ أصحاب الرأي والاستشارة عند أبيه وبين أهله وصحبه، ففِيه ذكاء قلب، ونفاذ بصيرة، وبراعة فِي تثمير المال لمْ تعرف فِيهم، مما أشعل أتون الغيرة فِي قلب أخيه الأكبر وبعض أترابه فأسرفوا فِي الكيد له وهم يرونه فِي قوة تزداد إبهارًا يومًا بعد يوم دون أنْ تريم.

.. أمه الحاجة فاطنة بنت العُمدة حمد النيل ود سعد، الزوجة الثالثة للعمدة إبراهيم. امرأة حادة الذكاء قوية الشكيمة مفرطة الجمال، يحبها زوجها حبًّا عظيمًا، ويجعل لها رأيًا، ورغم ذلك تزوج عليها زوجته الرابعة الأصغر مِنْها سنًّا والأقرب دمًا، بنت عمه نفيسة بنت مصطفى الأرباب،

حين غضب مِنْها بسبب إصرارها على سفر ابنها إلى مصر للاستزادة مِنْ علوم القرآن والتفسير وليصبح شيخًا عظيمًا. ولدت له ولدين الطيب وعباس وبنتين زينب وسعاد. لمْ تأبه فاطنة بنت العُمدة حمد النيل لزواج العُمدة إبراهيم مِنْ بنت عمه الأصغر سنًّا، بلْ استطاعت بدهائها المعتاد أنْ تطويها تحت جناحها وأنْ تسيطر عليها سيطرة كاملة ولكن بالحب والتقدير. وهي امرأة تُقبل على الناس وتتلطف بهم وتأسر قلوبهم باللين والحب. وقد أخذ مِنْها ابنها الطيب الكثير مِنْ ذكائها وهدوئها وقوة شكيمتها.

.. يقع حوش أولاد الأرباب على الجانب الغربي مِنْ النيل وله مُشرع كبير يسمى مُشرع ود الأرباب يعتبر ميناءً نيليًّا تأتي إليه البضائع وتنتقل مِنْه إلى جهاتٍ أخرى. وينقسم الحوش إلى فرقٍ ثلاثة، فريق العمدة الأرباب الكبير الذي يتوسط فريق أولاد وراق وفريق أولاد جاد الله. ويعتبر الحوش نفسه مركزًا تجاريًّا كبيرًا ينقسم أهله إلى ثلاث فئات، فأولاد وراق يعملون فِي تجارة المحاصيل وزراعتها، وأولاد جاد الله يعملون فِي الدباغة ومستلزماتها، بينما تركت سياسة القوم وإدارة شئون الحوش لأولاد الأرباب فكانت لهم العمودية والعلم والتعليم. وعلى أطراف المزارع ترقد كنابي عمال الزراعة مِنْ الجنقوجوراويين وبعض النازحين.

.. وفِي وسط الكنابي يوجد سور كبير دائري الشكل يشبه القلعة،

ومصنوع مِنْ السعف وأعوادٍ مِنْ شجر الكتر له مدخل واحد كبير ويحتوي بداخله سبع قطيات صُنعن بعناية فائقة وجمال رائع، أوسطهن هي الأجمل والأكبر مساحة. تسمى هذه القلعة «الإنداية» ـ أو إنداية الرضية بنت الإزيرق ـ فِيها تقدم المريسة والعرقي والعسلية وبنات الهوى على اختلاف سحنهن وأعمارهن ومستلزماتهن، كما يوجد فِيها المثليون مِنْ الرجال والنساء على السواء. والرضية بنت الإزيرق هي امرأة تجاوزت الخمسين من عمرها ببضع سنين، وما زال فِي وجهها شيء مِنْ جمال رائق، لا يدري أحد عنْ أصلها شيئًا لكنها هنا منذ ثلاثين سنة. وهي امرأة غامضة قوية، تدخن بشراهة، وتتحدث بصوتٍ عالٍ وحازم، وفِي ضحكاتها العاليات عذوبة وشيء مِنْ حزن. تدير عملها بإتقان ولا تسمح بتجاوز الحدود التي تضعها هي وحدها. وود مرسال هو المِثْلِي الأكثر شعبية أو هو مِثْلِي الشُباك إنْ شئت. شاب فِي منتصف عشريناته كان لقيطًا وجده مرسال رقيق العمدة إبراهيم ود الأرباب بين الحقول وأتى به إلى الرضية بنت الإزيرق بعد أنْ رفض العمدة أنْ يتربى وسط أولاده أو أولاد حوش الأرباب بفرقه الثلاثة. لمْ تحسن الرضية تربيته، عاش بين السُكارى وبائعات الهوى والمِثْلِيين حتى صار مِثْليًّا يطلبه الرجال. وتميز بجمال أقرب إلى جمال النساء مِنْه إلى وسامة الرجال. وقد نسب إلى مرسال رقيق العمدة كونه مَنْ أتى به إلى الرضية التي وفرت له المأوى والحماية ولقمة العيش.

(2)

همَّ أنْ يرد إلى نفسه رجع حديثها، عسى أنْ يخفف عنْها هذا العبء الذي تنوء بِه، لكنه كان ساعتئذ كمن ليس له فِي الدنيا إرب، ولا فِي مكانه الذي يجلس عليه كلف. جلس فرح الابن البكر للعُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب على طرف «عنقريبه» فِي حوش أمه السُرة بنت عوج الدرب، الزوجة الثانية للعُمدة، يحدث نفسه بالأحاجي دون أنْ يلتفت إلى صديقيه الحميمين الجالسين قبالته ـ على «برشٍ» افترشاه على الأرض ـ عبد الرحمن ود حسن ود وراق، والصادق ود محمد ود جاد الله كأنه يريد أنْ يمتحن صبرهما. نظر عبد الرحمن إلى الصادق نظرة ذات معنى ثم أشار له برأسه، ووجه حديثه إلى فرح مستفسرًا:

• مالك يا زينة الفرسان.. شايل هم الدنيا فوق راسك؟.. الدنيا دي ما بتسوى شِي شان تشيل همها..

صمت برهة وهو يهز رأسه هزًا مقصودًا، ثم أردف:

• .. إنْ غلبك سدها وسع قدها يا فرح يا أخوي.. دحين.. دحين.. يلاآآكم نمشي الإنداية للرضية بنت الإزيرق.. نملا الراس ده عرقي.. ونفجخ لينا مكادياتن كدي كارباااات ونرجع.. الخادم دي سمعت جابت لها فجخاتن حـارات.. باقي خابرك بتدور الحبشيات.. مو ود عُمده عاد..

قاطعه الصادق قائلًا وقد استحسن بعض قول صاحبه:

• .. يا جماعة هوووي.. أنا المكاديات ديل ما بنفعن معاي.. سَكر بسْكر معاكم بس أنا زولن بلخبت المريسة بالعرقي.. كمان فجخ المكاديات ده ما بدورو تب.. دحين ما سمعته إنها جابت لها فريخاتن سداسياتن كدي.. مِنْ بحر عرب ولا مِنْ الجُبال.. يا عبد الرحمن يا أخوي..

ضحك عبد الرحمن ضحكة عالية وقال يخاطب الصادق:

• .. أنت البعجبك في الخدم شنو.. يعني الفريخات الفي حوشكم شوية.. أنت براك عندك عشر فرخات ما فِيهن مكادية ولا حلبية واحدة.. خلي ألعن باقي أهلك.. ح تسوي بيهن شنو.. بتسارِرِن كلو يوم .. تقوم وتركب.. تاني شنو.. غيِّر شوية..

أجابه بانفعال:

• .. حرم لا أنت لا غيرك بتعرفوا فِي الفجخ شي.. يخربكم.. يا أخي الخدم ديل فِيهن ريحة زي ريحة الحصين.. شان كده ما بركبن

إلا فارس.. أهه وأقول ليك أنا سوق التلات الجاي ده فِي نصه.. عشان نخاسة العبيد حتكون حارة.. عبد الله ود علي ود جاد كريم جاي من الجبال وسالم ود الجاغريو جاي مِنْ بحر عرب.. وسالم ده زولي موصيه يجيب لي فريخاتن فرز ..

ضحك الرجلان حتى بانت نواجذهما والتفتا إلى صاحبهما فألفياه قد سمع مِنْهما دون أنْ يُنكر. لكن! دخيلة نفسه كانت أسيرة أفكاره التي ملأت عليه يقظة النهار ونوم الليل، لكنه أقبل عليهما وهو لا يمسك نفسه مِنْ الغضب والحِنق، فقال:

• سمعتو كلام القشير الطيب فِي العبيد والخدم.. وفِي السراري والإنداية..

كأن جسديهما لا يكادان يحملانهما وقد برحت بهما العلة تبريحًا، أو كأنه مد يده إلى عقليهما ثم ردها وقد أصابت مِنْهما ما تُريد وفوق ما تُريد. وجدا مشقة فِي الإجابة عليه وتكلفا فِي ذلك جهدًا، وحين أضنتهما العلة وأنهكهما الجهد تبادلا نظراتٍ حائرات، وأجابه عبد الرحمن مستفسرًا فِي صوتٍ خفيض كدرٍ لا يكاد يبين:

• .. قال شنو فِي العبيد والخدم كمان.. أخوك ده خلينا ليهو الجامع.. ساكينا فِي الإنداية.. شن دخلو فِي السراري وشغل الإندايات..

أطرق برأسه فِي الأرض كأنما يلتمس فِيها شيئًا، ثم مد بصره إليهما ورده إلى نفسه ووجهه يكتسي حِنقًا وغضبًا، وقال:

• .. بيقول كلام عجيب ويخوِّف.. قال كل زول يكتب لي عبده ويفكه شان يبقى حر.. وكل خادم يكاتبونها عشان تبقى حرة.. يعني مرسال وباب الله يبقو أحرار زي وزيك.. والجاز وخادم الله يبقن زي حريمنا واحد.. وتاني ما فِي بيع وشراء للعبيد والفريخات.. يعني يا الصادق يا أخوي يوم التلات إلا تشتري ليك حنة ودلكة لي حريمك..

ضحكا ضحكًا خير منه البُكاء، ثم أنكرا ما سمعا، وقال الصادق صارخًا مستنكرًا:

•.. أخوك ده جنَّه ولا شنو.. حرم اليقرب على عبيدنا وخدمنا إلا نجز ليهو رأسه.. أما عجيبة.. يا هو الفضل..

.. والصادق ود محمد ود جاد الله رجلٌ قاسي القلب جافُ الطبع غليظُ الكبد، يضمر للطيب ود إبراهيم كراهية شديدة، ويشتط فِيها اشتطاطًا عظيمًا، وتحفِظ نفسه عليه حِفظًا ما بعده حِفظ، فقد كانت بينهما مساومات فِي أمور الدين والدنيا طالت والتوت وكثر فِيها الأخذ والرد والجذب والشد، وانتهت جميعها بخسارته أمام ود العُمدة. كان مِنْ أولئك النفر الذين تطمح نفوسهم وتقصر أيديهم وهِممهم وأسبابهم عنْ بلوغ ما يطمحون فِيه، فاستقر فِي نفسه غيظ لا تطفأ ناره، وحسد لا تكسر حدته بسبب الطيب ود العُمدة إبراهيم الذي بذه فِي كل شيء.

أكمل يقول:

• هووووي يا فرح.. أخوك ده فات الحد.. ونحنا ما حريم لابسين رحط.. إنْ لحق دخل بينا وبين عبيدنا وخدمنا.. الدم بسيل للركب.. وبكتله ليكم زي الكلب.. وما له دية عندي.. شان أنا ما غلطان.. وشان أنا صاحب حق في عبيدي وخدمي..

كان يتحدث إلى فرح وعبد الرحمن كالحصان الذي يعلك شكيمته، يكاد الغضب والحِنق أنْ يخرجاه مِنْ جلده، ولا يكاد يسكت حتى تجري فِي جسده رعدة وتصطك ركبتاه، ثم يشيح ببصره عنْهما دقائق معدودات وهما لا يكلمانه، حتى إذا هدأت رعدته وثاب إلى أمنه واستقر جسده، قال لهما:

• سيبونا عليكم الله مِنْ زولكم الشوم ده.. عكر دمنا الله يلعنو فِي القِبل الأربع.. دحين أنا ماشي على الحوش عندنا.. أخلي فريخاتي يدلكوني وأشرب لي مريسةً كاربة مِنْ مريسة تام زين.. واتكرع.. وحرم الليلة إلا أفجخ لي أربع فريخات قبل لا نوم.. كيتن فِي سجم الرماد ده..

نهض كالملهوف الذي يرجو معونة وغوثًا، وهو الذي ألف حياة البطالة والتلف كلًّا على أبيه محمد ود جاد الله الدباغ. وكأن صاحبيه قد اضطرا إلى مجاراته فتركاه يمضي وشأنه وصرفا نفسيهما عنْه فلا نقعا غِلته ولا بلّا صداه.

.. انعقد لسان فرح فلمْ يقل شيئًا، وإنما مضى فِي جلوسه على «عنقريبه» واجمًا ذاهلًا، يردد طرفه الحائر بين الأرض وصاحبه عبد الرحمن، وهو يسترجع كلمات الصادق المهددات فِي حق أخيه غير الشقيق الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل. ولمْ يدرِ أطال اجترار الحائر لها أم قصر. وقد امتلأت نفسه بخاطرٍ يحسه ولا يتبينه.

.. أحس عبد الرحمن بحال صاحبه وعلِم أنَّه رواح بين قبول حديث صاحبهما وإنكاره، وأنَّه يتمنى حدوثه لكنه يخافه، فقال وهو يضغط على كلماته ضغطًا يكسبها الكثير مِنْ المعاني:

• .. الصادق هواش ساكت ما تصدقه.. وما بقدر على دواس الطيب.. أخوك إيده طرشة.. أكان أدالو كف ساكت بكتله.. خليهو يجر لو سيف..

نظر إلى صاحبه.. وجر نفسًا عميقًا.. ثم قال له:

• .. أنا داير أمشي البحر أعوم.. وأشم لي شوية هواء.. تجي معاي ولا عندك كلام تاني.

أجابه عبد الرحمن:

• أنا خَلَنِي.. أمش أنت براك.. أنا ماشي أشوف الجنقو ديل سووا شنو فِي الزراعة.. الدرت قرب.. سلام.. ودعتك الله..

نهضا وذهبا، كل إلى سبيله.

(3)

انصرفت الشمس إلى مغاربها وهي تسحب أذيالها الشاحبة العالقة بالأفق ريثما تدخل مسكنها وتنزوي تعبةً مِنْ سعي النهار. وأقبل الليل هادئًا مطمئن الخطو لا يحفل بما يجري فِي خضراء أو غبراء حوش ود الأرباب سوى بالأنادي. امتلأت إنداية الرضية بنت الإزيرق بأصحاب الرغبات والشهوات مِنْ كل حدبٍ وصوب، والرضية تستقبلهم بابتسامة وادعة وعِينٍ ناعسة وجمالٍ رائقٍ قديم، وتمضي بينهم بلهفة المشتاق، والمغنيات والمغنون يشدون بأخلاطٍ مِن ألحان العشاق، والبطان يُدمي ظهور العاشقين، والأصوات تتعالى بمزيج فِيه بعض مِنْ فرح وكثيرٍ مِنْ حُزن، فهذه أصوات فِيها امتلاء وتلك أصوات رقيقة الحس، ومِنْ بعيد تتهادى إلى الآذان أصوات تتأوه مِنْ فرط اللذة والمجون. وكئوس المريسة والعرقي والعسلية تتسكع فِي دلالٍ بين أفواه الندماء. ورائحة الدلكة والصندل والخُمرة والدخان والبخور تزكم الأنوف.

والجواري الأحباش مِنْهن والزنج يتمايلن فِي رحوطهن عاريات الصدر مشدودات العجيزة، ومبتسمات الثغر.

.. وكانت الرضية تطيل النظر إلى زبائنها على اختلاف منازعهم ومشاربهم حتى إذا وقع فِي قلبها وعقلها مَنْ ترى فِيه بسطة مِنْ مال وقدرة على البذل دعته إلى «القطية الوسطى» التي لا يدخلها إلا عِليَة القوم وأخيارهم. فتربح هي صحبتهم ومالهم ويربحون هم أجمل الجواري وأعتق الخمر. وكانت تنشط لهم وتدير بينهم الأحاديث فلا تلوي لهم وجهًا ولا تمسك عنْهم ثغرًا. وكانوا يرون مِنْها إقبالًا عليهم أكثر مما تعودوه مِنْ نسائهم ورقيقهم، ويقع ذلك فِي نفوسهم موقعًا حسنًا، فيعبثون بجواريها الحسان ويمرحون، ويكثرون مِنْ شرب «المريسة والعرقي والعسلية» حتى ترتخي أرجلهم فلا يقوون على السير، وتشتعل فِي نفوسهم وأجسادهم فحولة مستعرة، فيتوقون الإنزال فِي فروج الجواري الغُر أحباشًا كنَّ أو زنجيات، فيمكرون بأجسادهن ما شاؤوا أنْ يمكرون، ويبذلون فِي ذلك الغالي والنفيس وهو ما يُسعد الرضية غاية الإسعاد، فتكرمهم ولا تصد عنْهم، فلا تثبت قلوبهم على شيءٍ إنما تتصل خفقاتها وتتواصل.

.. رحبت الرضية بضيفها فرح ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب وبعض ضيوفه وحراسه الرقيق. ولاحظت بذكائها المعتاد

اهتمامه المتعاظم باثنين مِنْ ضيوفه، فرسمت على ثغرها ابتسامة رائعة أسبغتها بضحكة عذبة وهي تقول له:

• أهلًا ود العُمدة الفارس.. وأهلًا بضيوفك.. زارتنا البركة..

تبسم لها فرح ود العُمدة وفِي أحلامه وخيالاته نزق وطيش، يرغب وضيوفه أنْ يتلهوا بألوانٍ مِنْ العبث والمجون، وفِي غرائزهم ميل إلى الشر، واستحباب للنُكر، واستعذاب للشهوة. قال يرد تحيتها:

• الليلة إحنا ضيوفك.. معاي أولاد السافل.. ناس الكرم والرجولة.. رجال فوارس.. عايزك تكرميهم بمكاديات نقاوة.. وفريخات صغار.. وكان عندك فتوات أكرمينا بيهن.. والعرقِي لازم يكون ولد.. والمريسة والعسلية بالبرمة..

أطلقت ضحكة عذبة وقالت:

• طلبكم موجود.. فتوات حبشيات.. وفريخات نوباويات.. وعندي زاندية جات أمس.. فتاة صغيرونة وسداسية.. وكلهن حيجوكن فِي البيت الكبير.. وما تخاف على الشراب.. الخندريس صناعتي.. والمريسة مريسة الجاز النوباوية.. والعسلية سوات حواية.. عندكم كلامن تاني.. والعشاء هدية مِني ليكم..

أحس الجميع بشيءٍ مِنْ راحة، وتوجهوا إلى «القطية الوسطى الكبيرة»، همس فرح ود العُمدة فِي أذنها قائلًا:

• شوفي لينا ود مرسال..

جفلت الرضية عِجبة دهِشة وهي تسمع كلماته، فغمز لها بعينه، ثم أردف هامسًا:

• .. معاي فارسن بدورو..

ابتسمت الرضية بخبث وهي تتطلع إلى الضيوف عساها تعلم شيئًا عنْ هذا الفارس، دون أنْ تتخلى عنْ عجبها أو دهشتها.

(4)

لمْ يعرف حوش الأرباب فِي تاريخه كُله يومًا كهذا اليوم الذي ردد فِيه الناس كلام الطيب ود العُمدة إبراهيم. استقبله البعض راضيًا عنْه مبتهجًا به مطمئنًا إليه، واستنكره البعض كيدًا فِيه ومكرًا به وبغضًا عليه، وراوح البعض مكانهم فلا هم مستحسنونه ولا هم منكرونه. إذ يرى بعضهم أنَّ السماء قد أظهرت للحوش ابتسامًا، فأطلت الشمس المشرقة على فرقانه وبيوته ومزارعه ونيله رائعة ودافئة لتنيره وتبعث فِيه الضياء وتجعله قبلة جديدة لأهل الحق، بينما يرى آخرون أنَّ السماء قد أضمرت له عبوسًا ما بعده عبوس، وامتلأت قلوب هذا الفريق بالظلمة المظلمة والكيد المفضي بأهله إلى شر ما ينتهي إليه الناس، أما الفريق الثالث فلا رأي أشعة الشمس فعرف حقيقتها ولا عاش ظلمة الكيد فاكتوى بنارها. وغدا الملأ الأولون إلى بيوتهم ذوي أحلام يهدون بعضهم إلى بعضٍ ألوانًا مِنْ البر والمعروف، وأوى الآخرون إلى مضاجعهم ذوي بأسٍ وضرٍ

وعذاب، ينكرون ويضمرون، وهجع الفريق الثالث إلى ديارهم ذوي آمالٍ عاطلة، يستعذبون آلام الآخرين.

.. سمع رهط مِنْ أهل الحوش كلام الطيب ود العمدة وهم يتحلقون حوله فِي مكانٍ قريب مِنْ مشرع ود الأرباب يطل على صفحة النيل، ويستحسنه الطيب ويجتمع فِيه مع صحبه وخاصته، حتى إذا أرضوا حاجتهم إلى سماعه سأله أحدهم قائلًا وقد كسته أخلاط مِنْ مشاعر الدهشة والعجب:

• .. يعني بي كلامك ده يا ود العُمدة نحنا ما ناس شريعة.. وكمان ملزومين نعرس سرياتنا ديل.. ده كلام شنو عاد.. هسى نحنا نقوم ونركب بالحرام.. أنت بي جدك..

تبسم الطيب ابتسامته الوادعة تلك فِي وجه محدثه ورد عليه قائلًا:

• .. يا ود عجيب يا أخوي.. أنا معاك تب.. الشريعة دي ما فيها شق ولا طق لأنها كلام الله.. وكلام الله عدل كله.. لأن الله سبحانه وتعالى هو العدل.. وسمى نفسه العدل.. ونحن ناس الدنيا ديل ما عندنا كلام نقولوا فيها.. ولا عندنا حق نطالِبُوا.. لكن كلام الشيوخ ده حاجة تانية.. ديل بشر.. والبشر ديل ما كلهم عدل ولا كلهم ظلم.. حاجة كده زي شراب الحِلو مر..

صمت برهة، تناول فِيها جرعة ماءٍ ثم أردف:

• الشيوخ العارفة الدين.. ديل ناس متلنا كدي.. يفرحوا متل

فرحنا.. ويزعلوا متل زعلنا.. وينجحوا مرة.. ويفشلوا مرة.. وعاشوا زمن ما هو لِيْلنَا.. وما فيهم واحد قال كلامي منزل من السماء ولا قال كلامي قرآن.. والإمام مالك ـ الله يرحمه ويرضى عليه ويرضِيه ـ قال: «كل يؤخذ مِنْ كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر».. وأشر كده بأصبعه علي قبر النبي عليه الصلاة والسلام.. والإمام الشافعي ـ الله يرضى عليه ويرضِيه ـ قال: «رأيي خطأ يحتمل الصواب ورأي غيري صواب يحتمل الخطأ».. يعني أنا متلكم تب ممكن أغلت وممكن أقول كلام ما صاح.. وفي قصة الرقيق والعبيد والخدم اتقال كلام كتير.. وكان جرينا وراه حنلقاه شرح لي كلام رب العزة.. لكن الشرح ده.. ما فات حالتم الكانوا عايشين فيها في الوقت داك.. عشان كده في حاجات نجحوا فيها.. وحاجات تانية ما قدروا يصلوا للدايره الدين مِنْها.. ففسروها حسب عيشتم..

قاطعه ود عجيب مرة أخرى، وقد استشكل عليه الأمر، وهو يسمع وينكر، ثم لا يؤثر الصمت فيقول ساخرًا:

• يعني يا ود العُمدة.. مالك إمام المدينة غلطان.. والإمام الشافعي غلطان.. وإت.. الطيب ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب ماك غلطان.. أنت كوم والأئمة الأربعة كوم تاني.. أنت صاح.. وأهل القبل الأربعة غلط.. ونحنا ناس سجم الرماد ديل.. نطلق نسوانا الأربعة الحُرات بنات العرب.. ونعرس السريات

الخدم ملك اليمين.. وعبيدنا نفكهم ساكت ونقعد أمفكو..

لمْ يكد ود عجيب ينتهي مِنْ كلماته الساخرات حتى تبسم الطيب ود العُمدة فِي وجهه تبسم الحبيب إلى الحبيب، وقد نزلت كلماته على قلبه منزلة كريمة لمْ ينل مِنْها السُخر شيئًا، فقد كان يؤثره ويكبره أشد الإيثار والإكبار، فتدانى مِنْه حتى لمْ يبق بينهما إلا شبر، وأجابه:

• اسمع كلامي للآخر واحكم.. أول بالتبادي نحفظ مقام أئمتنا الأربعة وتابعيهم بإحسان.. وكل علماء المسلمين.. ربنا يجزيهم عننا كل خير.. المرة دي خلونا نسمع رأي العلماء في «المكاتبة بين العبد وسيده» وبرضو كلام في «المساواة بين الحر والعبد في حق الحياة».. وحق الحياة ده منحة ربانية لكل زول فينا.. الشايف نفسه سيد.. والباقى عبد.. حتى البهايم.. الله أداها الحق ده..

.. وجعل يقول: لا شك عندي أنْ الشريعة هي العدل الكامل والرحمة الشاملة والمصلحة النافعة والحكمة الخيرة وليس هذا مِنْ عندي بل مِنْ عند ابن القيم وغيره مِنْ أئمة المسلمين جزاهم الله عنَّا خير الجزاء. لكني وإياكم لنْ نختلف كون أنَّ فقهنا موروث وكونه مِنْ عند البشر ولا يتمتع بقداسة الوحي. وهو بذلك يخضع لما تخضع له كل الاجتماعيات والثقافات السابقة للإسلام والتابعة له. والشريعة ليست الفقه، فالأولى كلام الله والثانية تفسيرات البشر لكلام الله جلت قدرته. والفقه كالبشر يصيبه النُجح كما

يصيبه الفشل أو العطب، وهو كالبشر أيضًا يرتفع بعض الرأي فِي عصر مِنْ العصور ويهبط بعضه فِي عصر آخر أو فِي نفس العصر. فقد سمت آراء أصابت النُجح حتى بلغت عنان السماء وتعطلت أخرى حين انتهت إلى تفاسير مليئة بالعلل والأدواء.

.. والاسترقاق لا يجوز إلا فِي الحرب وهو أسر فئة بغت على أرض المسلمين أو حلفائهم، إذن هي ليست تجارة ينشط فِيها بعض مِنْ تجار الرقيق الجلابة والنَهّاضة التابعين لهم فيسلبون حريات البعض بعد أن يُخادعوهم ويأمنوهم. والأسر فِي الحرب ليس للتجارة، فقد خير الله سبحانه وتعالى والي المسلمين صراحة فِي أمرين إما التسريح بلا مُقابل أو أخذ مقابلٍ فِيه، إذ قال عز مِنْ قائل فِي كتابه الكريم فِي سورة محمد: «فإما مَنًّا بعد وإما فِداء». ولمْ يجعل الله سبحانه وتعالى خيارًا آخر لوالي المسلمين. وأصبحت هذه الآية منذ نزولها حجابًا بين عصرين، عصر كان يسترق فِيه الناس بالتحايل والسرقة والحرب ثم يباعون ويشترون، وعصر لا يسترق فِيه أحد ولا يؤسر إلا إنْ بغى على المسلمين ومع ذلك تسريح بإحسان أو إطلاق بمقابل، ولا يجوز على المسلم الحق أنْ يستعبد إنسانًا ويسترقه وإنْ كان أسير حربٍ باغٍ. وهي بهذا تدل على تحريم الاسترقاق فِي العموم بغير قطع، وعدمٌ القطع تدرءه المفاسد، كأن يطلق المسلمون الأسير الباغي ويمسك الباغون أسراهم المسلمين.

وبذا يكون ديننا الحنيف دين واقع وعمل، وقد نشأ فِي بيئة فِيها مِن التنافس المقيت ما يضيع حقوق الناس فِي الحرية، فغزو الأمم لبعضها البعض تنشأ عنه خيارات ثلاثة: إما الإبادة الجماعية على يد المنتصرين، أو الموت جوعًا فِي الفيافي والغِفار، أو الأسر والاندماج فِي المجتمعات الجديدة مسلمة أو غير ذلك.

.. ثم أمر الله ـ سبحانه ـ بالمكاتبة وهي عقد بين المالك والمملوك يلتزم العبد بمقتضاه بدفع قيمة يتفق عليها العبد وسيده على أقساطٍ ميسرة يصبح بها المكاتب حُرًّا بمجرد إبرام العقد. ولا يجوز استعباده إنْ لمْ يستطع القضاء، وإنما يصبح مدينًا للمالك القديم الذي يجب عليه أنْ يُحسن قضاءه ليتمكن المكاتب مِنْ إحسان الاقتضاء. وبافتراض استمرار عدم قدرته فالواجب على والي المسلمين ورعيته إعانته على قضاء دينه، وبالتالي إلزام الناس بالمشاركة لفك أسره وتحريره. ودليلنا على ذلك قول الله سبحانه وتعالى فِي سورة النور: «وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهَّ الَّذِي آتَاكُمْ..».. ونعضد ذلك بفعل سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضيَ الله عنه وأرضاه ـ الذي كان يضرب السادة الذين يأبون إعتاق عبيدهم عبر نظام المكاتبة: «عن أنس بن مالك قال: أرادني سيرين على المكاتبة فأبيتُ عليه، فأتى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فذكر ذلك له، فأقبل عليَّ عمر ـ رضي الله

عنه ـ يعني بالدِّرة فقال كاتبْه..».. فأين نحن مِنْ صحابي بقدر أنس بن مالك خادم رسول الله يريد أنْ يضربه أمير المؤمنين بعصاته مِنْ أجل عبد. والآية الكريمة وفعل عمر بن الخطاب ينكران ما ذهب إليه الفقهاء مِنْ أنَّ المكاتبة أمر استحباب لا أمر وجوب، وهو ما قال به الإمام ابن حزم حين أثبت أنَّ الصحابة جميعًا ـ رضوان الله عليهم ـ لمْ ينكروا وجوبه ولمْ يقولوا باستحبابه.

.. أما حق الحياة فهو حق مكفول يتساوى فِيه الحُر والعبد سواءً بسواءٍ، ولا يجوز إنكاره أو تأويله بغير المساواة التامة بينهما كحقٍ إنساني لا يمكن الالتفاف عليه. فتحريم القتل لا شك فِيه وقد ذكره الله ـ سبحانه وتعالى ـ فِي محكم تنزيله فِي سورة الإسراء: «ولا تقتلوا النَّفسَ الَّتي حرَّمَ الله إلاَّ بالحقِّ» وهي نفس عامة لمْ تخصص لحرٍ أو لعبدٍ، وقال عز وجل فِي سورة المائدة: «مِنْ أجْلِ ذلك كتبنا على بني إسرائِيلَ أنَّه مِنْ قتلَ نفسًا بغير نفسٍ أو فسادٍ فِي الأرض فكأنَّما قتلَ النَّاس جميعًا ومِنْ أحْيَاها فكأنَّما أحْيَا النَّاسَ جميعًا ولقد جَاءتهُم رسُلُنا بالبيِّناتِ ثمَّ إنَّ كثيرًا مِنْهُم بَعد ذلك فِي الأرضِ لمُسْرِفُونَ»، إذن فالقصاص يكون نفسًا بنفس أو فسادًا فِي الأرض ودون تمييز بين حرٍ وعبد، ووجبت الدية لأهل القتيل الذي يقتل خطأً، إذ قال جلت قدرته فِي سورة النساء: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إلا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ

إلا أَنْ يَصَّدَّقُوا»، وأردفها فِي الآية التي تليها فِي نفس السورة بوعيد لا مثيل له: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا» صدق الله العظيم.. إذن لا تخصيص فِي حق الحياة بين الحُر والعبد وأيدت السنة القرآن بذات التعميم وبلا أي تخصيص فقول الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ «المسلمون تتكافأ دماؤهم»، لا يمايز بين المسلم الحر ولا المسلم العبد، وتؤكد السنة النبوية أكثر فِي قول النبي الكريم: «مَنْ قتل عبده قتلناه، ومَنْ جدع عبده جدعناه»..

.. ثم ترك الفقهاء هذا التعميم الشرعي الصريح إلى تخصيص غير دقيق حين قالوا بتمييز الحُر عنْ العبد فِي حق الحياة، فأعفوا الحر مِنْ العقاب إذا أزهق روح عبد، سواء إنْ كان ذلك عمدًا أو خطأ، ثم أنكروا دية عبد الغير والكفارة إنْ قتله حر خطأ لمْ يلزموه إلا بقيمة العبد وكان دليلهم ما جاء فِي سورة البقرة فِي آية القصاص: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى». لكن الغريب هو قصر التمييز على الحر والعبد، دون الذكر والأنثى. وهذا القصور يدلل على أنَّ الآية لا تحتمل التمييز وتنكره كل الإنكار، وهي تؤسس لمنع الإيغال فِي الثأر وتجاوز قتل القاتل إلى غيره، فقد كان الناس ساعتئذ يكرهون قتل المرأة أو العبد ثأرًا لأشرافهم.. وتمادى هذا التمييز إلى أقصاه

فإنْ اتفق حرٌ وعبدٌ على قتل عبدٍ وتواطآ على قتله عمدًا ثم قتلاه سويًا يقتل العبد وتكتب للحُر النجاة ولا يقتص مِنْه إلا بنصف قيمة العبد المقتول لأنَّ العاقلة لا تُحمل عمدًا ولا يجوز قتل حُرٍ بعبد. أما إنْ قتل عبد حُرًّا فلا خلاف بين أهل التمييز على قتل العبد بلا تقاضي، بل يسلم العبد إلى أهل القتيل الحُر يقتلونه أو يحيونه. أليس هذا إهدار لإنسانية الإنسان؟

.. لم يُجبه ود عجيب ولمْ يستفسره الجالسون، شأنهم شأن الذاهل إذ لمْ يكن بينهم مَنْ هو أفصح مِنْه لغة، وأنصع منطقًا، وأعمق علمًا. فتفرقوا ولسان حالهم يلهج بحقيقة واحدة أنَّ هذا الدين الحنيف لا يمايز بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح.

(5)

أشرقت الشمسُ بنور ربها، وأصبح أهل حوش الأرباب منتشية قلوبهم، راضية نفوسهم، صافية عقولهم، مبتسمة ثغورهم، يستقبلون سوق الثلاثاء بالغبطة والسرور، وتستقبلهم سوق الثلاثاء بالبهجة والحبور. وما هي إلا ساعة واحدة حتى ضجت السوق بالحركة وماج بالناس مِنْ حوش الأرباب وما يجاوره، فهؤلاء الصبية يقفزون هنا وهناك، لا يفكرون فِي عاقبة، ولا يحفلون بموعظة، ولا يسمعون لنصيحة، وأولئك الشباب يندفعون فِي السوق بلا ضابط، يتفرقون مرات ويجتمعون مرات، يستجدون لذاتهم المباحة ويخفون شهواتهم الشيطانية، وتلكم النسوة يزرن الحوانيت على تنوعها، ويتجاذبن السعر مع البائعين، والرجال بشواربهم الغليظة وأجسادهم المفتولة يتجولون بين الأسواق المختلفة يتجرون ويسمرون.

.. وسوق الثلاثاء أشبه ما تكون بالمهرجانات الشعبية، فهي

مجموعة أسواقٍ فِي سوق كبيرة عظيمةٍ واحدةٍ يمتد مِنْ سوق الحوش الكبير شمالًا إلى سوق المحاصيل جنوبًا، ويحد غربًا بزريبة البهائم وزريبة الفحم وزرائب العبيد والخدم، وشرقًا بالنيل والمُشرِع. وتنتشر فِي السوق الكبيرة حوانيت العطارين التي تبيع أخلاطًا مِنْ التوابل والبهارات التي ترد إليها مِنْ بقاع محلية كثيرة كما ترد إليها مِنْ الهند ومصر والشام أيضًا، ولا يغفل العطارون عنْ أغراض النساء مِنْ حناءٍ وضفرة وخمرة وصندلٍ وما يجري مثلها مما تستحبه النساء. القليل مِنْ الحوانيت ثابت ومبني مِنْ الطين وعروق الأشجار، ومعظمها رواكيب خالية إلا مِنْ جذوع الأشجار المستخدمة كطاولات أو مقاعد. بعضها يبيع البضائع المستهلكة يوميًا مِنْ شاي وسكرٍ وزيت وبصل وبعض الخضروات التي تجلب مِنْ خارج الحوش وما بحكمها، وهناك قليل مِنْها يبيع بعض الأقمشة، فنساء الحوش يفضلن أقمشة «الدلاليات» ورجالهن يفضلون تلك التي يسافرون إليها فِي البقعة، والمتجرون يحملون بضائعهم عند ابتداء السوق وعند انتهائها.

.. تقع سوق المحاصيل فِي الناحية الجنوبية، وهي ليست بالسوق الكبيرة الواسعة، وحوانيتها على قلتها أكبر وأوسع وأمتن صناعة وهندسة مِنْ تلك التي فِي السوق الكبيرة، ومحروسة بعبيدٍ أشداء، مستعدون للذود عنْها والموت فداءً عنْ أموال أسيادهم.

.. زرائب البهائم تمتلئ بالأبقار الكنانية وأبقار البطانة وأبقار البقارة وأبقار التابوسا والمنقلا وأبقار الأمبرارو والضأن مختلفة أنواعها، فِيها الكباشي، والحمري، والدباس والأشقر، والوتيش، والماعز النوبي وبعض الغزلان الصغيرة. وسوق البهائم تعتبر سوقًا كبيرة نسبيًا ومركزًا للتوزيع للقرى المجاورة. ويعتبر الشيخ سعيد ود مصطفى الأرباب شقيق نفيسة بنت مصطفى الأرباب الزوجة الرابعة للعُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب وابن عمه فِي الوقت نفسه أكبر تجار المواشي فِي الحوش والنواحي المجاورة. وهو الوحيد مِنْ عائلة العُمدة الأرباب الكبير بجانب الطيب ود العُمدة إبراهيم الذي يعمل بالتجارة تاركًا ما جرت عليه العادة عند أهله. وتجاور زريبة البهائم زريبة صغيرة للفحم تكفي حاجة الحوش وقد تزيد قليلًا فِي أسواق الثلاثاء.

.. تقام سوق الرقيق على أرضٍ يمتلكها العُمدة ود إبراهيم نفسه، وهو الذي أحاطها بسورٍ عظيمٍ وقسمها لأربع زرائب، لكنه لا يؤجرها لأحد، ويسمح لكل تجارٍ الرقيق باستخدامها، ولا يباع عبد ولا جارية خارجها. وقد اختص عبد الله ود علي ود جاد كريم وسالم ود الجاغريو بزريبة طرفية، بينما بقية النخاسين فِي زريبتين على أنْ تكون الزريبة الوسطى الواسعة للعرض والبيع والشراء فقط، ثم بنى على طرفها البعيد قطيتين واسعتين للضيافة يحرسهما عبيد

العُمدة وخدمه. وعادة ما تنعقد السوق بعد الانتهاء مِنْ صلاة الظهر وما يلزمها مِنْ الخشوع والتسبيح والدعاء والنافلة. يتحلق الأسياد حول حلقة كل نخاسٍ على حدة، فيعرض بضاعته مِنْ العبيد والجواري. ويتبادل النخاسون الأدوار فنخاسو الوارد مِنْ الحبشة لا يحضرون ولا يبيعون حين يتواجد نخاسو الجبال أو بحر عرب، حتى أولئك النخاسيين الذين يأتون ببضاعة مِنْ الغجريات لا يحضرون إلى الحوش إلا حين يجيء دورهم وميقاتهم. ولا يبدأ نخاسٌ بيعه دون أنْ يمر عليه العُمدة أو أحد أبنائه الذكور حتى إذا اشتروا حاجتهم تبعهم أولاد فريق وراق، ثم أولاد فريق جاد الله، ثم سائر الناس.

(6)

.. **وتحلق** الناس حول نخاسة عبد الله ود علي ود جاد كريم وسالم ود الجاغريو، وهما يعرضان ذائبهما وجامدهما مما احتالا عليه مِنْ كرائم الرجال والنساء والفتيات الحسان الذين جلبوا قهرًا مِنْ الجبال وبحر عرب. كانوا يسلون أنفسهم لذة وبهجة ومتاعًا، والأرقاء والجواري يعرضون أمامهم وقد أنهكتهم العبودية وأضنتهم عِلتها، يسعون أمام أبصارهم مذعنين لأمر سادتهم، لا يدرون ماذا يريدون بهم ولا ماذا يريد بهم القضاء.

.. وتحلق فِي مَنْ تحلق عبد الرحمن ود حسن ود وراق ونفر مِنْ أولاد وراق، والصادق ود محمد ود جاد الله ونفر مِنْ أهله وصحبه، حتى الرضية بنت الأزيرق وود مرسال كانا يتحلقان مع المتحلقين، عسى أنْ يضما إلى الإنداية ما يعجب زبائنها مِنْ «فِريخات» الجبال وبحر عرب الحسان. وبدا الجميع سعيدًا ينتظر بفارغ الصبر حضور العُمدة إبراهيم ود الأرباب أو أحد أبنائه الذكور حتى ينطلق كل

واحدٍ بما قَسمه الله له مِنْ العبيد والجواري، لكنهم تأخروا بعض الشيء فهمس الصادق بصوتٍ خفيضٍ فِي أذن صاحبه عبد الرحمن:

ـ الحكاية شِني.. لا العُمدة إبراهيم.. لا العوقة فرح وليدو.. يعني الناس تقيف فِي خرابة الملك دي عشان تهريهم شمس النهار الحارة .. ليه.. فِي شان شِنْي.. صحي والله .. «الأصبع اليابس ما بتلحس» ..

أخفى عبد الرحمن ابتسامة كادت تشي بما فِي نفسه وقال مجيبًا:

• عريانين ويغتغتوا فِي كرعينُم ..

صاح الصادق بسالم ود الجاغريو النخاس قائلًا:

• سالم يا أخوي إنْ شاء الله طلبي لقيتو..

ابتسم سالم ابتسامة واسعة وغمز له بعينه وقال مُتزلفًا:

• .. طلبك حاضر يا الفارس.. فريختن بِتْدُورْلَا زمام..

ثم نظر إلى بعض عبيده وأشار لهم بيده ففهموه، وما هي إلا لحظات حتى تعالت صيحات المتحلقين، وتدانت الشمس إلى أبصارهم فلمْ يحفلوا بشمس السماء وسلطانها، وأطلت خِلاسية رائعة الحُسن والسُمرة، بارعة الجمال، فاتنة اللحظ، هيفاء القوام، شحيحة الخِصر، مشدودة العجيزة، ناهد الصدر، كحيلة العينين، ممتلئة الشفتين، قد ملأها الحُزن، وملكها الروع، فما زاداها إلا جمالًا فوق جمالها، وهي على ذلك جلدة متماسكة لا يمسكها إلا الحياء والوقار وعِلة الرق عنْ أنْ تظهر أنفة شاحبة أشبه بأنفة الملوك.

.. وأطلق الصادق صيحة إعجاب عالية، ثم جرى ناحية سالم يشد يده محييًا وشاكرًا، وجعل يجس الجارية كما تجس البهائم، يمسك بعجيزتها ليجس امتلائها، ويرفع رحطها ليكشف عُريها، ويعصر نهدها ليعرف هلْ أرضعت أم لا تزال تحتفظ بعذريتها، والناس حوله يتصايحون، وعبد الرحمن صاحبه مغيظ، والرضية بنت الإزيرق يسكنها الحسد، وود مرسال يتأوه ويتلوى كالنساء فِي كل مرة يمسك فِيها الصادق بعضًا مِنْ لحمها.

.. وفجأة!.. سكنت الأصوات جميعًا، وفغر الجميع أفواههم، وسكنت الدهشة وجوههم، وأضحوا كمن بهم جِنّة أو أصابهم مس. الجميع غير مصدقٍ أنَّ مَنْ يتجه ناحيتهم هو الطيب ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب بشحمه ولحمه. وبدأ الناس يتهامسون متسائلين، ماذا أتى بالطيب ود العمدة إلى سوق الرقيق؟.. فالرجل قد قال قوله فِي الرقيق والجواري، وهو لا يشتريهم ولا يبيعهم، حتى أولئك الذين تملكهم أمه أشار إليها بعتقهم ففعلت. وهو يتجر فِي المحاصيل والسعية فيثمر أعظم الإثمار، حتى تجاوزت سيرته حوش الأرباب إلى البقعة وشندي وديار العبدلاب والفونج والبطانة والمساليت وغيرها مِنْ المدن الكبيرة، وهو يكره الإتجار فِي الناس كما يكره استعبادهم، فماذا أتى به اليوم إلى سوق الرقيق؟

.. تقدم حتى توسط الناس فحياهم قائلًا:

• سلام أهل الحوش.. عساكم طيبين..

ردوا تحيته جميعًا غير مصدقين:

• سلام شيخ الطيب.. عساك بخير..

تململت الرضية بنت الإزيرق ثم انسحبت سريعًا لكنها أشارت لود مرسال بالاستمرار والمتابعة، فهي لا تحب أنْ يجمعهما مكان واحد، لمْ يكن ذلك خوفًا لكنه كان إجلالًا، ربما كانت ترى فِيه إنسانًا تمنته يومًا ما. وتراجع الصادق حتى دنا مِنْ صاحبه عبد الرحمن، ونظر إليه كأنه يستفسره عنْ سبب قدوم هذا الرجل إلى مكانٍ لمْ يعتدْه، لكنه لمْ يجد عنده شفاءً، بل ألفاه يحدق فِي الرجل ذاهلًا مذهوبًا به كل مذهب. وتردد النخاسان ماذا يفعلان؟ هل يبدآن بيعهما.. أو ينتظران؟.. سألهما قائلًا دون أنْ يذكر اسميهما:

• بضاعتكم شنو.. رقيقكم مِنْ وين؟ ..

تبادلا النظرات كما تبادلها عبد الرحمن والصادق.. وهمهم الناس غير مصدقين ما يسمعون.. لكن لا أحد يستطيع أنْ يبيع ويشتري إنْ لمْ ينِل العُمدة وأولاده حظهم مِنْ الرقيق. همس ود مرسال قائلًا لنفسه:

• وااااااي.. الشيخ بدورلو رقيق الليلة.. أريتو كان اشتراني..

وهمس الصادق بصوتٍ خفيض فِي أذن صاحبه عبد الرحمن:

• الحكاية شِنِي..

فرد عليه هامسًا مذعورًا:

• الله يستر.. الله يِقَضِي السوق ده على خير ..

تضايق الصادق مِنْه وهم أنْ يقول شيئًا إلا أنهما سمعا شيخ الطيب ود العمدة يأذن للنخاسين بالبيع. كانا يعرضان بضاعتهما واحدة واحدة فيشتريها واحدة واحدة، حتى إذا جاء الدور على الخِلاسية الحسناء صرخ الصادق بملء فِيه:

• دي حقتي أنا.. وطلبي أنا.. وما فِي راجل ود مقنعة بيقلعه مِنِّي..

التفت إليه الطيب ود العُمدة وقد رسم على ثغره ابتسامة ساخرة، واصطكت ركبتا عبد الرحمن وهو يرى ما ينفذ مِنْ عيني الطيب، فأمسك بالصادق وهو يسمع ود العُمدة يسأل النخاسين دون أنْ يضع اعتبارًا لما قاله الصادق:

• خادمكم دي بتدوروا فِيها كم؟

سحب الصادق يده بقوة وصرخ مرة أخرى:

• هووووي.. يا الطيب.. الخادم دي حقتي أنا.. بأقلعه قلع.. رجالة ولا رُضا..

مرة أخرى لمْ يجبه على صراخه، لكنه نهر النخاسين قائلًا:

• بايعنها بكم يا عفن؟ ..

سمع الناس سؤاله القوي الحاسم، فأشفقوا على أنفسهم مِنْ

غضبته، وكرهوا أنْ يعاكس الصادق ابن عمدتهم على جارية يريدها، وأنكروا عليه تعديه عليه برفع الصوت، وسألته أعينهم راجية أنْ يستكين لرجل أحبهم فأحبوه، ثم تحولت شفقتهم إلى استخفافٍ به على ما اقترفه مِنْ الإثم غير حافلٍ بعواقبه.

تمتم سالم ود الجاغريو بثمنها فِي صوتٍ خفيضٍ وهو ينظر إلى صديقه الصادق آسفًا، فالأعراف هنا لا تسمح له بإمساكها عنْ مَنْ هم أعلى منزلة، وكلاهما يعلم ذلك. لكن الحِنق والغضب والغيظ قد لبسوا الصادق بُردًا، فاستل سكينه وجرى ناحية الطيب ود العُمدة يريد قتله وسط دهشة الجميع، لمحه الطيب فلمْ يحرك ساكنًا حتى اقترب مِنْه فأمسك بساعده بيدٍ واحدة ثم ضغط عليها بقسوة فسقطت السكين وشُلت حركته، ثم ضغط عليها ثانية فصرخ الصادق صرخة فزعٍ وألمٍ عظيمين حتى جسا على ركبتيه وتعرق وجهه مِنْ فرط الألَم، وضغط عليها ثالثة فسمع الجميع تكسر عظامها وسقط الصادق مغشيًا عليه. لمْ يحرك أحد ساكنًا، كانوا ينظرون كالبُلهاء غير مصدقين، حتى تحركت الخِلاسية الحسناء باتجاهه ونظرت إلى جسد الصادق الممدد على الأرض فِي احتقار، ثم جثت على ركبتيها وهي تنظر إلى الطيب ود العُمدة كما تنظر الفتيات إلى فارس أحلامهن. دفع بثمنها إلى النخاسين وأخذ بضاعته وخرج مِنْ السوق والناس فِي ذهول.

(7)

أصاب حوش الأرباب ما أصابه فِي يوم واقعة سوق الرقيق كما سموها، وانقسم أهل الحوش إلى قسمين قسم ذاهل واجم مشرد اللب، لا يدري أينكر ما حدث أم يستحسنه، وقد اعتاد أنْ يفيق مِنْ نومه قبل أنْ ترسل الشمس نورها إلى فرقان الحوش وأزقته، فيضرب فِيها ذاهبًا جائيًا غزير النبض وفير الجهد. وقسم صد نفسه عنْ الأمن والطمأنينة، أو صُد عنْه الأمن والطمأنينة، فاشتد عليه الضيق وهو ينكر ما حدث أعظم الإنكار، وكانت أحاديثه متباينة أشد التباين ومتضاربة أشد التضارب. وهي على تباينها وتضاربها تستفز الفضول وتستثير التوق وتلتمس الرغبة إلى الاستزادة. وأي شيء أحب إلى الناس مِنْ التحدث عنْ السادة بما يسر وما يسوء، وبما يُرضي وما يُسخط.

.. استقبلت الهدية بنت الشريف الجيلاني ود الجنيد ـ الزوجة الأولى للعُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب ـ أخبار واقعة سوق الرقيق

بأخلاطٍ مِنْ مشاعرٍ متباينة، فعلى سعادتها بما فعله الطيب ود العُمدة وإعجابها به كفارسٍ قوي شجاع، أصابها شيء مِنْ خوفٍ وهلعٍ. لمْ تستطع أنْ تمسك عليها نفسها وقد روعتها أحلام الليل وأرعبتها أحاديث النهار.

.. والهدية بنت الشريف الجيلاني ود الجنيد تحب الطيب ود العُمدة وود فاطنة بنت حمد النيل حبًّا عظيمًا رغم أنه ابن ضرتها، كونها عقيمًا لا تلد، وكانت ترى فِيه ابنها الذي لمْ يلده بطنها. ولأجل حبها للطيب كانت تجل أمه وتحب شقيقه عباس وشقيقتيه زينب وسعاد. وبالقدر نفسه كانت تكره السُرة بنت عوج الدرب ـ الزوجة الثانية للعُمدة ـ وابنها فرح وبناتها الأربع؛ سالمة وعائشة وخديجة وسكينة، كراهية المرأة لضرتها. فقد عاشت عيشةً مُنكرة منذ أنْ لزمها ضُر السُرة. وابتسم ثغرها حين بُشرت بولادة الطيب فلقيته مبتهجة النفس منبسطة الأسارير، وهي التي سمّته الطيب رغم إصرار العُمدة على تسميته أحمد تيمنًا باسم أبيه، وكان لنزول أمه لرغبتها والوقوف معها ضد رغبة زوجها نصيب مِنْ هذا الحب وهذا الإجلال.

.. أمرت الهدية بذبح ثلاثة جِمال وستة ثيران وكثيرٍ مِنْ الضأن احتفالًا بالطيب ثم أرسلت إليه تدعوه لزيارتها فِي دار العمدة الكبير، وأمرت رقيقها بضرب الدفوف وضيافة أهل الحوش جميعًا وصنع

ما يطيب للناس مِنْ الطعام والشراب، واستقبلت الطيب بالزغاريد والفرح، وضمته إلى صدرها وهي تحن إليه حنين النيب إلى فصالها. وأحس الطيب بحبها العميق لكنه شعر بقلقها وخوفها الشديدين، وقد رأى دموعًا تترقرق بين جفونها تحاول أنْ تمسك بها حتى لا تشي بما يعِنُ فِي صدرها، قال لها بوجه باسمٍ وباش:

• مالك يُمه.. لعل ما فِي عوجة ..

قالت وقد احتبست فِي حلقها عبرة لمْ يبن صوتها مِنْها:

• ما في شي يا وليدي.. بس بدور أوصيك.. اعمل حسابك مِن الواقف فوق ضهرك.. أنت ما بتجيك عوجة تب مِنْ الواقف قدامك..

.. واستقبل العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب الحادثة بشيءٍ مِنْ فخر واعتداد، وهو يرى أنَّ ابنه الفارس لمْ يخطئ والأعراف تعطيه الحق أنْ يشتري كل الذي يرغب فِيه أولًا، ثم يأتي بعدهم أولاد وراق، ثم أولاد جاد الله، ثم سائر الناس، ومِنْ ثم فالصادق قد أخطأ باعتراضه وأجرم حين أراد قتل ولده، لكنه لمْ ينسَ أنه كبير الحوش لذا أمر رقيقه بأخذ عشرة مِنْ الإبل البشارية إلى أولاد جاد الله هدية مِنْه ـ لا دية ـ على سلامة ابنهم الصادق بعد أنْ أكد له بصير الحوش أنَّ كسور ساعده الثلاثة ستشفى خلال شهرٍ إنْ شاء الله.

.. وتساءل العُمدة وهو يتمدد على «عنقريبه» فِي حوش الهدية

فِي البيت الكبير، وقد ارتفع الضحى مِنْ الغد، عنْ سبب شراء ابنه لهذه المجموعة مِنْ العبيد والجواري وهو الذي أعتق عبيده ورقيق أمه وأخيه وأختيه، وأشار عليه ليعتق عبيده وإماءه فأبى عليه ذلك. وهو الذي يرى ألا مكان للعبودية لا فِي الدين ولا فِي الإنسانية. وقد تسامعت به الناس فِي البقعة وأتبرة وشندي والمتمة وما جاورهم وتسامعت به ديار العبدلاب والفونج والبطانة وديار المساليت، والتمسوا فِي كلامه ما لمْ يجدوه فِي غيره، فمِنْهم مَنْ وافقه وهم قلة قليلة ومِنْهم مَنْ أنكره وهم الكثرة الغالبة. فلِمَ اشتراهم؟.. وماذا تعني له هذه الخِلاسية التي كسر بسببها ساعد الصادق؟.. هلْ يريدها لنفسه؟.. هلْ يريد أنْ يتسرى بها؟.. لكنه لا يأتي الإماء ولمْ يحدث أنْ تسرى بهن، هكذا أكدت له أمه فاطنة بنت حمد النيل، ربما يريد أنْ يهديها لأبيه حتى يرضى عنْه. تبسم العُمدة عند هذه الخاطرة تبسم الآمل، وغشاه رضًا عنْ ابنه، ومدد رجليه وتقلب على فراشه ذات اليمين وذات الشمال.

.. أسرع ود مرسال بالأنباء إلى الإنداية حيث يجتمع الملأ مِنْ قاع الحوش وما جاوره، فلمْ يحدثهم فِي تجارةٍ أو بيع للعبيد أو الإماء، إنما حدثهم عنْ ما حدث فِي سوق الرقيق، هذا الحدث العظيم الذي كان بطله شيخ الطيب ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب. كان يتحدث إليهم فِي انبهارٍ وإعجاب وقد انتفح سَحْرُه، وورَم أنفه، وصعد الدم

إلى وجهه، وجعلت عيناه تبرقان بوميض لامع غريب، فقد أحدث ود العُمدة فِي الحوش والسوق والإنداية والمزارع والناس ما لا عهد لأحدٍ به. قال لهم:

• السواه شيخ الطيب.. ما في زول سواه.. بإيد واحدة.. كسر إيد الصادق وقلع سكينته.. فارس نجيض..

سألته إحدى الجاريات وقد استفز أنوثتها:

• قوول.. أحكي الحصل شنو فِي السوق النهارية.. البجي كلو يقول كلام ما بخش العقل..

أجابها وهو يتمايل تمايل العاهرات وينظر بعيدًا عله يستحضر صورة الطيب والصادق وهما يتعاركان:

•.. الفريخة سمحة سماحة الجِنْ.. جابه سالم ود الجاغريو للصادق ود جاد الله.. لكن الحق في الحوش ده حق العُمدة وأولاده فِي الأول وبعدين غيرهم.. الصادق شافه.. عقله طار.. قعد يجس فيها يهبش بي جاي.. ويهبش بي جاي.. لمن شعرة جسمي كلبت.. بوووظ أعصابي كدي عديل.. أهه جا الفارس كف ختفه.. والسكليبه قامت..

صمت برهة ثم أكمل:

• الصادق صَيَّح عوووك.. دي فريختي أنا.. السماء ده قريب كان ود مقنعة يقلعه مِنِّي.. قلع ولا رُضا حقتي.. ود العمدة ما اشتغل

بيهو الشغلة.. ولا عاين فيو قال لي سالم أت عايز فِيها كم.. أهه الصادق قال إن شاء الطويل يكوسوهو بالعود.. وجر سكينته بدور يكتل ود العمدة.. لكن وييين.. الفارس مسك ليك إيده الشايلة السكين وعصره ليك عصرة.. لمن الصادق صرخ ورمى السكين.. لاكين الفارس ما خلاها عصره تاني.. بب الصادق برك زي الجمل.. وتاني عصره ليه لمن كسر عضامه.. وغمر.. خلاه مجدوع فِي الواطة وساق رقيقه وفريخاته وقبل على حوش أمه..

سألته إحداهن فِي فضول:

• وإت كت واقف تعاين بس..

نظر إليها ساخرًا، وقال:

• النصيحة يا بنت أمي أنا كنت بعاين وكل عين كانت فِي حِتة.. عين فِي الدواس.. وعين فِي الشيتن البتلولح تحت سروال ود العُمدة.. شيتن مو شِي.. سائل راجل الغرب عنقريبي يتكرب.. ويجيني بالدرب.. وأضوقه مرة واحدة وأتوب..

ضحك المستمعون والمستمعات، فقالت إحداهن:

• أنت بتوب لاكين..

أجابها:

• ما لي ما بتوب.. كمان التوبة دي حققتكن براكن..

.. كانت الرضية بنت الإزيرق تسمع حديث ود مرسال فِي

اهتمام وأناةٍ وريث. وهي تحس أنَّ فيالق الشر وشياطينه قد أطلقت مِنْ عقالها وأنَّ ما هو آتٍ لشرٍ كُله وفساد كله. وأنه سيفسد الرقيق والدهماء والسادة على السواء. فما يفعله الطيب ود العمدة سيغرى الرقيق والإماء والدهماء مِنْ جهة، لكنه سيستفز حِنق السادة وغضبهم مِنْ جهاتٍ كثيرةٍ أخرى. وسينقلب حال حوش ود الأرباب رأسًا على عقِب، وسيجيء يوم لنْ يعرف الناس فِيه عاليهم مِنْ سافلهم. لكن! أمرًا آخر يشتط على فكرها ويسيطر على عقلها، فبرغم ما تتوقع حدوثه فلابن العُمدة موقع خاص وقد باتت تخاف عليه مِنْ نفسه ومِنْ أبيه. الرجل فارس مقدام، لكن أباه شخص آخر ولا أحد يعرفه سواها.

.. وكان فرح ود العُمدة إبراهيم ورفيقه عبد الرحمن ود محمد ود وراق يزوران الكسير الصادق ود محمد ود جاد الله ويعودانه. استقبلهما وهو غاضب حانق مغتاظ. فاشتط عليهما فِي القول وألح عليهما باللوم، وأقسم أنْ يثأر لنفسه وأنَّ الحربُ المنكرة قد حُملت إلي أولاد جاد الله حملًا، ونصبت عليهم قسرًا فِي عُقر دارهم. وفعلت كلماته فعلها فِي قلبيهما، فأفسد الخوف والهلع عليهما أمرهما، وأخرجهما الذعر والروع مِنْ أطوارهما.

.. واختلط الأمر على الناس فِي فريق أولاد وراق، فهم يقرون بأحقية ود العُمدة فِي الشراء أولًا ويأخذون عليه الغلظة فِي الرد على

سفيه أولاد جاد الله وكسر يده. وانقسم أولاد جاد الله على أنفسهم فمِنْهم مَنْ أضمر شرًّا ومِنْهم مَنْ سُر لكسر شوكة الصادق ومِنْهم مَنْ يرى خطئه وخطأ ود العُمدة على السواء.

.. وكان الرقيق والإماء والجنقو هم أكثر سكان الحوش سعادة. فقد رأوا فِي الطيب ود العُمدة مخلصًا أو مصلحًا. فهو بهم رحيم، وقد أعتق الكثير مِنْ العبيد والخدم، وهو لا يسيء إليهم ولا يستخدمهم استخدام السوء، بل يحسن إليهم ويعظم أجرهم، لذا فرحوا فرحًا شديدًا بما حدث فِي سوق الرقيق مِنْ أجل فتاةٍ مِنْهم. ما عادوا بعد هذه الحادثة يرضون أنْ تسفه أحلامهم ولا أنْ تُعاب سحنهم، ولا أنْ يتعرض السادة لهم بالشر.

(8)

كانت فاطنة بنت حمد النيل ترقب الفتاة الخِلاسية ـ التي أتى بها الطيب منذ ثلاثة شهور ـ وهي تقتعد الأرض بجانب «عنقريبه»، ويتردد نظرها بين فرش «العنقريب» الخالي وباب الدار المغلق، كأنها تنتظر حضور صاحبه لتسعد بالنظر إليه أو تُسر بوجوده، وهي لا تدري هلْ سيطول مجلسها أم سيقصر؟.. ثم أدارت فِي نفسها خواطر شاردة أخذتها بعيدًا عنْ مجلس الخِلاسية. كرت مسبحة الذكريات واستعادت واقعة سوق الرقيق، فأصابت قلبها رهبة اعتادت أنْ تصيب قلوب الأمهات. سألت نفسها: «أي شيءٍ طرأ؟ وأي حادثٍ عرض؟» ثمْ أعادت السؤال مرةً ثم مراتٍ لكنها لمْ تجد الإجابة، فحاولت أنْ تصرف نفسها عنْه، وتحرضها على مراقبة تلك الجارية عساها تدرك سر هذا الإشراق الخافت وذلك الابتسام الحزين. وما زالت على ذلك حتى ردت إلى قلبها بعض الأمن وإلى نفسها بعض الهدوء.

.. نهضت الخِلاسية مِنْ مقعدها وخطت خارج المكان إلى الحوش الكبير تريد أنْ تستنشق الهواء وتنظر إلى السماء وترجوها عودة صاحب الفراش إلى مرقده، فأغلب الظن أنَّها كانت ضيقة النفس بابتعاده عنْها، وأغلب الظن أنَّها كانت تألف الفرح والبهجة والسرور فِي وجوده. كانت نفسها تعج برغباتٍ هادئات، لكنهن مُلحات داعيات تكاد تشي بهن نفسها لثنايا القلب وأعماق الضمير. وكانت حريصة كل الحرص على ألا يظهر مِنْها ضعف أو يبدو مِنْها تقصير. كأنَّ الله قد دبر لها فِي الرق أمرًا فأحكم تدبيره، وأخفاه عنْها ولمْ يرفع عنْه الحجاب. وقد انقطع عهدها بالحُرية منذ أنْ تحايل سالم ود الجاغريو والنَهّاضة مِنْ الجلابة على أهلها وخطفوها وبعض الفتيات والفتيان حين كانوا يسمرون ويسعدون بالحياة المرحة والعبث البريء على شاطئ بحر عرب. وانقلبت حياتها على نحوٍ مفاجئ كأنْ قد جرفها السيل الذي لا سبيل إلى التحول عنه أو التخلص مِنْه.

.. لمْ تكد تصدق نفسها وهي تسمع جلبة تأتي مِنْ اتجاه بيت الرجال، فجأةً! أصبحت فِي ريبٍ مِنْ أمرها واختلاط، وما درت أهي بعقلها أم أصابها مس مِنْ جنون. اضطرب جسمها وزادت خفقات قلبها. لقد عاد أخيرًا إلى حيث يجب أنْ يكون. تحدرت دمعة عابثة على خدها الأسيل، مسحتها بطرف يدها وغشتها ابتسامة آملة. أحست بيدٍ حانية تلمس كتفها، التفتت إليها فإذا هي صاحبة الدار

فاطنة بنت حمد النيل تقف مبتسمة وتمد لها ثوبًا جديدًا وهي تقول:

• البسي الجلابية دي يا تاج الملوك.. الطيب ما بيدور يشوفك حايمة فوق الحوش بي رحطك ده.. بيزعل منك ..

تناولت الثوب فِي سعادة، وألقت نظرة على جسدها العاري فلمْ تدر أتلوم العبودية أم تلوم نفسها.

.. دلف الطيب إلى داخل بيت أمه فرحًا مبتسمًا مرتاح الضمير. ألقى عليها التحية فأحسنت إجابته. وخرجت شقيقتاه زينب وسعاد تلتقيانه مبتسمتين راضيتين. داعبهن فِي ود أسلس نفسيهما بالأمان والطمأنينة، وسأل عنْ شقيقه عباس فقيل إنه خارج الدار مع أصحابه يسمرون ويعبثون فسأل الله له الهداية.

.. وخرجت تاج الملوك بثوبها الجديد مسرورة أعظم السرور تكاد الأرض التي تمشي عليها تئن مِنْ وجع اللذة، ويكاد صوتها الشادن الحزين يتسلل الآذان ويرسل إليها الألحان العِذاب فتصيب النفوس سُكرة تذهب العقل.

.. أبصرها الطيب فذهل وأصاب نفسه شيء مِنْ فحولة، فغض طرفه واستعاذ مِنْ الشيطان. وتمتم بصوتٍ خفيض:

• أستغفر الله.. تبارك الخلاق..

نظرت إليه فامتلأ به قلبها، وسمعت كلماته إليها ففتنت بها نفسها، وابتسم لها ساعة فصرفت إليه عنْ كل شيء فِي المقام أو فِي

الرحيل. نهض وهو يخفض بصره وتاج الملوك تقف أمامه مبتسمة سعيدة هائجة المشاعر وأختاه وأمه يتفحصنه حائرات. سألته أمه وهي فِي حيرة مِنْ أمر ابنها البكر:

• مالك قمته واقف تقول عضاك دبيب.. الفريخة عجبتك.. ما اشتريته بقروشك ما تسارره كان عاجباك..

نظر إلى أمه عاتبًا وقال:

• يمه ده كلام شنو.. أول بالتبادي أنا أعتقتها لوجه الله.. كمان يمه.. الزول بنادوه باسمه ما بي وصفه.. ويا أم الطيب أنت مؤمنة وبتعرفي كلام ربنا.. ما فِي حاجة اسمها سارر بنات الناس.. يا عرس ومهر وعقد.. يا ما فِي سرارة..

قالت مداعبة:

• يا ولدي.. الله يرضى عليك.. إحنا مما الله خلقنا العبيد عندنا والفريخات عندنا.. والرجال بتسروا بيهن.. والفريخة سميحة.. قصدي تاج الملوك سميحة.. وهي بتدورك.. يومه كله قاعدة تحت عنقريبك.. وترتب فِي حاجاتك.. ولو أنت ما فِي ما بتجيب خبر زول كان البيت قام ولا قعد.. ومما تجي.. سنيناته يظهرن.. وتضاحك حتى مع السعية.. أهه شن قولك عاد..

ابتسم ابتسامة رضًا ولكنه قال بحسم:

• أنت يا أمي بتدوريني أفك سروالي ده وأحك لي عرانن حرام..

صاحت إحدى شقيقته وهما يتسمعان حواره وأمه:

• سجمي!.. ده كلام شنو..

وانسحبت الشقيقتان خجلتان مِنْ مجلس أمهما، لكن الأم قالت:

• ده ما عرانن اشتريته مِنْ سوق الرقيق.. خادم بنت زرقه.. صحي هي سمحة إلا خادم فريخة.. أنت وكت ماك دايره كاسر إيد الصادق ود جاد الله فوق شنو..

قال وهو يضاحكها:

• أنت عارفة يا أم الطيب.. يعني شنو فرخ أو فرخة.. العرب بيقولوها لي جنى الطير البقع من عُش أمه.. وما بتعرف ليه أم.. ولما كانوا يقولوه لي زول كانوا بقولوه لي ود الحرام.. وأنتِ عارفة يمه ديل ما أولاد حرام.. وتاج الملوك معتوقة لوجه الله والرسول.. وتاني يا أم الطيب أنا صحي اشتريته مِنْ سوق الرقيق.. لاكين البنية مسروقة مِنْ أهلها.. الزي النخاس ود الكلب سالم ود الجاغريو.. ما فارس حرب.. ده حرامي حيلة.. ما بعرف الله.. يسرق بنات الناس زي سراريق البيوت.. وده حرام يمه.. وأنا ما بفك سروالي ده فِي حرام..

صمتا قليلًا وأردف:

• كمان يمه.. ما فِي زول ببقى رقيق عشان لونه أزرق.. ولا فِي حاجة زي دي فِي كلام الله ولا فِي سنة نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ هسه نحن ذاتنا ما سووود فحمة ..

صرخت مستنكرة:

• بري يا يابة.. نبرى ونستبرا.. خدرتنا دي زيها ما فِي.. لا نحن حلب متوركين.. ولا خدم زرق..

صمتت هنيهة ثم أردفت:

• يا الطيب يا وليدي.. أنت قلت لينا فكوا عبيدكم وخدمكم.. فكيناهم كلهم لله والرسول.. وأنت برقبتك مشيت لي سوق التلات اشتريت كل الرقيق الفي السوق وفكيته لوجه الله ورسوله.. ما قلنا حاجة.. بس البنية دي أنت ماسكة ليبه لم ما عندك فيها غَرَضْ..

أجابها متبسمًا:

• صح يمه أنا ما عندي فيها غرض.. لكن داير أوديها لي أهلها.. خليها تتعلم تتكلم شوية عربي.. عشان أعرف أوصلها لأهلها..

سمعا صوتًا عذبًا خلفهما ينتحب باكيًا ويقول:

• إن دُرت الدرب.. بوصفه ليك..

التفتا ناحية الصوت فإذا تاج الملوك تنتحب وهي تنظر إليهما عاتبة راجية. قالت سيدة الدار:

• سجمي!.. أنتِ بتعرفي كلام العرب..

لمْ تجبها تاج الملوك بلْ زاد نحيبها، فلمْ يستطع الطيب ود العمدة تحمل دموعها وخرج تاركًا المرأتين تتعانقان.

(9)

لمْ تجد الراحة ولا الاطمئنان إلى دار السُرة بنت عوج الدرب ـ زوجة العُمدة الثانية وسليلة الأخيار مِنْ أهل السودان ـ سبيلها والشيطان يألفها ويألف أهلها. وللشيطان فِي قلوب الناس مآرب شتى تكثر وتقل بمقدار إيمانها وقربها مِنْ الله عز وجل. وهو ماكر ماهر فِي المكر يستخفي مرات ويبين أخريات كيف شاء. أطلقت السُرة بنت عوج الدرب لسانها بكثيرٍ مِنْ القولِ فِيه الإغراء بالمنكر والصرف عنْ المعروف وهي تزين لابنها البكر الذكر الوحيد كراهية أخيه غير الشقيق الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل. وتعذب فرحًا تعذيبًا شديدًا بهذه الكراهية التي تعظمها له وتضخمها فِي نفسه تضخيمًا عظيمًا، وبهذا البلاء الذي ابتلي به، فقد صُرف عنْ أخيه، فلا يكاد يراه إلا وتولى عنْه حانقًا ومغيظًا. وكان الحسد والغيرة يتبعانه حيث حل أو رحل، فلا يكاد يسمع صوت أخيه أو يسمع عنْه حتى يخيل له أنَّ صاحبه يقطر بغضًا له ونفورًا مِنْه.

.. سعت شمسُ صباح ذلك اليوم إلى دار السُرة بنت عوج الدرب فِي استحياء، والسُرة قد قضت صلاة فجرها وما يلزمها مِنْ الدعاء لابنها بالتوفيق فِي مسعاه الحثيث إلى العمودية إنْ غيب الموت أبيه، ولمْ تنسَ أنْ تدعو لبنتيها المتزوجتين بالذرية الصالحة ولغير المتزوجتين بالزوج الفارس الصالح المطيع. وأقامت حينًا تشرب قهوة الصباح قبل أنْ يزول حياء الشمس فتنتشر فِي الدار والدنيا كلها بجرأةٍ ووقاحة. لكنها كانت فِي ذلك الصباح مثقلة القلب والنفس بأمرٍ تريد السيطرة عليه فلا تستطيع، ليتسكع الغضب والحِنق والضيق فِي قلبها ونفسها حتى كادت تخرج عنْ طورها. كان قلقها يبلغ حد الجزع وهي لا تذعن للقضاء ولا تصبر على المحنة.

سمعت صوتًا تدركه وتحبه:

• سلام يُمه.. كيف أصبحتِ؟ ..

التفتت ناحية الصوت فإذا ابنها فرح يقف أمامها مبتسمًا، فقالت تحييه:

• سلام يا عشاي.. صبَّحك الله بالخير.. أقعد يا ولدي اشرب معاي القهوة.. كان ما بتدوره.. خلي واحدة من الفريخات ديل تسووِيلك رقاق باللبن..

جلس على «بنبرٍ» قصير بجوار أمه، وقال:

• بدور أشرب معاك القهوة.. وكمان أروِق برقاق ولبن.. قايم من

نومي جيعان ..

قالت:

• تبرا أنت من الجوع يا عشاي.

ثم صاحت تنادي خادمتها:

• أم الشوق.. أم الشوق.. سَوِي كُورْتن كبيرة لِي لتْ رقاق باللبن لي سيدك فرح ود حشاي ..

.. وما هي إلا لحظات حتى أقبلت أم الشوق جارية السُرة تحمل «جبنة القهوة» وإناءً مليئًا «بالرقاق والحليب».. ولمْ تنسَ أنْ تجيء بمبخر الفخار وقد أحرقت بعض البخور حتى لا يجد الشيطان بين سيدتها وابنها مكانًا. صبت أم الشوق القهوة فِي فنجانين جميلين، وناولتهما إياهما فِي أدبٍ اتسم به رقيق العُمدة جميعًا. وجعلا يحتسيان القهوة حسوًا خفيفًا كأنهما يترفقان بها. لمْ يكن ما بينهما مجلس أم ترغب فِي الجلوس مع ابنها البكر حفية به مشوقة إليه، ولا مجلس ابن أراد أنْ يبر أمه فصاحبها ساعةً مِنْ زمان، ولكن كانت نفسيهما تعجان بصخب أشبه بالبركان، لمْ تخمده الأيام ولمْ تنسج عليه حجابًا يمنع حممه مِنْ الانفجار.

سألته قائلة وهي تريد أنْ تستفز دواخله:

• مالك؟.. ليك مدة ما اشتريت ليك عبد ولا فريخة..

أحس بما تريده أمه، وضع إناء الرقاق واللبن على الأرض وتجشأ

بصوتٍ عالٍ، ثم أجابها قائلًا:

هيي نان القشير ده خلاله عبد ولا خويدم لي زول.. قريشاتو محرقاتنو.. يشتري في العبيد والخدم.. ويعتق فيهن ساااااكت.. كيتن في الصادق ود محمد ود جاد الله.. ما سمعتِ إنو ود فاطنة عصر إيد الصادق لمن كسره..

قاطعته منفعلة:

• وإنتو وين يا رجال الحوش.. فرت وليد بلغ وقام ليه شنب أول البارحة.. يوقفكم كلكم علي فرت كراع.. وأنت يا ود حشاي.. الصادق ده مو صاحبك.. كيف راجل يكسر إيده وأنت واقف تعاين وما تاخد ليه حقه..

فزع فرح لقولها فقال:

• أنت عارفه يمه كُرهتي في الدنيا دي بس ياها للقشير ود فاطنة.. إلا هو ما غلطان.. الصادق ما عنده حق فِي سوق الرقيق قبال العمدة وأولاده.. وكمان مرق سكينته بدور يكتلوا.. وده كله ليه؟.. شان فريخة..

اغتاظت مِنْ حديث ابنها وجرت الدماء فِي عروقها غاضبة، فقالت له:

• هسه ود فاطنة بقى ود العمدة.. باكر أبوك بودع الفانية دي وهو ببقى العمدة وأنت بتبقى أخو العمدة ..

صمتت برهة لمْ يتحدث فِيها أي مِنْهما، فأردفت:

• ود فاطنة راجل قوي.. وراسه مليان.. ما زي راسك المافيه إلا إنداية الرضية بنت الإزيرق والحبشيات والمريسة والعرقي.. وود مرسال.. أنت فاكر خبرك ما بعرفه يا ود بطني..

وجعلت تنسج فِي مشاعره كما ينسج النساجون القماش، وتغذيه بالكراهية وتفطمه بالحقد على أخيه غير الشقيق، وتفسر عتق العبيد والإماء بغير ابتغاء وجه الله تعالى، إنما ابتغاءً لسلطان العمودية، ثم تقارن بينها وبين فاطنة بنت حمد النيل التي تزوجها العُمدة بعد أنْ عجزت أنْ تلد له ابنًا ذكرًا ثانيًا، وتفاخر بنسبها الشريف الذي لا تضاهيه عمودية أبيه ولا تدانيه عمودية حمد النيل والد ضرتها وإنْ اجتمعتا. وأنَّ هذا النسب الشريف حق له أنْ ينال العمودية، وأنَّه الابن البكر الذي جاء إلى الدنيا بعد أنْ فشلت الهدية بنت الشريف الجيلاني ود الجنيد - الزوجة الأولى للعُمدة - فِي أنْ تنجب له الولد. صحيح أنَّها أشرف مِنْها نسبًا لكنها عقيم لا تلد، كما أنَّها تحب فاطنة وابنيها وبنتيها، ولا تحبها أبدًا ولا تحب أولادها.

.. وكان هذا حالهما حتى اصفر وجه النهار، فنهض كل مِنْهما إلى مبتغاه، وأفلحت السُرة فِي أنْ توغر قلب ابنها على أخيه غير الشقيق، وضخمت إحساسه بأنَّه صاحب الحق فِي عمودية الحوش القادمة إنْ مد الله فِي آجالهما وقصر أجل العُمدة إبراهيم ود العُمدة.

(10)

شُفيت ساعد الصادق ود محمد ود جاد الله، ولكن لمْ تشفِ قلوب الأكثرية مِنْ أهله ولمْ تهدأ نفوسهم. كانوا يهمسون بحِنقهم وغبنهم وغضبهم والظلم الذي وقع على ابنهم، وحين استوفوا حظهم مِنْ الحِنق والغبن والغضب والظلم، صاروا يجهرون بهم ويجأرون بشكاتهم. وكان أولو الجرأة مِنْ شبابهم يذكِّرون شيوخهم بذل الإهانة وثقل عبئها، ويسخرون مِنْ استكانتهم للعُمدة وولده الطيب وقد يتجاوزوا السخرية إلى سوء الأدب. وكان الشيوخ يرون أنَّ حيلتهم ضئيلة نحيلة فقد أخطأ ابنهم مرتين، مرةً حين تجاوز الأعراف ومرةً حين استل خنجره فِي غير مقتضى لذلك. وكذلك كانوا يضطربون بين الحزن والرضا وبين القلق والأمن.

.. ولمْ يكن حال أولاد وراق بأحسن مِنْ حال أولاد جاد الله، فقد شغلوا بهموم الحوش التي لا يتركونها فِي جوفِه إلا ويلقونها فِي مزارعهم ومحلاتهم التجارية، ثم ما إنْ يغادروا مزارعهم وتجارتهم

حتى يجدوها قابعة فِي ديارهم. وأحاديث الطيب ود العُمدة وأفعاله لمْ تعد كسرًا لساعد ابنٍ مِنْ أبناء الحوش ولا شراءً للعبيد والإماء ثم تحريرهم وإعتاقهم، بلّ تجاوز ذلك إلى رفض الجنقو عمال الزراعة العمل دون أجرٍ مجزٍ، وتدني مجهود عبيدهم وزاد تطلعهم إلى الحرية لا للسُخرة، وتعنت الإماء ورفضهن التسرية والتمتع الحرام. وأولاد وراق أهل تجارة وزراعة وإنتاج. والطيب ود العُمدة يقف لهم بالمرصاد. صحيح أنه لمْ يهاجمهم أو يسيء إليهم، وصحيح أنه لا يمنع أحدًا مِنْهم مِنْ فعل ما يريد لكنه يشحن الناس بما لمْ يعهدوه مِنْ غيره، وأصبح له أتباع ومريدون وهو شيخهم وزعيمهم، وهذا يهدد مصالحهم ومصالح الحوش كله ويهدم بناءه.

.. وكانت إنداية الرضية بنت الإزيرق تسرف على الناس فِي المجون والعبث والحرام، لكن الرضية نفسها كانت حائرة بأحاديث الطيب ود العُمدة عنْ الحلال والحرام والأخلاق والإنسانية وتحرير العبيد والإماء والمساواة بين الناس، فتتمنى أنْ تضيع تجارتها ويتلف مالها لتتبعه حرة أينما حل وأينما رحل. وحين يلمُ بها طيفه وتستحضر صورته، تكر مسبحة ذكرياتها وقد تتابعت الأيام والأشهر والأعوام، ومضى جيل مِنْ الناس وأقبل جيل. فتبتسم ابتسامة تمزج بين الحنان والرضا وتخلط بين الحزن والقلق. كان يسكنها ذلك الإجلال الذي كساه منذ كان طفلًا، لمْ تلتقيه كثيرًا لكنها كانت تحبه وتجله وتخاف

عليه.

.. وود مرسال ما زال يذكر يوم حادثة سوق الرقيق، ومنذئذ جعل يتسقط أخبار الطيب ود العُمدة، وكان أكثر ما يزعجه احتفاظه بالجارية الخِلاسية الساحرة. لمْ يقتنع بأنّ ود العُمدة لا يريدها لنفسه، بلْ جزم أنه تسرى بها. وأصابه شيء عظيم مِنْ غيرة عمياء فقد كرهها بلا سبب سوى أنها قد حظيت باهتمام ود العمدة، وأضمر لها شرًّا. وود مرسال لا يمني نفسه بأحاديث شيخ الطيب ود العمدة فهو لا يفهمها ولا يريد أنْ يفعل، لكنه يأمل بذلك الشيء الذي رآه يتأرجح تحت سرواله.

.. وكان الرقيق والإمـاء يسمعون أحاديث ود العُمدة عنْ الحرية والإنسانية والمساواة بين الناس فيصعب عليهم فهمها أول الأمر. حتى إذا فهموها جعلوا يرددونها فِي إعجابٍ وزهو وأدركوا أنهم أحرارٌ وإنْ استعبدت أجسادهم أو بعدت بينهم وبين الحرية الأسباب. وكان مرسال عبد العمدة الوفي ـ وكان فِي بيت فاطنة بنت حمد النيل ـ أول الصابئين عنْ العبودية حين أعتقه الطيب ود العمدة. لذلك كان لا يتركه أبدًا إلا للنوم.. كان يخاف عليه خوفًا شديدًا ولمْ تغفل عينه عنْه منذ أعتقه.

.. وكان ود عجيب صاحب الطيب وصديقه الوفي حائرًا أشد الحيرة. فهو شاب موسر فِي عمر صاحبه وسنه، وقد نشأ مترفًا فِي

بيت ثروة وغنى، وهو يشارك الطيب فِي جدهما الأرباب الكبير، وفوق ذلك فهو خفيف الروح كثير المرح والدعابة. وهو يحب الإماء والمجون ومقارعة الخمر، لكنه لا يذكر ذلك فِي مقام صاحبه. وكان الطيب يدرك علته لكنه لا يعاتبه عليها ولا يذكره بسوء. آمن ود عجيب بمبادئ الحرية للجميع والمساواة بين الناس والعمل الجماعي وكل ما كان يقول به الطيب، لكن صعب عليه تنزيل هذا الإيمان إلى مصاف التصديق بالعمل. ولمْ يثقل عليه صاحبه بأكثر مما يستطيع. لذا كان ود عجيب يدافع عنْه دفاع المستميت.

(11)

.. **واجتمعت** طائفة مِنْ عِليَة أهل الحوش وكبارهم فِي دار الهدية بنت الشريف الجيلاني ود الجنيد الزوجة الأولى والكبرى للعُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب بعد صلاة الجمعة. وهي الدار الوحيدة التي يستقبل فِيها العُمدة أهله أو ضيوفه، إما ليولِمِ لهم أو لاستشارتهم فِي أمر الدنيا. لكن الملأ لمْ يأت ليحدثوه فِي أمر التجارة أو البيع، ولا فِي أمر سياسة الحوش وحكم أهله، وإنما أرادوا أنْ يشكو إليه هذا الذي استحدثه ولده الطيب. إذ ليس لأهل هذا الحوش عهد بتحرير العبيد أو حديث الحرية أو المساواة بين الناس وكيف ذلك وقد خلقهم الله متفاوتين فِي الحسب والنسب والمال. استقبلهم العُمدة بترحابٍ يليق بمقامهم وأولم لهم فذبح الإبل والأبقار والضأن، وطافت الطيبات بينهم بلا حساب وهذا أمر اعتادوه فِي دار العُمدة.

.. والعُمدة رجل فطن، يعرف كيف يسوس الناس، ويدرك كيف يكسب رضاهم. وله فراسة تعضدها الفطرة فيأمر الناس فِي ما

يصنع، ويستحث عقولهم ومشاعرهم، ويستشير أولي الرأي مِنْهم، حتى إذا استوفوا حظهم مِنْ الأمن والاطمئنان، اتبع هواه، وتخفف مِما أشاروا به، والتمس مزاجه وعمل برأيه. وإذ هم لا يرون رأيًا بعد رأيه، فيلتمسون فِيه ما لا يجدون فِي غيره مِنْ التدبر والفضل والسعة والطمأنينة والقبول.

.. أبان القوم للعمدة أنَّ ما أحدثه ولده الطيب هو غاية الشر بهم وبمصالحهم، وأنَّه أفسد عليهم دينهم ودنياهم وأفسد الرقيق والدهماء على السواء. فالطيب يقول فِي عُلماء المسلمين ما يقول، ويقول فِي مُلك اليمين ما يقول، ويمنع التسري، ويأمر بعتق الرقيق، ويشتريهم ثم يحررهم، وهو بهذا يغريهم بالثورة على أولي الأمر مِنْ الناس، ثم لا يكفيه ذلك فيغريهم بأموال سادتهم ومرافقهم، ويطمعهم فِي ما ورثه السادة مِنْ المرتبة والمنزلة. وهو يدعي فِي ما يدعي أنَّ للعبيد نفس الحق الذي لسادتهم فِي الحياة والرزق والعيش، وأنَّ عليهم مثل الذي على غيرهم مِنْ التبعات. يحط مِنْ قدر السادة ويجعل سافل الحوش عاليه. لذا لا بُد مِنْ زجره ورده عنْ القصد.

.. وزاد كبير أولاد وراق أنَّ الطيب يريد لسادة الحوش مِنْ أبناء العرب أنْ يصبحوا رقيقًا وللرقيق والعبيد والإماء أنْ يصبحوا سادة. وأنَّ مصالحهم فِي الزراعة والتجارة قد تأثرت بغرور الطيب فالجنقو لا يريدون العمل بالأجور القديمة وأنهم مضطرون لزيادة أجورهم

حتى لا يضيع الموسم الزراعي مِنْ بين أيديهم، وأنَّ الرقيق تعمدوا التمارض والكسل وحتى استحسان التعذيب أملًا فِي الحرية التي يزينها لهم الطيب الذي ليس له مِنْ الطيبة فِي ذلك شيء. والإماء يمتنعن عنْ التسري إلا بعد جهد، كأنهن نساء العرب الحُرات، وهو أمر لا يمكن قبوله لأنه يتهدد الجميع.

.. وأنكر كبير أولاد جاد الله فِعل الطيب وما حدّث به، قال إنهم سعوا إلى المعروف بعد أنْ كسر الطيب ساعد فتاهم الصادق فأحسنوا السعي، وقبلوا بالذل فأحسنوا القبول. لكن ما يفعله الطيب ما هو إلا خنجر غرز فِي خاصرة الحوش، فابتلي به الجميع سادةً وعبيدًا. وهو لا يزال يشتط على السادة مِنْهم بالقول، ويلح عليهم باللوم. فما عاد فِي الأمر خِيَرَة، وإنما هو السوء والفتنة قد حملها إلى كل أهل الحوش. فإما أنْ يعود عنْ فِعْله وقوله، وإما أنْ نقف فِي وجهه جميعنا والعمدة وأهل بيته فِي مقدمة الصفوف.

سمع العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب كلام الجميع، الصغير مِنْهم والكبير، فِي صبر وجلد، لكنه لمْ يزد فِي قوله:

• خيرًا إنْ شاء الله.. والدايره الله يكون.. أدونا الفاتحة.. وعلى بركة الله ..

فرفع الجمع أيديهم إلى السماء يلهثون بالفاتحة والدعاء ويرجون بركة الله رب العالمين.

(12)

لمْ يستطع الصادق ود محمد ود جاد الله أنْ يحمل نفسه على ما تكره، فأمور الناس ليست طوعًا لما يتوقون ولا ترضخ لما يقدِّرون. التمس إلى مَنْ هم فِي مثل سنه ومِنْ دمه يؤامرهم فِي أمر الطيب ود العمدة وكيف يكون الثأر مِنْه. لمْ ينسَ فعلته ولا نسي ذكراها فِي قلبه ولمْ يستطع السلو عنْها. لقى مِنْهم مَنْ لقى وسمع ما سمع، واستخف به البعض وازوروا مِنْه، ولمْ يفهم مِنْ بعضهم ولمْ يحاول لأحاديثهم فهمًا. كان همه كله أنْ يجد بينهم مَنْ يُكِن للطيب ود العُمدة سوءًا وحقدًا، لكنه حار وجار عنْ القصد إلا مِنْ ابن عميه الجاك ود الأمين ود جاد الله ويوسف ود بابكر ود جاد الله وابن خاله حمد ود عبد الله ود الباقر.

.. بلغ أربعتهم دار الصادق حين ارتفع الضُحى مِنْ يومهم، فأنفقوا فِيها سائر النهار وشطرًا مِنْ الليل يشربون «المريسة» و«العرقي» و«العسلية» ويخوضون فِي سيرة الطيب ود العُمدة

ويرسمون خطة الإيقاع به والتخلص مِنْه، لكنهم لمْ يدروا أيحفلون بما يتآمرون عليه فِي مقامهم هذا أم يتغافلون عنْه.

قال الجاك يحدثهم وهو يتجشأ، ثم يدني عبَّار «المريسة» مِنْ الأرض بعد أنْ تجرعها بتلذذ فذهبت ببعض عقله:

• خلكم منو.. خلوهو لي.. بجيب لكم خبره.. فرت ضربة وأوديوهو الآخرة..

تناول يوسف كأس «العرقي».. وابتلعها جُرعةً واحدة وهو يغمض عينيه ويكز على أسنانه، ثم يجر نفسًا عميقًا ويطلقه عسى أنْ يخفف لسعات الشراب، وقال:

• .. إتْ جنيت يا عوقة.. ده إيده طرشة.. تقول إيد شيطان رجيم.. إن لَّمت فيك.. بتفرتكك حتة حتة يا الجخس.. كلامك ده كلام سكر ساكت.. باين عليك سكرته بدري الليلة.. قوم.. قوم إتلم فِي بيتكم.. عليَّ الطلاق ود العمدة إنْ حمر ليك ساي.. كان تبل سروالك.. ما شفتو شن سوا في ود عمك ..

ابتلع الصادق الإهانة ونظر إلى ساعده الأيمن وتحسسه بيده اليسرى ثم نظر إليهم وقال:

• بالصِح يا يوسف.. ده عمل شواطين ما عمل أوادم.. إبليس ذاته اتحير.. شفتوا بيعمل شنو في كبارنا وعبيدنا وخدمنا.. لاكين لازم نلحقو السمحين.. وإلا هو ما بخلي واحد فينا.. وكان اتفرد

بينا واحد واحد يا هو واطاتنا أصبحت.. يكملنا كلنا ويقعد..

.. وكان حمد ود عبد الله ود عبد الباقر يسمع لهم وقد أدرك أنَّهم سكروا أو كادوا، وحمد رجل ذكي القلب، نافذ البصيرة، ماكر العقل، حاد اللحظ. أدرك أنَّهم يريدون النيل مِنْ الطيب ود العُمدة كما يريد، لكنهم يخافونه كما يخافه، فالرجل فارس تصعب مواجهته وجهًا لوجه بل إنَّ فِي ذلك خطورة ما بعدها خطورة، قد تنتهي بقتلهم أو السُخرية مِنْهم فيوصمون بوشم الذل ما أقاموا مِنْ الزمان على ظهر البسيطة. قال لهم:

• اسمعوا مِنِّي يا أولاد جاد الله.. كلامكم ده لا بودي ولا بجيب.. كان دايرين تواجهوا يا دوب لقه فرصته وجاب خبركم.. الزي الطيب ده كان جيتو بي قدامه بيضحك فيك الناس.. وأنت يا الصادق ضقته إيده.. إن دايرين تكتلوهو عليكم بود السُرة بنت عوج الدرب..

أطلق الصادق ضحكة عالية حتى أصابه السُعال، وجعل يقول بصوتٍ تقاطعه القهقهات:

• .. العُر.. فرِح العنبلوك.. العوقة ود السُرة.. باين عليك سكرته.. المريسة طلعت ليك فوق راسك.. آي والله.. ياها المريسة.. قوية جدًّا وتسكر فريقك كله.. هيع.. هيع.. عافي مِنك يا تام زين.. خادم جد..

صمت برهة حتى هدأ ضحكه وأردف:

• فرح ده تُخة ساكت.. ما تحسبه لينا فارس.. ده شحم على لحم.. عليك الله.. مما الله خلقك شفت ليك فارس بخاف البطان؟.. قلب كبير ساكت.. إن نفخ فِيهو الطيب ساكت بجيب خبره ويقعد يظرط.. ده ما عنده عِرفة غير ركوب المكاديات.. داير يبقى عمدة الحوش ده بضكرو بس.. والله ما يبقى عمدة وأنا عايش كان تبقاله دواء..

هم أنْ يكمل لكن نظرات حمد أسكتته، وحين صمتوا جميعًا قال لهم حمد:

• وده يا هو الإحنا دايرنو يا فارس أولاد جاد الله.. جبان رعديد وكل العايزه في الدنيا دي إنو يبقى عمده.. مالو.. نبقيهو عمدة.. وكل المفروض نعملوا نشجعوا.. ونفهموا إنو العمدة بعد أبوهو العمدة يموت.. ونكرهوا فِي الطيب العايز يقلع منه العمودية لي رقبتو.. عديل عايز يقلعه مِنْ بيت السُرة بنت عوج الدرب وبيت ولد العمدة إبراهيم البكر.. شان تبقى فِي بيت فاطنة بنت حمد النيل.. ليهو ولي خويّه عباس.. وده عيب كبير عليه وسُبة تلحقه وتلحق بيت خيلانو أولاد عوج الدرب..

سمع الجميع ما قاله، فلمْ يدروا أفهموا مقصده أم أنَّ الخمر قد تلاعبت بعقولهم، وهو ينظر إليهم ويبتسم ابتسامة ماكرة، وأردف:

• مقابلة الطيب ود العُمدة راس بي راس بتطير فوقها رقابنا بإيده الطرشة وكمان بجيب معاه أولاد الأرباب كلهم.. وكلنا بنعرف أولاد الأرباب فرسان جد.. وأخوال الطيب.. أولاد حمد النيل.. خيالة بسدوا عين الشمس.. عشان كده وقفتنا في وشه دي كلام سكر وطيش سااااكت.. بتنتهي بموتنا كلنا أو أقلو بالذلة لأولاد جاد الله.. شان كده.. اضربوا الفارس بالخواف .. الدم يبقى فِي بيت العُمدة وأولاد الأرباب.. وإحنا ما عندنا شغلة..

تهكم يوسف مِنْ قوله وسأل ساخرًا:

• .. لاكين! الطيب كان لطش التُخة ده ولحقو السمحين.. حنستفيد شنو..

أجابه رادًا سُخريته:

• بطير الدم جوه بيت العُمدة.. ونسابته.. أولاد عوج الدرب وأولاد حمد النيل.. أي واحد فيهم يطالب بالدم.. ويا تأكل السُرة الطيب بأسنانها.. ولا تقطع فاطنة فرح بضفوره.. وفِي الحالتين أنحنا فراجة وكسبانين..

نهض الصادق وقفز عاليًا وأطلق صيحته تلك وهو يبشر فوق رأس ابن خاله حمد قائلًا:

• والله يا ود خالي أنت إبليس بشحمه ولحمه.. أنت ممسوخ وراسك ده ما براهو.. إلا كلامك سمح بالحيل.. نخت الكبير قصاد

الصغير.. ونقعد فراجة.. الله يبارك فيك يا ود الخال.. فشيتني تب.. أهه.. فِي شان الكلام الزين ده.. يلا يا أولاد جاد الله.. عازمكم كلكم فِي الإنداية على حسابي اليوم.. سمعته إنو الخادم الرضية بنت الإزيرق.. جابت ليها فريخاتن مِنْ «خشم المرفعين».. طلاق تلاتة من نسواني كلهن إلا كان أحك لي عرانين الليلة..

.. وخرجوا يرجون عبث الدنيا عند إنداية الرضية بنت الإزيرق.

(13)

دعا العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب ابنه الطيب ليلتقيه فِي البيت الكبير، بيت الهدية بنت الشريف الجيلاني ود الجنيد، وكانت نفسه تنازعه إلى تأجيل هذا اللقاء ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فيصدها ويردها ما يقظ فِي نهاره ونام فِي ليله، مستمسكًا بالوعد الذي قطعه إلى رعيته مِنْ أهل الحوش مودةً وألفةً وحقًّا. حتى إذا كان هذا اليوم دعاه إلى بيت الأم الكبرى وقد أخذ نفسه بما تكره، والوقت يمضي ببطء ثم لا يبلغ ساعة الميعاد إلا بعد جهد. لمْ يكن العُمدة مِنْ مَنْ يرضون بالقليل أو يقنعون باليسير، ولو استطاع لاحتوى ثورة ابنه بحسب ما وجد آباءه عليه، لكنه كان يعلم أنه كالمحتضر الذي يتراءى له الموت فيفظعه ويفزعه، ثم تتراءى له الحياة فترد إليه شيئًا مِنْ روح وراحة. كانت دعوة آملة لابنه الأحب إلى قلبه، عسى أنْ يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

.. دلف الطيب ود العُمدة على أهله فِي بيت الأم الكبرى الهدية بنت الشريف وقد تقدم العصر إلى مشارف الغروب، فألفاها تنتظره حفية به

مشوقة إليه، وتعاتبه بحنان الأم الكبرى عنْ تأخره عنْها، فيعتذر لها وهو يقبل كفيها ويسألها خير الدعاء. تبسمت فِي وجهه المنير، وأوصته أنْ يترفق بأبيه، ثم دعت له بخير الدنيا ونعيم الآخرة. سمعا أذان المغرب فرجته أنْ يصلي بها، فأديا حقهما مِنْ الطاعة.

.. دخل الطيب على أبيه فِي بيت الرجال بعد أنْ عاد مِنْ مسجد الحوش، فحياه بأفضل ما يحيي الابن أباه وقبل يديه، لكنه أحس أنَّ العُمدة يأخذه بالحزم والصرامة فِي رده التحية، فأدرك أنه يحمله على الجادة قسرًا. وشق عليه أنْ يبتدره أبوه بتلك الخشونة لكنه هون على نفسه علَّ الله يحدث فِي ساعة اللقاء هذه أمرًا. اقتعد على «برشٍ» مفروشٍ على الأرض بجانب «عنقريب» العُمدة الكبير، وجعل ينتظر أباه. لمْ يتردد العمدة فِي الدخول مباشرة فِي أسباب دعوته، فقال:

• ناس الحوش شاكين منك.. الكبار والصغار.. بدون فرز.. بقيت ليهم زي الشوكة فِي حلقهم.. لا بتنبلع ولا بتفوت.. ما كده وبس.. لاكين خليتم يسعروا على أولاد الأرباب زي الكلاب.. دايرين يعضوا حتى أبوك العُمدة .. وأنت ولا هامك.. لا الكبير عاجبك ولا الصغير عاجبك..

صمت العُمدة عنْ الكلام برهة، ولمْ يرغب الطيب فِي الرد على أبيه دون استئذان، فانتظر برهة أخرى، لكن العُمدة أكمل قائلًا:

• .. داير شنو مِنْ عبيد الناس وخدمن.. ومانعهم لي مِنْ خدمهم..

يتسروا بخدمهم زي ما عايزين ولا يضبحوحهن زي الضأن.. واقف ليهم عارض مالك.. يعني شان قام ليك شنب وريحة أباطك مرقت بقيت تأمر الناس وتمنعهم من حقهم العملوا من زمن حفروا البحر.. ما كفاية العملتو في الصادق ود محمد ود جاد الله.. وسويتو مضحكة قدام الناس عشان فرخة بنت زرقة.. ما كفاية إنك وديت الخادم لي بيت أمك عشان أمك وخوياتك يخدمنها.. وخليت الحرة تخدم الخادم.. الله يلعن اليوم الخليتك تمشي لأولاد الريف تتعلم وسمعته كلام أمك.. خربوا ليك رأسك القوي ده.. الله يلعن كلام الحريم.. دين شنو الأنتَ مشيت درسته هناك ده.. الدين الخلاك تبقى ألعن من إبليس.. تهبش في العلماء والشيوخ زي ما داير.. وكمان عامل نفسك واحد منهم.. جيت لأمك..

لمْ يرد على أبيه راجيًا الإذن بذلك، ولمْ يزد فِي ابتسامته الوادعة التي يعلم العمدة أنها عنوان الرضا، فاستمر يقول:

• اسمع يا ود فاطنة.. عارفك طالع لي أخوالك.. وعنيد حتى على نفسك.. بس أنت ولدي وعشمي فيكَ كبير.. ما تقرب من عبيد الناس ولا خدمهم.. وما دايرك تتكلم في ملك اليمين من يوم الليلة.. ما دخلك بيهم.. عايز خدم تتسرى بيهن اشترِ زي ما عايز بدون حساب.. ابعد من أرزاق الناس.. وما تبقى زي السوس تنخر بينهم وبين الجنقو والرقيق.. العبيد ديل مال أسيادهم.. فهمت ولا عندك كلام تاني..

أدرك الطيب أنْ أباه قد ضجر بصمته وأنّه يأذن له بالحديث والدفاع

عنْ نفسه ليسمع رأيه فِي ما سمعه مِنْه فبسمل وحوقل وهلل وكبر وحمد الله كثيرًا وأثنى عليه، ثم أثنى على سيد البرية المصطفي ـ صل الله عليه وسلم ـ وقال:

• أنت يابا العُمدة سمعت مِنْ الناس وما سمعت مني.. خلينا نبدأ يابا العُمدة من إنو العبد أو الخادم هو مال سيده.. وده معناه يابا العُمدة إنو الإنسان الكرمو رب العباد.. بقى بضاعة في يد خيو الإنسان القادر والقوي.. بقى متاع زي العنقريب والبنبر وبرش الصلاة.. وده ما كلامي لكن كلام قاله علماء وشيوخ كبار كتيرين مِنْ المالكية وغيرهم وآخرهم ابن رشد.. وشان العبد والخادم بقوا مال.. ممكن سيده يمنعه الحج.. و الحج ده يابا العُمدة هو الركن الخامس فِي الدين.. والعلماء قالوا «لا حج لعبد دون إذن سيده».. مع أنَّه الله سبحانه وتعالى فِي سورة آل عمران قال: «وَللهَّ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَّ غَنِيٌّ عَنِ اَلْعَالَمِينَ».. صدق الله العظيم. الله عز وجل قال: «على الناس».. ما قال على السادة ولا على الحُر.. وبعد الكلام الواضح ده في شوية من علمائنا وشيوخنا أكرمهم الله ومِنْ بينم الإمام القرطبي اللي قال إنَّ المالكية قالوا: «لا تجب عليه عبادة الأموال مِنْ زكاة وكفارات، ولا مِنْ عبادات الأبدان ما يقطعه عنْ خدمة سيده كالحج والجهاد وغير ذلك».. قاصدين العبد.. وده معناه يابا العُمدة إنْ المنع سببه السيد وما سببه الاستطاعة والقدرة اللي قاله رب العباد.. يعني حتى لو العبد عنده

مال ملكه جابو بمعرفة سيده.. ما ممكن يسافر للحج شان سيده يمكن يتضرر بسفره للحج.. والحالة الوحيدة اللي تخليهو يسافر إنو سيده يديه الإذن بالسفر شان يحج لربنا ويسوي الفرض.. يعني نحن البشر وعبيد الرحمن ببساطة كده فضلنا مصلحة العباد على مصلحة سيد العباد.. ومش كده وبس يابا.. ياريت يابا العمدة لو حرَّموا على العبد الحج شان العبودية.. كان أدوه رخصة بسبب العبودية شان يسقط عليه الحج كفريضة لله رب العالمين ومنزل الدين لا للعباد..

صمت لحظات حتى يمكن العُمدة مِنْ استيعاب ما يقول، ثم أردف:

• .. وبنفس الكلام ده يابا العُمدة .. تعالَ نسأل أنفسنا.. شنو السبب من ناحية الدين أو الأخلاق.. وفِي ياتو ملة.. البخلينا نتسري بنسوان الغير.. نسوان ما بنعرفهم.. لكننا بنعرف إنهن سرقوهن سرقة مِنْ أهلهن وأسرهن.. وما فيهن واحدة أسروها فِي حرب اتغصب المسلمون عليها بالقهر.. يعني بدور أقول ما فيهن سبايا قلعناهن فِي حرب دافعنا فيها عنْ الإسلام والمسلمين.. عشان كده لازم يابا العُمدة.. لازم نسأل نفسنا.. ليه نحن بنعمل كده؟.. ليه نحنا شايفين نفسنا أحسن منهم؟ .. نحنا منو شان نستعبد الناس الولدوهم أمهاتهم أحرارًا؟.. سؤال تاني يا أبوي العُمدة لازم نسألوا لي رقبتنا.. ليه ما فيش عبيد مِنْ أولاد عرب؟.. وليه لما يبقى فيه بنرجعهم لأهلهم وبنمسك أولاد الزرقة؟.. وليه بنسمي العبد الأزرق عبدًا وبنسمي العبد الأحمر

مملوكًا ولا مولى؟.. بنفرق بينهم في العبودية درجات.. وليه ما بنخلي العبد يعرس حتى الخادم؟ معقول نابا عرسه شان ما بجيب سعره.. وبيقى فوق ضهر سيده..

صمت وقد أنهى كل ما عنده مِنْ حديث، والعُمدة يسمعه عجبًا ودهشًا دون رد. وحين استوى مِنْ دهشته سأله:

• ده آخر كلامك يا ولد؟..

أومأ برأسه، لكنه لمْ ينبس ببنت شفة، فقال العمدة:

• .. يبقى خلاص.. كان بقينا من ناس الدنيا يوم التلات الجاي إن شاء الله.. ألقاك فِي سوق الرقيق بعد صلاة الضهر.. ما تشتري عبد ولا خادم.. والخير يقدمه الله..

أدرك الطيب أنَّ العُمدة قد أنهي الحديث والمقابلة على السواء، وأنه قد اتخذ قرارًا يريد أنْ يصدره أمام أهلِ الحوش جميعهم فِي سوق الثلاثاء القادم، وأنَّ القرار يتعلق بالرقيق لأنَّه اختار سوق الرقيق دون غيره ولأنَّه منعه مِنْ البيع والشراء لحين حضوره. نهض مِنْ مقعده واستأذن والده وقبل يديه، ثم تراجع خطواتٍ بظهره، ثم اعتدل ليخرج، فسمعه يهمهم:

• الله يلعن أولاد الريف فِي قبله الأربعة.. اللهم لا نسألك رد القضاء لكن نسألك اللطف فِيه.. دي مصيبة شنو الوقعنا فيها دي! .. الحمد لله.. سترك يا رب.. أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم..

(14)

استقرت تاج الملوك فِي بيت فاطنة بنت حمد النيل حتى أصبحت مِنْ أهلها، لمْ تلق فِيها إلا خيرًا ولمْ تذق فِيها إلا هناءً، واتصلت المودة بينها وبين أهلْ البيت لا تلقى مِنْهم كيدًا، لكنها تلقى حبًّا وكرامةً لأنَّها خاصة الطيب المحبوب. وجعلت الأيام تمضي وتجيء، وشيء ما يكبر وينمو بينها وبينه، شيءٌ لا يحتويه اللون، ولا تكبحه العبودية، ولا تتصيده المحنة، ولا يدركه الموت. فتعبث بها الأحلام إذا خلت إلى نفسها فتظهر الرضا ولا تكتمه. وكانت تحرص كل الحرص على أنْ تكون الدار المخصصة للطيب شديدة النظافة، جميلة التنسيق، نفيسة الآنية والأداة. وكان الطيب إذا رأى الدار ولمْ ينكر مِنْ أمرها شيئًا امتلأت نفسه امتنانًا وشكرًا، واحتواها قلبه حبًّا وصدقًا، وانطلق لسانه لاهثًا بالشكر والثناء.

.. وكانت فاطمة بنت حمد النيل تقيم على قدمها، وتخاف أنْ تطمئن إلى نهارها وليلها، فهي تحب هذه الفتاة الرائعة التي لا تشبه

العبيد والإماء، وهي تحب ابنها البكر حبًّا لا تستطيع أنْ تقدره موازين الأرض والبشر، فالطيب زينة فرسان حوش ود الأرباب. وهي تحس الحب يتجاذبها، وينمو سريعًا ويكبر ويتفرع. وابنها ليس كبقية أبناء الحوش، وعيون فتيات الحوش وغيرهن فِي الجوار مِمَنْ أحطن به علمًا تراقبنه إنْ فِي الصحو أو فِي المنام وينتظرن مِنْه إيماءة وقبول، والطيب لا ينظر إليهن ولا يحفل بهن وقلبه معلق بهذه الجوهرة السوداء المعتلة بداء العُبودية، وهو لا يعرف التسري، إذن لهان كل شيء. هي تعرفه جيدًا فإما على سنة الله ورسوله وإما لا. وكانت تعلم أنَّه مهما اشتدت الرغبة بينهما قد تقصر الآمال عنْ تحقيقها، وأنَّ حوادث الأيام ونوائب الدهر ستصنع بهما ما تصنع بالناس جميعًا. حينها سيضيقان بالحياة أو تضيق الحياة بهما وهما يواجهان العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب الذي لنْ يقبل أنْ يتزوج ابنه أمةً اشتراها بماله وإنْ أعتقها.

.. كانت فاطنة بنت حمد النيل تنظر إلى تاج الملوك فترى وجهها الطلق، وثغرها الباسم، وشبابها الغض، ولونها الرائق، وقلبها الرحيم، فلا تملك إلا أنْ تقول: «تبارك الله أحسن الخالقين». كانت الخِلاسية تمنح البيت كُله خفض الحياة ولينها، وتملأه حياة صاخبة الضجيج والعجيج، وكثيرة الحركة والنشاط. لكن الأم لمْ تكن راضية كل الرضا وهاجس الصدام المحتمل بين ابنها البكر وأبيه

العُمدة يسيطر عليها سيطرة تامة. ويدفعها إلى الاضطراب والقلق بلا قيود. وأي بأسٍ فِي ذلك فهذا إحساس الأم بالخطر القادم. سمعت صوتًا رائعًا يقول:

• ما لك يمه؟.. شايلة هم الدنيا فوق راسك.. الدنيا ما بتستاهل تشيلي همها..

رفعت عينيها باتجاه صاحبة الصوت الرائق الرائع، وتبسمت وقالت تجيبها:

• .. ما في شيء يا بِنَيتي.. ما في شيتن يقولو هو عليه.. تعالي صنقري جنبي هنا..

اقتعدت تاج الملوك الأرض بجوارها، وقالت:

• لا.. لا يمه.. في شيتن شاغل بالك.. مرقيهو مِن صدرك.. ما يحرق حشاك..

لمْ تجبها ونظرت بعيدًا إلى الأفق، لكن تاج الملوك قالت سائلة كأنّها تحتج على هذا التجاهل:

• .. أنتِ خايفة يمه!.. خايفة سيدي الطيب يقول بدورني للعرس.. مُش يا هو ده الشاغل بالك ومشيلك الهم..

التفتت إليها دهشة عجبة، لكنها تماسكت تماسك السادة وقالت تريد تغيير دفة الحديث:

• صُمي خشمك يا فتاة.. بقيتِ قاهرة.. تتكلمي في العرس وما

العرس في وشي.. خجل ما بتخجلي يا قهورة.. اوعه أسمعك تاني تقولي كلام زي ده.. بقطع لسانك.. يالا غوري من قدام وشي..

صمتت قليلًا ثم أردفت مستفسرة تصر على تغيير سير الحديث:

• .. وأنت يا الممسوخة مِنْ وين ليك بنضمي العرب؟.. اتعلمتيه وين يا الشقية؟..

رسمت تاج الملوك ابتسامةً باهتةً على شفتيها، وقد علمت أنَّه لا بُد لها مِنْ تبديل الحديث. فجعلت تكشف خبيئتها والأم تستمع إلى حديثها بشغف.

(15)

كان الأمر يصغر ويكبر ويتسع ويضيق بمقدار الأثر الذي أحدثه فِي نفسٍ كلٍ مِنْهم. كان ابتلاءً لا يدرون أنزل عليهم مِنْ علياءِ السماءِ أم صعد إليهم مِنْ باطن الأرض. فاجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد للتغلب والسيطرة عليه، لكن أخلاطًا مِنْ الحيرة والحِنق والغضب والحزن ما برحت قلوبهم قط.

.. خرج العبيد والإماء مِنْ سوق الثلاثاء الذي دعا فِيه العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب ابنه الطيب بأرجلٍ متثاقلة خزيانة.

.. صاح العُمدة فِي الناس: «كلامي ده لأهل الحوش كلهم.. الحاضر يكلم الغايب.. أنا منعت الطيب ولدي مِنْ شرا العبيد والخدم مِنْ سوق الرقيق فِي حوش الأرباب، إلا كان داير يشتري.. يمشي يشتري من بره الحوش.. وحرمت عليكم تبيعوا ليه أو تشتروا منه رقيق، ومنعته مِنْ الكلام فِي الرقيق ولا الكلام في أئمة المسلمين وأولياء الله الصالحين، ومنعته مِنْ إمامة الجامع، ولو أنا ما حضرت معاكم الصلاة إمامكم

ولدي فرح، وكان بقى ما في يصلي بيكم كبير أولاد وراق وبعده كبير أولاد جاد الله، وما في زول يعتق عبد ولا خادم إلا برضاه تب ولوجه الله تعالى، وما في حاجة اسمه مكاتبة عبد ولا خادم مِن اليوم ده وغادي.. وكمان حبسته الطيب فِي بيت أمه ما يمرق منه شبر إلا بإذني لغاية ما يتم شهر شان يتأدب من البعمل فوقو ده، وصل الله على سيدنا محمد أكرم الخلق أجمعين».

.. استقبل الطيب أمر أبيه العُمدة بابتسامة واسعة هزمت الظلم الذي وقع عليه وعلى الرقيق والإماء ودهماء الناس على السواء. وتقدم إلى والده وعمدة الحوش وقبل يديه وأظهر ما يجب عليه مِنْ الرضا والقبول، وسأله:

• قولك القلتو ده شان أنت أبوي إبراهيم ود أحمد الأرباب؟.. ولا شان أنت عُمدة حوش ود الأرباب؟

بُهت العُمدة مِنْ سؤال ما توقعه مِنْ ابنه الطيب الذي لمْ يبذل سوى الطاعة، لكنه تماسك وسأله مستفسرًا:

• .. شنو يعني الفرق. ما ياني الاتنين

أجابه فِي هدوء بعد أنْ حمد الله وأثنى عليه ثم أثنى على نبيه:

• كان درت الأولى يابا.. كلامك يمشي فوق راسي في شيتن منها إلا ما بوافقك عليها كلها.. يمشي على الحبس شان أنت أبوي.. لكن المكاتبة دي كلام الله أنت ما عندك فيهو حق تمنعه.. ويمشي على منعك

الشراء والبيع جوه الحوش.. إلا الكلام في الدين ما حقك ده حق الله.. كان درتو وكان أبيتو.. ويمشي على صلاتك بينا في الجامع وكمان صلاة كبير أولاد وراق وكبير أولاد جاد الله.. إلا فرح إن كسر رقبته ما بخليه يصلي بالناس جماعة.. فرح أنت ما خابرو.. ما بفوت عبار المريسة وبرمة العسلية.. ومن سدر لي سدر من تصبح لامن تمسي.. كيف يصلي بالناس.. والله سبحانه وتعالى قال فِي سورة لقمان: «وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ * ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».. صدق الله العظيم، وأنت عارف كلام الله ده معناه شنو.

صمت قليلًا والجمع قد جحظت عيونهم وهم يسمعون مِنْه ما لمْ يقدروه، ثم أردف:

• .. وكان درت التانية في شان أنت العمدة فما عندك علي طاعة.. ما في طاعة لسلطان جائر.. وده ما كلام ولدك الطيب ده كلام الرسول ـ صل الله عليه وسلم ـ فعنْ عبادة ابن الصامت ـ رضي الله عنْه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: «سيليكم أمراء مِنْ بعدي يعرفونكم ما تنكرون، وينكرون عليكم ما تعرفون، فمَنْ أدرك ذلك مِنْكم فلا طاعة لَمَنْ عصى الله». وعنْ عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: «سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عنْ مواقيتها ويحدثون البدع. قلت: فكيف أصنع؟

قال: تسألني يابن أم عبد كيف تصنع؟ لا طاعة لَمَنْ عصى الله».. وعنْ أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ـ صل الله عليه وسلم: «ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس، ويؤخرون الصلاة عنْ مواقيتها، فمِنْ أدرك ذلك مِنْهم فلا يكونن عريفًا، ولا شرطيًا، ولا جابيًا، ولا خازنًا».. وعنْ أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنْه ـ قال: «قام فينا رسول الله ـ صل الله عليه وسلم ـ خطيبًا فكان مِنْ خطبته أنْ قال: «ألا إني أوشك أنْ أدعى فأجيب. فيليكم عمال مِنْ بعدي يقولون ما يعلمون ويعملون بما يعرفون، وطاعة أولئك طاعة، فتلبثون كذلك دهرًا ثم يليكم عمال مِنْ بعدهم يقولون ما لا يعلمون ويعملون ما لا يعرفون، فمَنْ ناصحهم ووازرهم وشد على أعضادهم فأولئك قد هلكوا وأهلكوا، خالطوهم بأجسادكم وزايلوهم بأعمالكم، واشهدوا على المحسن بأنَّه محسن وعلى المسيء بأنَّه مسيء».. وأنت يا عمدة درته تنتصر لنفسك شان يقولوا العمدة وقف الطيب عند حده فظلمتنى وحرمتني من حق الله.. فكان درته تبقى العمدة ما عندي ليك طاعة ولا غيري عندك عليهو طاعة.. وصل الله على أفضل الخلق أجمعين نبينا ومولانا محمدًا وعلى آله وصحبه أجمعين..

لمْ يجد العُمدة ما يقول، نظر فِي وجه ابنه لا يدري أهو فخور به فيقوم إليه ويحتضنه، أمْ هو كسيف مِنْ قوله لذا يجب ردعه وكسر أنفه، لكنها النفس الأمارة بالسوء، فقال يأمر حُراسه وعبيده:

• يا فرج.. يا مرسال.. يا باب الله.. أرموه فِي سجن الحوش.. ما يطلع إلا بعد شهر ما ينقص يوم.. وما تدوهو أكل إلا مرة واحدة ما تزيدوها.. وامنعوا أي واحد من زياته حتى أمه وأخيه وأخواته.. وكان عرفته واحد زاره بدخله السجن وبحبسه شهرين..

ارتج السوق وارتج معه الحوش كُله، همهم الناس بأصواتٍ متباينة، وصاح الصادق ود محمد ود جاد الله مكبرًا ومهللًا، وتمتم عبد الرحمن ود حسن ود وراق بنهيقٍ خفيض: «ظهر الحق.. أسأل الله أنو تقرصك عقارب السجن وما يطلعوك منو إلا ميت».. وتباينت أحاسيس أولاد وراق واهتاجت مشاعر أولاد جاد الله، وانتحب الرقيق والإماء بصوتٍ كالأنين. فلما ساق الجند وعبيد العُمدة الطيب إلى سجن الحوش، أمر العمدة الناس بإكمال السوق كما يجب، ثم أشار إلى أصفيائه مِنْ أولاد الأرباب وأولاد وراق وأولاد جاد الله أنْ يتبعوه إلى قطية الضيافة فإنَّ له معهم أمرًا يريدهم فَيْه.

(16)

استقبل العبيد والإماء سجن الطيب ود العمدة إبراهيم بعينٍ شديدة الكرم بالدمع، وقلبٍ ضنينٍ بالجَلَد، ونفسٍ تأبى الثبات للمحنة، فأحداث الدنيا حين تلم بالناس تفزعهم وتروعهم. كان الشيخ الطيب ود العُمدة فارسهم الشجاع، وداعيتهم الصادق، ومصلحهم الأمين. لذلك لمْ يروا فِي سجنه مصيبة مِنْ المصائب التي تمر عليهم فِي غدوهم ورواحهم فقط، بلْ رأوا فِيها خطبًا مِنْ خطوب الدين والدنيا على السواء. لا يكاد الواحد مِنْهم يتحدث إلي الطيب حتى تهرول إليه القلوب وتخضع له النفوس، ولا يعرض عنْه المصغون إلا وقد عقلوا قوله فأحبوه. وقد هالهم أنْ يجعل العُمدة خلافته فِيهم إلى فرحٍ لا إلى الطيب. وهم يعرفون فرح ود العُمدة إبراهيم ويعلمون ميله لاستحقار العبيد والجواري واستذلال نفوسهم وأجسادهم.

.. التقى مرسال عبد العمدة الذي حرره الطيب برفيقه السابق فِي

العبودية باب الله الأعرج الذي لا يزال عبدًا للعُمدة فِي الطريق بين أطراف الحوش الغربية وإنداية الرضية بنت الإزيرق. كان كلاهما يقصد الإنداية ليرتوي مِنْ مريستها وعسليتها وعرقها، وليدس فرجه فِي فرج ما عله يتحسس بعضًا مِنْ إنسانيته ويستأنس بما تبقى مِنْ رجولته. كان كلاهما مثخن القلب ضيق الصدر. كادا يغضبان مِنْ الدنيا وما فِيها، ولكن كيف للعبيد أنْ يغضبوا مِنْ الدنيا فالغضب خاصة الأسياد.

قال مرسال محييًا:

• سلام يا باب الله.. كيفن عامل فِي البيت الكبير؟ ..

أجابه وهو يضحك ضحكًا سخيفًا لمْ يجد له مرسال مسوغًا:

• .. أهلًا مُرسال.. أمي الهدية تبكي بالليل والنهار علي سجن الطيب.. وحمت العُمدة مِنْ حق الله فِيها كان ما طلعه مِنْ السجن.. وكان ما عرجي كان هدمت السجن وطلعته عشان أمي الهدية.. أكان أموت..

أخفى مرسال ابتسامة كادت أنْ تستولي على شفتيه رغمًا عنْه، لكنه ارتاح إلى حديث صاحبه غير أنه لمْ يصدق نيته إخراج الطيب مِنْ السجن وهو يعلم أَنَّه جبان رعديد لا يوثق به، فسوط واحد مِنْ كرباج عنج العُمده سيجعله يبلل ملابسه كُلها. لكن ما همه فِي كلامه حال أم الحوش الهدية بنت الشريف فإنْ كان للطيب منقذ واحد بعد

الله سبحانه وتعالى فهو الهدية. قال يستفزه للحديث:

• .. وشن قول أبوي العمدة؟

أجابه فِي ثقة مدعاة:

• قاعدلو فوق راي.. لكن ما بقدر على أمي الهدية بنت الشريف.. كمان بقيت عوينو واقفاتن معاها.. وأمي فاطنة بنت حمد النيل.. وأمي نفيسة بنت مصطفى الأرباب.. مابيات سجن الفارس.. إلا أمي السُرة بنت عوج الدرب وأولادها فرحانين بسجنه.. لكن أبوي العمدة ما بمشي عليهم.. وكان شفته فرح لابس عباية العمودية مِنْ هسة.. سوته ليهو أمه.. كمان قاعد يحفظ ليهو كان سورة كان سورتين مِنْ كلام الله.. بيدور يقولِن للناس فِي الصلاة.. عاد ما بقى الإمام الليتنا.. مو ود العُمدة الكبير ..

قاطعه قائلًا:

• أبوي العُمدة ما بقدر على زعل أمنا الهدية.. وهي لما تزعل ما بقدر يطلع مِنْ البيت إلا تهدأ.. وترمي زعلها فِي قفاها.. وده البجنن السُرة ويخليها تعمل عمل الضُر.. ما بتحمل ريدة أبوي العمدة لي أمنا بنت الشريف..

ضحك باب الله الأعرج وقال ساخرًا:

• .. غايتو يا مرسال يا أخـوي.. مكجن أمنا السُرة كجين العدو.. وأصلك ما بتقول ليها ولا بتناديها بي أمنا.. أم فرح دي شن

سوتلك؟.. أنا غايتو ساكن معاها جوه البيت.. ومن عبيده.. إلا ريدتي لأمنا الهدية كاتمه فوق قلبي.. خايف من أمي السُرة.. أنت عارفه براك.. كان لمت فيني إلا تخلي ريحتي طير طير..

لمْ يجبه بلْ استمر فِي تقدمه نحو إنداية الرضية بنت الإزيرق.

دخلا معًا مِنْ البوابة الكبيرة والتقيا بعض العبيد وقد ثقلت أقدامهم فجعلوا يترنحون ذات اليمين وذات الشمال. لمحتهما الرضية بنت الإزيرق فتوجهت ناحيتهما مرحبة، ثم همست فِي أذن مرسال قائلة:

• يعني ما لقيت تيجي إلا مع باب الله الأعرج؟.. عايزاك فِي شيتن مهم.. وديه لي قطية مريومة.. وقول ليها إنو ضيف الرضية وبعدين تعالَ لي فِي البيت الكبير.. بدورك في شيتن مهم..

ابتسمت الرضية مرة أخرى لباب الله الأعرج، وقالت:

• الليلة إنتو ضيوفي.. امشوا لي مريومة.. وهي حتريحكم زي ما إنتو عايزين..

لمْ يمضِ وقت طويل حتى بلغ السُكر بباب الله الأعرج ما بلغ، فنام بجانب مريومة دون أنْ يفرغ شيئًا مِنْ رجولته.

دلف مرسال إلى بيت الرضية الكبير، فاتسعت محاجره فوق ما يطيق، لكنها لمْ تتركه يتسكع فِي أزقة العجب ودهاليز الدهشة، وقالت آمرة:

• تمشي هسع للعُمدة.. وقول ليه الرضية بتدور تشوفك فِي بيت المرفعين.. لما الشمس تقرن القمر..

سقط فكه الأسفل دون أنْ يدري وقال مستفسرًا:

• والله ما فهمته حاجة!.. أقول ليهو وين ؟.. ومتين؟

قالت بحزم:

• قولْ ليه الكلام الأنا قلته ليك بالحرف الواحد.. وهوح يعرف وين ومتين.. فهمته ولا أعيدو ليك..

تمتم بكلامٍ غير مفهوم ومضى لقضاء مهمته.

(17)

أخذ العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب نفسه بالعُنف واشترى قلقه واضطرابه برباطة جأشٍ عظيم فرضه على نفسه حين أخبره مرسال بطلب الرضية بنت الإزيرق مقابلته. وقد عبث القلق والاضطراب بالعُمدة أشد العبث، فأثارا فِي نفسه شيئًا كاد أنْ يتحول عُنفًا، لكنه عاد فاستحى وأمسك بأهداب وقاره وأذن لعبده السابق بالذهاب. لكن القلق والاضطراب بقيا لمْ يمحهما الوقار، ونسجا على قلبه حجابًا أخذ يزداد صفاقة وكثافة مع مرور الدقائق والثواني، وأخذا يكثران عليه فِي العنت ويغالبانه فِي العِلة. وإذا الساعة تتم دورتها، وهو يبحث عنْ سببٍ واحد يدعوها لطلبه فلا يجد شيئًا. ويضيق بذلك أشد الضيق، ولكنه لا يلبث أنْ ينصرف عنْ ضيقه إلى حياة السادة والسلطة. سطوة أول النهار، ولغو آخره، وحياة تحت الأرض إذا كان الليل، ثم العودة آخر الليل إلى دار واحدة مِنْ نسائه.

.. وحين سمع صوت المؤذن ينادي لصلاة العصر، أسرع إلى

وضوئه وصلاته، ثم استأذن الهدية بنت الشريف الخروج لأمرٍ مهم يستدعي غيابه يومًا أو يومين، فأذنت له محذرة أنه إنْ جاء بعدها وهو على ما يرى فِي أمر الطيب ففراق بإحسان إلى غير رجعة. رجَّت كلماتها القاسيات وقاره رجًّا، ووهنت قوته أمام قوتها وهنًا، لكنه أخذ طريقه إلى الخارج دون أنْ ينبس ببنت شفة.

.. والعُمدة لا يستأذن مِنْ نسائه غير الهدية، هي وحدها التي يُمَكِنُها العُمدة مِنْ نفسه وأمره، وهو يعلم حبها للطيب ابنها الذي لمْ يلده بطنها. وها هي تثخن كاهله بأمرٍ شديد الصعوبة فإما حرية الطيب وإما فراق بإحسان، وهو يعلم أنَّها لا تقول شيئًا لا تستطيع تنفيذه.

.. خرج العُمدة مِنْ داره الكبيرة على ظهر حِصانه الأدهم يتبعه بعض عبيده كما يتبعه مرسال على ظهر حماره المكادي الضعيف، وحين تجاوز حدود الحوش الغربية أمر العبيد أنْ يبقوا مكانهم وأنْ يشدوا خيامهم هناك وأنْ يتبعه مرسال فقط. اتجها سويًا باتجاه الجنوب الغربي.. غاصا فِي بحر الصحراء حتى غابا عنْ الأنظار، وبعد مسيرة ساعة والشمس على وشك المغيب فِي الأفق وقد فترت أشعتها ووهنت، أشار العُمدة لمرسال بالعودة ثم الحضور غدًا لملاقاته فِي ذات الزمان والمكان. عاد مرسال مِنْ حيث أتى، واتجه العُمدة باتجاه الأفق وقد أطلق العنان لحِصانه. التفت مرسال خلفه فلمْ يجد أثرًا للعُمدة أو الحِصان، فبسمل

وكبر وحوقل، ولكز حماره الضعيف الواهن يأمره بالإسراع والهروب مِنْ وادي الشياطين.

انطلق حصان العُمدة كالريح باتجاه مبتغاه، وبعد مسيرة نصف الساعة أرخى العمدة سرعة حصانه، وبدت قرية صغيرة تتشكل عند سفح الجبل. اتجه العُمدة إلى قطية كبيرة تشبه القلعة فِي بنائها، فأسرع ناحيته بعض العبيد وهم يصيحون مرحبين: «سلام أبونا العُمدة».. وأخذ مرجان ود دمباوي أقوى العبيد وقائدهم بلجام الحِصان، فوقف مكانه وترجل العمدة عنْ صهوته، واتجه إلى داخل القطية. استقبلته الرضية بنت الإزيرق بابتسامة رائعة، وبدا كأنَّها استعدت لهذا اللقاء بكل ما تملكه مِنْ أنوثة، ثم ارتمت على أحضانه وهي تقول: «لي زمن منك يا سيدي.. مشتاقة ليك شديد».. اشتدت عليه فحولته، وأثارت فِيه رجولته، واستوقدت نار الشهوة لتأسر مشاعره. لكن للعُمدة قدرة عظيمة على ضبط نفسه والسيطرة على أتونها أو إخمادها.

.. أزاحها عنْ صدره وقال:

• رسلتي لي فِي شنو؟.. ماكي عارفة الحاصل فوق الحوش.. أخبارنا بجبوها ليك السُكرجية والعبيد ..

تضايقت قليلًا مِنْ جفائه المصطنع، وقد أحست بنار فحولته وقوتها، لكنها تماسكت قسرًا وقالت:

• عشان كلامك ده درته أشوفك.. سجنك للطيب ما فيهو خير لا

ليك لا للحوش.. لازم تفك سجنه.. وتراضيه كمان..

ضحك مقهقهًا حتى بانت نواجزه، ثم قال متهكمًا:

• شن بدوري مِنْ الطيب.. ده ولدي أنا.. داير يطلع مِنْ طوعي.. وأنا ما بخليهو يمشيني على كيفه.. فهمتِ ولا أفهمك بالكرباج..

قاطعته قائلة فِي قوة وحسم:

• لو كان ده سيدي فرح ود السُرة ما كان سألتك ولا اتكلمته.. لكن سيدي الطيب.. وأنت عارف أنا قاصدة شنو.. لا أنت.. ولا غيرك بقدر يضره.. و..

لمْ يتركها تكمل بقية كلماتها المتحدية وصفعها صفعة رمتها بعيدًا، والدم يسيل مِنْ ركن شفتيها الأيسر، وقال والشرر يكاد يتطاير مِنْ عينيه:

• اسكتي يا مرة يا فاجرة.. ما فضل إلا الخدم يحشروا خشمهم فِي أمور أسيادهم.. نسيتي نفسك وقعدتي تتأمري.. حاجة غريبة..

قالت ودموعها تجري بلا كلل، وهي تمسحها ودماءها بظهر يدها:

• لا يا سيدي.. ما نسيت أنا منو.. بس باقي أنت اللي نسيت.. أنا سريتك البتجيها وقت الشدة.. تنوم فِي صدرها وترفع رجليها وتغرز جواها ضكرك بدون ولد ولا بت.. أنا يا ني الماسكة ليك شغلك وشغل أهلك ولاد العرب بالدس.. أسكرهم ليك وأشربهم المريسة والعرقي والعسلية.. لغاية ما يكوبوا مويتهم فِي عرانين خدمك البتجيبوم لي فِي

الإنداية حقتك.. كل شيء فِي الإنداية حقك حتى أنا.. وبعدين تاخد كل القروش.. وفوقه فرش السرية الرضية.. يعني بتشيل القروش وهي مبلولة بي موية العُران.. يا هه دي أنا يا سيدي.. لكني ما ناديتك شاني.. أنا ناديتك فِي شان سيدي الطيب.. ولدك الإنت بتريده.. وأنت عارف قبل غيرك شان شنو ما مفروض تضره..

أحس بخوار قوته أمام كلماتها القوية، بحث عنْ مكانٍ يجلس عليه، فاختار أنْ يجلس على طرف «العنقريب» المزين بالشهوات، جلست بجانبه ودست رأسها بين أحضانه، فاحتواها بيمناه، انتحبت قليلًا، ثم رفعت رأسها وأردفت:

• ..لازم تشوف طريقة تفك بيها سيدي الطيب يا سيدي.. ده حارسنوا الكجور والحجبان.. وكان زاد حبسه عنْ كده ما معروف البحصل شنو.. الكجور والأسياد ما بقبلوا حبس الطيب.. والحوش بسكنوهوا السحاحير.. وديل ناس سحر أسود..

تمتم قائلًا:

• لكن كجور الطيب سحر أبيض.. ده كان شرطي للكجور الشيخ.. كت داير أحفظه مِنْ كيد السُرة بنت عوج الدرب.. عشان ما تسحره.. ماك عارفاها بتكره سيدك الطيب.. سيدك الطيب بركة وعلامات البركة ظهرت فيه من ما هو شافع.. السُرة مِنْ يومها خايفة إنو سيدك الطيب يبقى عُمدة حوش الأرباب بعد ما أموت.. وسيدك

الطيب هو عُمدة الحوش حتى وأنا عايش.. إلا ما شديت عليه ولا سجنته إلا شان كلامه البقولو للناس فِي الطالعة والنازلة.. معقول ده كله يتقلب فوق رأسي؟

قالت وقد أحست بالخوف يسري فِي دواخله:

• لا يا سيدي.. ما بتجيك عوجة كان فكيت سجنه.. بس أوعك تنوم على كيف الكجور.. أنتو العرب والجلابة والنَّهَّاضة ما بتعرفوا حاجة عنْ التكجير والسبر والسحر.. والكجور الشيخ بقدر يعمل أي حاجة.. بعيدة ولا قريبة.. وهو هسع عارف إنه سيدي الطيب مسجون بسببك.. شان كده لازم تفكه لما تعقب إنْ شاء الله..

أحس ببعض الراحة، تمدد على «العنقريب».. ما زالت قدماه خارجة، جلست على الأرض ثم خلعت نعليه، ورفعت قدميه، ومددتها، اعتدل راقدًا، خلعت عنْه ثوبه وسرواله، ثم بدأت فِي تدليك جسده بالدلكة والخمرة وما يلزمهما مِنْ الصندل والبخور، استرخى كلية واسترخت عضلاته، اهتاجت رجولته، سحبها بين يديه، خلصها مِنْ رحطها، لكنه لمْ يكمل، فرجولته عجزت دون إذن. أحست الرضية بخيبة أملٍ عظيمة، ودخلها شيء مِنْ خوف، حاولت مرة ثانية، لكن فحولته غابت تمامًا. تدثر بثوبه، وانقلب على جنبه، ونام بلا نوم. بكت الرضية حظها وليلتها التي انتظرتها منذ أمدٍ بعيد، وازداد خوفها، فانكمشت على ظهر «العنقريب» بجانبه وهي تخاف الكجور.

(18)

أشرقت شمس الغد حزينة على ضمور فحولة العُمدة وعُنَّة ذكورته، واستيقظ الرجل وهو يأمل أنْ يريحه الله مِنْ السوء ويرد عنْه الأذي، ويستعيد رجولته التي اشتهر بها بين النساء والجواري والإماء. كان شعورًا بدنو الشر قد تمكن مِنْه، فأشفقت عليه الرضية أشد الإشفاق وهي تراه يحدث نفسه فِي كثيرٍ مِنْ التردد والخوف والاضطراب والحزن والغضب. كانت تعلم أنَّه ينفر مِنْ التكرار الذي لا طائل منه لذا لمْ تسعَ إلى ذكورته مرة أخرى، وقد رأت فِيه ميلًا عنْها وازورارًا عنْ معارك الأجساد، فآثرت أنْ تنكفئ على نفسها وتحبس غريزتها وشوقها إليه، ولا تجترئ عليه فتطلب مِنْه ما لا يستطيعه ولا يقدر عليه، فينكشف عواره وتخبو رجولته. ورأت أنْ تأخذه بالرفق أكثر مما تأخذه بالإلحاح.

.. وأنفق العُمدة ساعة ممددًا على «عنقريب» الشهوة وقد عاثت الأوهام بعقله وقلبه على السواء واستأثرت بهما، وهو يرجع عُنَّته إلى

الكجور الشيخ الذي لمْ يغفر له سجن ابنه الطيب، فأعنف به يريد تأديبه.

.. نهض مِنْ مرقده وخرج مِنْ دار الشهوة ليستاك ويرجو رضًا مِنْ الله، سبحانه وتعالى، استنشق نسيمات عليلة، ثم توضأ وكبر لصلاة الصُبح متأخرًا، أعاد الصلاة مرتين أو ثلاثًا والكجور الشيخ يظهر أمامه حين يبدأ الصلاة فِي كل مرة. استغفر الله ثم حوقل وبسمل وحمد الله أخرى، وأتم صلاته. واقتعد على تبروقة الصلاة الكبيرة المصنوعة مِنْ جلد الأبقار، وجعل يتلو بعض آياتٍ مِنْ الذكر الحكيم، ويسبح ثم سأل الله جلت قدرته العفو والعافية.

.. ونهضت الرضية متثاقلة الهمة، كسيرة النفس، جائعة الجسد. كانت تدرك ألا سبيل إلى استعادة ما فات ولا استدراك ما فرط. وكانت تلعن الكجور الشيخ بأقذع اللعن أنْ جعل العُنَّة على فراشها الذي لا تتمتع به سوى ليلة واحدة أو ليلتين فِي العام كله. لكنها كانت تخافه أشد الخوف وكانت ترى أنْ بأسه الشديد وغضبه المُهلك سيحلان بالحوش إنْ عاجلًا أو آجلًا، فوصلت أسبابها بأسباب العُمدة.

.. أطالت النظر إليه فِي مقعده على تبروقة الصلاة وكرهت أنْ ترى فارسها فِي هذه الحال مِنْ الضُعف قدرًا وفحولة. سرى فِي نفسها شيءٌ مِنْ فتور كما تسري النار فِي الهشيم. تمتمت قائلة: «أسرار

الكجور الشيخ الزيَّنا ما بفهمها، لكن يا الله القادر خسمتك بالقبل الأربع.. وبأوليائك الصالحين.. ما يكون نصيبي منها أنه العمدة ييجي فوق عنقريبي ميت.. شيتن فيه واقف ما في.. أصوم منه شهور وأفطر على خيبة الرجاء.. لا أبقى ليه مرة ولا سرية.. يا رب عفوك وعافيتك ورضاك».

.. وضعت مائدة الطعام أمامه وقد احتوت كل ما تشتهي النفس مِنْ أطباق شهية، لكنه عافها جميعًا، وتناول فنجانًا مِنْ القهوة نازعته نفسه عليه وهو جالس يدير ذكر الله على مسبحته فِي أناةٍ وريث. ثم نهض بعد أنْ استغفر الله ووقف فِي مكانه قائمًا واجمًا لا يقول شيئًا ولا يأتي حركة.

تمتم يقول:

• أنا باقي ماشي.. ما داير لي زول يعرف الحصل البارحة.. كان خشمك ده نضم.. بقطع رأسك وأرميك للمرافعين..

تجاوزت قسوة كلماته وحدتها، وتهديده لها، وقالت له:

• الله يوفقك فِي مسعاك.. كلامك ده ما في داعي ليه.. أنت عارف أنا خدامتك ومحل سرك... وبتعرف إني سريتك البتريدك وبتريد ليك الخير.. بس يا سيدي فك سجن سيدي الطيب.. بترجع تاني زي زمان وأحسن.. ده عمل الكجور الشيخ وسحره الأسود.. سحرك عديل.. وكان سريتك ليها عندك نصيحة تمرقه ليك.. ما

تقرب واحدة من نسوانك وأنت في الحالة دي.. استنى لما تفك سجن الطيب ويتفك الساجور والسحر الكجور.. بعدها سوي الدايره..

نظر إليها نظرة تخلط بين الإشفاق والرجاء، وقال وهو يمتطي حصانه:

• يالله في أمان الله ودعتك الله ..

ودعته بعينٍ دامعة، وقلبٍ خائف، ونفسٍ كسيرة، وروحٍ آملة، وجسدٍ جائع.

(19)

لمْ يكد نهار الجمعة يجنح إلى الزوال حتى تنادى أهل حوش الأرباب متعجلين ومبطئين إلى صلاتها وهم يسمعون المؤذن يدعو إليها وفِي صوته شيء مِنْ حزنٍ وألمٍ عميقين. وكان الرجال وهم فِي طريقهم إلى المسجد يسألون أنفسهم عنْ سبب غياب العُمدة لأسبوعٍ كاملٍ عنْ الحوش دون أنْ يعرف أحد وجهته، حتى مرسال وبقية العبيد لا يعرفون، وقد حكى لهم مرسال كل شيءٍ عنْ رحلة العُمدة التي لمْ يرجع مِنْها حتى الآن. وتناولت أحاديثهم سيرة فرح ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب الذي لمْ يخرج للبحث عنْ أبيه إلا مرة واحدة وقف فِيها عِند المكان الذي فارق عنده مرسال وأمره أنْ يحضر فِي اليوم التالي لذات المكان والزمان. عاد فرح ود العُمدة إلى الحوش وهو يزعم أنّه قد سمع همس الشياطين تأمرهم ألا يبحثوا عنْ أبيه. وعرجت أحاديثهم إلى الطيب المسجون فِي سجن الحوش، فألح عليهم الخجل ورغبوا فِي الأمن واشتاقوا للطمأنينة التي يجدونها

فِي أحاديثه وقصصه ورفقته.

.. اقتعد المصلون فُرش المسجد يريدون صلاة الجمعة وهم لا يدرون مَنْ سيؤمهم فِي صلاتهم هذه. ووقر فِي نفوس البعض أنْ لا محالة فِي إمامة فرح ود العُمدة إبراهيم فهذه وصية العُمدة نفسه، واهتاجت نفوس البعض أنْ يؤمهم فِي صلاة الجمعة سكيرٌ زانٍ، عُرف عنْه معاقرة الخمر وإتيان النساء فِي الحرام، وعُرف عنْه غلظة المعاملة وسوء الخلق. وهفت قلوب البعض إلى السجين لكنهم لا يعرفون إليه السبيل وإنْ عرفوا لا يستطيعون الوصول إليه.

.. أخذ الصادق ود محمد ود جاد الله مجلسه فِي المسجد بجانب عبد الرحمن ود حسن ود وراق وآخرين مِنْ رهطهما، وقد بدا أنهما يميلان إلى إمامة صاحبهما فرح للصلاة، بلْ بدا واضحًا أنهما يريدانه عمدة للحوش كُله. همس الصادق إلى مَنْ هم حوله قائلًا:

- خايف أقول ليكم الشُفته ما تصدقوني!

انتبه الرهط إلى حديثه، وقال عبد الرحمن متشوقًا:

- قول قولك يا زول.. ما فِي شيتن بخلينه نكضبك.. قول.. قول..

همس قائلًا وهو يتلفت كأنه يريد ألا يسمع أحد ما يقول أو كأنه يخصهم دون غيرهم بحديثه:

- مشيت أتدبى للمكان الخلى العُمدة فيه مرسال العبد.. وما

أكضب عليكم كنت خايف.. قلبي يسوي دوول.. دووول.. الله يلعن الخبارات ويقطع شياطينه.. لكن الشُفته الله لا شُوفكم ليه.. شُفته شيتن شين..

قاطعه أحدهم هامسًا حتى لا يسمعه أحد فِي المسجد، وقد فغر فاه وهو يتابعه بكل حواسه:

- .. شن شُفته يا الشليق؟

أجابه وهو ينظر إليهم واحدًا واحدًا كأنه يريد أنْ يستوثق مِنْ أثر وقع كلماته عليهم:

- شُفته العفاريت بتخنق فِي العمدة لمن كتلته.. وبعدين وقفت فوق رأسه ترقص.. ولما فترت جدعته للمرافعين.. المرافعين قطعت جسمه حتة حتة.. وكان كبير العفاريت واقف يعاين ليهم ويضحك.. حاجة تخوف.. طويل طول قدُر ما تصنقع فِي السماء ما تصل آخره.. دنقر فوق رأسه وداسه ليك بأصبع واحد لمن طرشقت.. وصرخ صرخة خلت شعرة جسمي كلبت.. وقال بصوت عالٍ.. الدور جاييك يالطيب يا ود إبراهيم الأرباب.. واتلفت لعفريت فارس كبير عندهم اسمه «شمطار».. وقال ليه رأس الطيب يجيني فِي يومين.. ولو اتأخرته برميك في النار.. وقال لواحد تاني اسمه «برقان».. فرح ود إبراهيم الأرباب.. يبقى عمدة الحوش الجديد من يوم الليلة..

لمْ يكد يتم حديثه حتى فزع الرهط وفجع. حاولوا رد أنفسهم إلى الهدوء فلمْ يستطيعوا، وأنْ يصدوا عنْها الخوف فلمْ يقدروا، وأنْ يزينوا لها الطمأنينة فلمْ تستجب لهم، وكادت أتون الروعِ أنْ تصليهم فلا يُرى لهم أثر ولا يُسمع لهم صوت. حوقلوا وبسملوا واستغفروا واستعاذوا بالله مِنْ الشيطان الرجيم. ولمْ يكدوا يتذكرون أنهم بالمسجد وهم فِي حديثهم هذا ومِنْهم مَنْ يمسك الشهيق ومِنْهم مِنْ يدفعه، حتى أذن المؤذن للصلاة، وإذا بفرح ود العُمدة إبراهيم يصعد إلى المنبر يريد أنْ يؤم الناس فِي صلاتهم. وما إنْ انتهى المؤذن ووقف فرح ليبدأ إمامته حتى سمعوا صوتًا يعرفونه يقول آمرًا:

- أنزل يا فرح.. المكان ده ما مكانك ولا حقك..

التفت المصلون إلى حيث الصوت، فإذا الطيب ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب يقف عند مدخل المسجد. وإذا نظراته المطمئنة تذهب الروع والخوف، وإذا فرح يكاد يسقط مِنْ منبره، وإذا عبد الرحمن ود حسن ود وراق ينظر إلى الصادق منكرًا غير مصدق، وإذا مرسال يكبر ويهلل، وإذا كبيرا أولاد وراق وأولاد جاد الله يتجهان إليه، ويسألانه أنْ يؤم الناس.

(20)

واهتاجت حال حوش الأربـاب وثـارت بعد انتهاء صلاة الجمعة وظهور الطيب ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب، ثم ضجت دون أنْ تستقر أو تدعو أحدًا إلى الاستقرار. واختلطت أحاديث الناس وتعالت ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا دون أنْ يدركها الإعياء والضعف. واتصل الفرح والدهشة والذهول بالغضب والحيرة والارتباك وأخذوا يمشون بين أهل الحوش فرادًا وزرافات. انكسر السجن وخرج السجين كموت الفجأة بلا مقدمات، وسعى الخوف والروع إلى قلوب فرح ود العمدة إبراهيم وأمه السُرة بنت عوج الدرب وشقيقاته، وصاحبيه عبد الرحمن ود حسن ود وراق والصادق ود محمد ود جاد الله وبعض أصحابهم الذين يكيدون له أشد الكيد، أو قلْ سعوا بقلوبهم إلى الخوف والروع. وانكسر السجن وخرج السجين كنسمات الصباح يؤامر الندي ويناجيه، وأخذ الأمن والاطمئنان يسكنان قلوب الرقيق والجواري والإماء، ويختطفان قلب

أمه وشقيقه عباس وشقيقتيه زينب وسعاد، ويمتزجان بدموع الهدية بنت الشريف كبيرة الحوش ونفيسة بنت مصطفى الأرباب زوجة أبيه الصُغرى وكبار أولاد وراق وأولاد جاد الله ونسائهم وبناتهم فالفارس قد أطل.

.. عبثت فيالق الشر وشياطينه بالسُرة بنت عوج الدرب وابنها وبقية أهلْ بيتها، فغرقوا فِي الحِنْقِ والغضب ولمْ يجاهدوا شرهم أو يخفوا سوءاتهم. قالت السُرة وهي تعنف بابنها:

ـ المرق الصعلوك ده من السجن منو؟.. وكيف مرق من السجن؟.. وأنت كنت وين؟.. تلاقيك مقضي وقتك كله من صدر لصدر.. أنت وأصحابك السكرانين ديل.. يومكم كله فِي الإنداية مع الرضية بنت الإزيرق.. وفريخاته.. تشربوا فِي المريسة والعرقي.. وتفجخوا في النسوان.. سايبين الحوش للرقيق.. أنت بهمك حاجة..

صمتت قليلًا والشرر المتطاير مِنْ عينيها يكاد يحرقه، وهو صامت لا يدري ماذا يقول، فأردفت:

• كان دُرته عمودية حوش الأرباب لازم ترجع الطيب ود فاطنة لي السجن .. أنت اليوم مكان أبوك.. وهو اللي قال أنت مكانه إذا غاب مِنْ الحوش.. بس أنت ما مِنك فايدة.. عقلك كله خاتيه بين رجليك.. وكمان خواف.. مما شفته الطيب قمته ترجف.. قال ليك أنزل من المنبر.. قمت نزلت.. وكمان صليت وراه.. كيف رضيت

لنفسك كده يا ود بطني.. شقيتني آخر عمري الله يشقيك يا ود فاطنة.. الحوش كله يتكلم فيك يالقشير.. كيف غلبك ونزلك مِنْ فوق المنبر غصب وحمرة عين.. ماك راجل؟ ..

قال بصوت خفيض مرتعد:

• يعني كنتِ دايراني أعمل شنو؟.. دخل الجامع فجأة.. نقعد نحن أولاد العُمدة نتداوس قدام الناس كمان..

وضعت كلتا يديها على رأسها حتى وقع الثوب مِنْ عليها، وقالت تردد:

• أشق صدري يا ناس.. أعمل شنو شان أبقيك فارس يخاف منه خلق الله.. كيف تخاف مِنْ ود فاطنة الأصغر منك؟..

صمتت برهة ثم مسحت بطرف ثوبها دمعة هربت مِنْ بين جفونها عنوة:

• يا ود بطني.. الفارس ما بخاف مِنْ المشاكل.. الفارس بغلب المشاكل بعقله الزين وقلبه الحديد.. كل الكان مفروض تسويه إنك تقول لعبيدك وحراسك أقبضوا عليه وارموه في السجن تاني.. ما كان في واحد بقدر يكسر كلامك.. شان أبوك هو السجنه.. يعني أنت بس تعمل القال ليك أبوك تعمله.. حتى شهر الحبس القاله أبوك ما انتهى.. هو يا وليد أبوك طشة.. وطشة دي ما في زول عارف ليها سبب.. وما في داعي نزيد الطين بلة.. ود فاطنة المطوقش ده لازم

يرجع يتسجن.. لازم يرجع وبسرعة.. سامع..

لا يزال يتملكه الخوف مِنْ أخيه غير الشقيق الطيب، وما زالت أمه تغذيه بالحقد والحسد، وتملأ جوفه بالغضب والحِنق، قال:

• هيي نان كيف يمه؟.. الناس ما صدقوا شافوه بره السجن إلا واتلموا حوالينوا زي الضبان.. وكبار الحوش مشوا ليه وقالوله صلِّ بينا..

قاطعته بحزم:

• خلاص.. هو ناداك تيجي مع الناس فِي بيت الهدية بنت الشريف.. امشِ أنت ورقيقك والحراس.. وسوقوا معاكم أصحابك الصادق وعبد الرحمن وخوياتم.. شوف كلامه واسمعه زين.. اقبضوه زي الكلب.. وقول لكبار الحوش مِنْ أولاد الأرباب وأولاد وراق وأولاد جاد الله إنك بتسوي وتنفذ في أمر العُمدة.. وإنك بتطلعه بعد ما يتم شهر زي ما قال العُمدة كان رجع ولا ما رجع..

صمتت قليلًا ثم قالت بصوتٍ عالٍ:

• يمين يسألوني عنه يوم القيامة.. وحات سيدي الحسن.. والله تاني ما يمرق مِنْ السجن إلا شايلنه فِي عنقريب..

نظر إلى أمه يريد أنْ يستمد مِنْها القوة، وتلاعبت ابتسامة شيطانية شقية بشفتيه. خرج مِنْ دارها قاصدًا لقاء صاحبيه عبد الرحمن والصادق ليشاركاه ما استقر فِي قلبه وعقله وينفذاه معه.

(21)

.. **وكما** أحدثت عودة الطيب المفاجئة ببيت السُرة بنت عوج الدرب ما أحدثت فقد صنعت بأهل الحوش ما صنعت. ووجدوا فِيها ما يكفي للفرح والأمن والطمأنينة أو ما يلقي ببعضهم فِي أتون الخوف والغضب والحِنق. ولبث فِيهم هذا التباين فِي المشاعر ردحًا غير قليل وهم آملين أو كارهين. ينتظرون ما سيسفر عنْ لقاء الفارس الطيب بكبارهم فِي بيت الهدية بنت الشريف الأم الكبرى للحوش.

تخلصت تاج الملوك مِنْ دموعها الحارة وحياتها القاسية الجافة الغليظة التي تسبب فِيها سجن الحبيب الطيب، وقد ضاقت بها كل الضيق، واستعادت خِلاسيتها الرائقة وابتسامتها العذبة واستبدلت دموع الحزن بدموع الفرح، واستقبلته بوجه طلق، وثغرٍ باسم، وشبابٍ غض، وقلبٍ يفيض مودة ورحمة وحنانًا وحبًّا، راجية أنْ يُسمعها مِنْ كلماته الحلوة الدافئة بعض ما يغذي الأنثى بداخلها.

فهي لمْ تعرف فرحًا ولا مرحًا ولا ابتهاجًا منذ استرقها النخاسون إلا معه. وأرادت أنْ تلتقيه كما تلتقي المرأة فارسها فتودع حياة لا تكاد تلم بالفرح إلا لتسرع إلى الحزن أو يسرع الحزن إليها.

قالت وهي تستقبله قبل أنْ يدخل على أمه راسمة ابتسامة شهية:

• حمدًا لله على سلامتك..

نظر إليها فإذا الأنثى فِيها تدعوه فِي جنون، فغض طرفه، واستغفر الله ثم قال مجيبًا:

• .. الحمد لله.. والحمد لله شفتك بخير..

قالت بصوتٍ دافئ حنون:

• .. ما شفت الخير إلا لما شفتك.. من يوم رموك في السجن وعيني ما نشفت.. أبكي ليلي ونهاري.. كرهت نفسي.. والدار بدونك بقت خلا.. وبقيت زي المات جناها..

قال مقاطعًا وهو يغض الطرف كأنه يخاف مِنْ أنوثتها:

• الحمد لله.. مرقت من السجن.. ما داير بكاء تاني.. هسي بدور أشوف أمي شان ما أتأخر عليها.. بعدها الله يسوي الفيه الخير..

.. واستقبلته أمه فاطنة بنت حمد النيل حفية به مشوقة إليه، لكنه أحس بشيء ما فِي استقبال أمه، كأنْ قلبها قد التوى عنْ شيءٍ ما، لكن مثل هذه الالتواء لا يمكن تأريخه باليوم والشهر. سألها قائلًا:

• مالك يُمه؟.. أنت كويسة؟..

أجابته وهي تشيح بوجهها عنْه لتخفي دمعة تحدرت فِي إهمال:

• ما في حاجة يا وليدي.. لكن أنت بتعرف كرهتي في الدنيا دي ظلم الناس.. أبوك ظلمك ظلم الحسن والحسين.. بدون سبب.. لكن ده ما وقت اللوم.. امشِ فتش أبوك وين طش.. المرقة الياها.. غطسة واحدة ما صد منها.. أبوك أمانة في رقبتك.. ده واجبك.. وبعد ترجعه لي كلام تاني معاه.. إلا هسه ما عندك شغله غير تفتشه وتبقى بيه راجع..

قال:

• ما تخافي يمه.. إن شاء الله خير.. المهم أنت كيف حالك؟..

نظرت إليه بحب، وقالت:

• أحمد الله يا وليدي.. بس غيبة أبوك ما مريحاني..

صمتت برهة، ثم أردفت بدون إنذار:

• .. بدور أعرس ليك وأشوف جديدك قبل ما أفوت الدنيا دي..

ابتسم فِي وجه أمه وقال:

• قريب إنْ شاء الله يمه.. بس خلينا أول نشوف العُمدة فاتنا وين.. بعد نلقاه بحصل خير إن شاء الله..

صمتت قليلًا، وهم يودعها ويستأذنها للذهاب إلى دار الهدية بنت الشريف، لكنها سألته فجأة:

• بدور أسألك.. مرقت من سجنك كيفين؟.. الفكاك منو..

وأبوك العُمدة طاشي؟..

تبسم فِي وجهها مرة ثانية، ثم قال فِي هدوء:

• الله غالب يمه.. سمى نفسه العدل.. قادر على كل شيء.. ودعتك لي الله يمه.. بدور أمشي.. ألا وين زينب وسعاد؟.. ما سامع ليهن حس..

علمت أنه لا يريد أنْ يتحدث فِي هذا الأمر، فأذنت له وأشارت بمكان شقيقتيه. التقاهما وعابثهما وهما فرحتان بعودته وخروجه مِنْ سجن الظلم، ثم أخذ طريقه إلى بيت الأم الكبرى.

(22)

مثلت عودة الطيب ود العُمدة المفاجئة صفعة دوى أزيزها كالرعد لدى الصادق ود جاد الله وابني عميه الجاك ود الأمين ود جاد الله ويوسف ود بابكر ود جاد الله وابن خاله حمد ود عبد الله ود الباقر وصاحبهم عبد الرحمن ود حسن ود وراق. كأنهم يحلمون بكوابيس الليل التي لا تحمل ما يمسك الحياة لأصحابها ولا يرد الأمن والطمأنينة إلى قلوبهم.

تحلقوا فِي دار الصادق ود محمد ود جاد الله فِي ذلك النهار بعد أنْ سعت الشمس إلى مخبئها، متباطئى الهمة كسالى العزم لا يدرون ما يصنعون فِي أمرهم. دفنوا وجوههم فِي لحد الشحوب، ودب الخوف فِي قلوبهم، وقصد الحِنق والغضب والحسد إلى نفوسهم، وقصرت ثغورهم عنْ الابتسام، وأحسوا بثقل الحياة فاضطربت مشاعرهم بحزنٍ بئيس.

صرخ الصادق فِي رقيقه وعبيده يسأل عنْ المريسة والعرقي

والعسلية ليكرم بهم ضيوفه، فأنكر عليه ابن خاله حمد ود عبد الله ود الباقر ذلك قائلًا:

• ده ما وكت مريسة وعرقي يا أخوي.. ولا وكت بتاع سكر وعربدة.. فرت ساعة ونلاقي ود الشواطين ده في حوش العُمدة الكبير.. في بيت الهدية بنت الشريف.. وما في داعي نلاقي.. ونلاقي كبارنا ونحن نطوطح شمال ويمين.. ولا نَفَسْنَا كله عرقي ومريسة..

قال:

• يا أخي عبار واحد ما بسكر.. رأسنا بغلي براه..

قال مُنكرًا:

• لا والله يا فارس أولاد جاد الله.. ولا عبار قبل ما نحل مشكلتنا مع قشير ده.. ونطفشوا من الحوش كله..

استقرت فِي آذانهم عبارته الأخيرة ووعوها كما أرادوا لها. لا ينبغي لهم السُكر الآن عليهم أنْ يحملوا على عقولهم حتى يجدوا طريقة للتخلص مِنْ هذا الذي يدعونه ابن الشياطين. وتحاوروا بحديث يطولونه حينًا ويقصرونه آخر حسب ما يكونون عليه مِنْ القبول والرفض أو العجلة والريث. يتملكهم ذعر لا يستطيعون احتواءه ولا يعرفون كيف يظهرون عليه وأيديهم تذهب وتجيء فِي الهواء، وأصواتهم تعلو مرة وتخبو أخرى فِي حشرجة واضحة تخرج مِنْ بين حناجرهم وشفاههم. وانغمسوا انغماسًا عنيفًا فِي غيهم وقهرهم وفِي

ظلمة النفوس الشقية، يرجون الغوص حتى قاع محيط الفجور، إلى أنْ جاءت سيرة فرح ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب، فاستأسد الصادق وظهر فِي وجهه شيء مِنْ الجد، لمْ يلبث أنْ استحال إلى غضبٍ منكرٍ عنيف، وقال:

• ما قتلكم التخه ده قلبه كبير وخواف!.. من ما شاف الطيب ركبينه قعدن يطقشن فوق بعض.. وبلابيطه وقعن.. يترقط كله زي هبابة الجمر.. قاله أنزل.. الخايب ود الخايبة نزل.. خلانا نتلفت.. ورأسنا ضرب.. الله يلعنك يا الهمبول الخليتنا نتضارة..

واستأثر الغضب بحمد ود عبد الله ود الباقر أيضًا، وقد ضاق صدره بما حمل، فاستوى جالسًا، ثم انحرف بنصفه الأعلى إلى يمينه حتى اقترب بوجهه مِنْ ابن عمته الصادق يريد أنْ يسِر له بشيءٍ ما، ثم همس فِي أذنه بحديث طويلٍ استغرق بضع دقائق دون أنْ يسمع الآخرون. وجعل وجه الصادق يتلون بجميع ألوان الطيف، يبتسم حينًا ويضحك أخرى، ويقطب جبينه مرة ويفرده مرة، وتنفرج أساريره بين المرة والمرة وهو فِي مكانه يتآمر عليه العجب والدهشة بما يسمع مِنْ ابن خاله. على أنه لمْ يلبث أنْ فرق بينهما وصاح بصحابه وهو يشير إلى حمد:

• .. أنت زول ماك ساهل.. داهية عديل.. شيطان رجيم.. قوم يا عبد الرحمن وسوق معاك الجاك وجيبوا لينه فرح قدامنا نلاقيهو قبل

نلاقي ود الشواطين الطيب.. دايرين نقيف معاه شان ينتهي لينه من قشير الله لا كسبه..

سأله وقد بدا متضايقًا:

• يعني نحن هوا ساكت.. وهسع وسوسته أنت ود خالك.. ومرقتونا بي قد القفة.. بقيتوا ترسلونا زي الرقيق.. قوم ودي.. وتعال جيب..

ضحك الصادق حتى انكفأ على ظهره، ثم قال له:

• امسحه في وشي وانسَ يا الحبيب.. معليش كان تقلنا عليكم.. جيبوا لينا فرح ود العُمدة شان نمشي مع بعض لي حوش العُمدة الكبيرة.. وحتعرفوا كل شيء في وكته..

نهض عبد الرحمن دون اقتناع وتبعه الجاك يريدان فرح ود العُمدة، ويقتلهما الفضول ويقطع عليهما الطريق، ويضيق صدرهما بما كلفا به دون أنْ يواتيهما الحظ أو يستقيم لهما الأمر.

(23)

.. **وما** إنْ سمع ود مرسال بعودة الطيب المفاجئة وخروجه مِنْ السجن حتى غشاه الفرح والسرور فكادا أنْ يقتلاه. لقد عاش أيامًا مليئة بالحزن والكآبة والدموع والسجن يحتوى الطيب فارس حوش ود الأرباب. نادى على ألمظ الحبشية والشامة بنت الجاز وست الدار الحلبية أفضل مِنْ يجهزن الجواري للزبائن أصحاب الحظوة. وطلب مِنْهن أنْ يدلكنه ويجهزن حفرة الدخان ليأخذ حظه مِنْها كما تأخذ النساء حظهن مِنْها لأجل أزواجهن. وأقسم عليهن أنْ يبذلن قصارى جهدهن ويستعملن أغلى الروائح مِنْ دلكة وخمرة وصندلٍ وما يجري مجراهن، ويخلصن فِي ذلك غاية الإخلاص. وأغراهن بالمال وكل ما يحتجنه المحظيات، وقرر أنْ يهب نفسه لفارسه ورجله الذي لا يرى غيره وصورة ذلك الشيء الذي يتأرجح تحت سرواله لا تريد أنْ تغادر مخيلته. سألته ألمظ بلكنتها الحبشية الجميلة قائلة:

• أنت ما بتشبع مِنْ سوات الرجال فيك؟..

لمْ يجبها، وأشاح بوجهه عنْها، فأردفت بغيظ:

• .. والبقولوله الطيب.. ما من زبائن الإنداية.. ولا بدور النسوان.. ييجي يفتش الرجال.. أنت شن بتدور منو؟..

أجابها بحدة:

• هيي هيييي.. أنت مالك؟.. شن حشرك؟.. كل يوم يركبوا فيك.. مابية لي الركوب مالك.. حبشية ملعونة.. ليلك ونهارك تتجلعي مِنْ فجخ الرجال.. حارماني مالك.. تحرم عليك عيشتك يا بنت الكلب..

صمت برهة جر فِيها نفسًا عميقًا، ثم قال كأنه يحدث خيالًا لمْ يتبينه:

• وااااااي.. كان عصرني مرة واحدة.. أموت بعده زي المافي حاجة..

تطلعت إلية الشامة بنت الجاز ثم زمت شفتيها منكرة بحركة مميزة يفهمنها النساء وحدهن حين لا يعجبهن الحديث، ونظرت إلى ست الدار الحلبية وهمهمت بصوتٍ خفيض قائلةً:

• يمين الله الولد ده ما نصيح.. زول ما بفك سرواله للنسوان.. دايره يركبك أنت.. سمعته مِنْ رقيق الحوش إنه بدور يعرس الخادم الاشتراها..

صمتت برهة ثم أردفت وهي تتحدث عنه بزهو:

• اشتراها بس!.. ده قلعه قلع عديل.. قلع راجل فارس.. مِنْ وسط السوق.. راجل قدر عليه مافي.. كسر يد الصادق ود محمد ود جاد الله.. راجل فيهن هماهو ما في..

صاح بها غاضبًا بصوته النسائي الحاد:

• اسكتي يا البومة.. يا شؤوووم الله يلعنك.. ما بخليه يعرسه كان انطبقت السماء على الواطة.. يفوتني أنا ود مرسال فِي شان خادم بنت زرقة.. سجم أمها.. العفين.. ندرن علي إلا أخليها ما تعرف قلبته من عدلته..

وتدحرجت دموع غزار مِنْ بين جفنيه، وازددن بنحيب ينخفض بالأنين مرة ويرتفع بالشهيق مرات، وهن ينظرن إليه نظرات تختلط فِيها الرأفة بالأسى. ثم شاركنه دفع الدموع لا يدركن إنْ كنَّ يبكين حظه أم يندبن رجولته.

.. وعاشت الرضية بنت الإزيرق منذ عودتها مِنْ سفح الجبل وهي مكسورة الأنوثة ومكلومة القلب، أعياها اختفاء العُمدة غير المبرر. تركها ذلك اليوم التعس يريد العودة إلى الحوش بعد تلك الليلة البائسة وما أصابه فِيها مِنْ عُنْة لا تصيب أمثاله مِنْ الرجال أبدًا. لكنه الكجور الشيخ مَنْ تسبب فِيها لا شك لها فِي ذلك، فهلْ تسبب فِي غيابه كل هذه المدة. هي الوحيدة التي رأته حين ودعته وهو يمتطي صهوة جواده آخر مرة رآه فِيها بشر ولكنها لا تستطيع

البوح بذلك. أين اختفي؟ وكيف؟.. هلْ لا يزال يعاني مِنْ تلك العُنَّة فاختفي يرجو الشفاء؟.. أو ذهب ليستشفى مِنْها فِي البقعة أو ما جاورها؟.. لِمَ لمْ يأخذها معه؟.. يعلم أنها تحبه أكثر مِنْ نساء العرب اللاتي يسكن بيوته فِي حوش الأرباب.. ويعلم أنَّها موطن سره الذي لا يعلم به سواها.. فلِمَ اختفى؟ وأين؟

فجأة! تنازعتها صورتان. فهذا فرح ود العُمدة يترك أباه لا يدري أين هو.. يريد أنْ يصبح العُمدة الجديد وإنْ على ظهر أبيه، تدفعه أمه السُرة بنت عوج الدرب إلى العُمودية دفعًا.. فتكاد الصورة تقتلها.. وذاك الفارس المأمول الطيب ود العُمدة يخرج مِنْ سجنه دون أنْ يدري أحدٌ كيف خرج.. لكنه يخرج للبحث عنْ أبيه الذي وضعه فِي السجن كاللصوص وقطاع الطرق.. فتكاد الصورتان يأخذانها أخذًا إلى الطيب لتبوح له بأمر العُمدة وأمرها معه. بكت الرضية بنت الإزيرق بحرقة وقد انحشر عقلها بين خيالات وصور تنتهي كلها باختفاء العمدة حبها الأوحد إلى الأبد.

سمعت صوت مرسال عبد العُمدة القديم خارج القطية التي ترقد بداخلها، لقد كان مرسال القوي ينتظرها، ترى هلْ جاء يبشرها بعودة الحبيب الغالي؟.. تناولت وشاحًا رمته بإهمال على رأسها ثم خرجت تلتقيه، وما إنْ رآها حتى دمعت عيناه فجفلت كالناقة المرعوبة، وكادت تنهار وتسقط أرضًا لولا أنه تلقاها قبل

سقوطها. سألته واجفة:

• العُمدة صد راجع؟.. ولا جايب لي خبر شوم..

أجابها دامعًا:

• لا يا الرضية.. العُمدة ما جانا صادي.. ما في واحد في الحوش عارف عنه شيء.. بس سمعت مِنْ سيدي الطيب إنه مارق يفتش عليه بعد يقابل رجال الحوش.. وأنا كمان حأبقالو رفيق..

عدلت مِنْ وقفتها وابتعدت عنْه خطوة أو خطوتين وهي تحاول أنْ تتماسك:

• مِنْو الماشي معاه مِنْ الرجال؟..

أجابها:

• مابي يسوق معاه أي زول.. داير يرحل بي رقبته بس.. حتى أنا حأرافقه لغاية المكان الفارقته فيه سيدي العُمدة.. بعدها بصد راجع..

اضطربت قليلًا ثم سألته ثانية:

• أنت متأكد ما في واحد مارق معاه.. ولا خويينه فرح وعباس ..

أجابها بهز رأسه يوافقها. تغيرت ملامحها وتشابكت فلمْ يدرِ إنْ كانت خائفة أم مبتهجة. إلا أنَّه سأل نفسه: «لِمَ هذا الاهتمام الذي تبديه الرضية للعُمدة إبراهيم ود أحمد الأربـاب؟».. لكنه لمْ يجد إجابة.

(24)

استفحل الخوف والروع بأهل حوش الأرباب بسبب غياب العُمدة وعدم علمهم بمكان اختفائه، وخليق بهذا الاختفاء المفاجئ أنْ يجشمهم أهوالًا، ويحملهم همومًا ثقالًا. فقصد كبارهم دار الهدية بنت الشريف للقاء مضيفهم الطيب ود العُمدة آملين أنْ يخرجهم هذا اللقاء مِنْ ظلمة الخوف والروع، إلى نور الأمن والاطمئنان. كانوا يحبون الفتى وكانوا يريدون لهذا الحب أنْ يتصل لولا حديثه عنْ مكاتبة العبيد والجواري، وحديثه عنْ الحُرية والمساواة بين الناس، وتحريض الجنقو لطلب المزيد فِي مقابل أعمال الزراعة. كانوا يسرفون فِي استبقاء حبهم له ويكرهون استبقاء ما يدعون إليه، كأنهم يدخرونه لشيءٍ ما لا يعرفونه وقد أخذ ينجلي شيئًا فشيئا حين منع فرحًا مِنْ إمامتهم ساعة صلاة الجمعة. أشفقوا على فرح أشد الإشفاق وخالطوه بكثيرٍ مِنْ سخرية، واشتملوه ببعض مِنْ شماتة، فأرضوا حاجتهم بهذا الخليط النقع مِنْ الإشفاق والسخرية والشماتة.

.. لمْ يتعود أهل الحوش أنْ يأتمروا لغير أولاد الأرباب، واعتادوا الإذعان لهم والاستجابة إلى ما يريدون. لكنهم حاروا بين الرجلين

أيذعنون لفرح الابن البكر للعُمدة ولا يعترضونه فيصبح صاحب الأمر والنهي فِيهم وقد أغراهم بالرخاء والنعيم، ويحاولون إظهار الرضا قسرًا إنْ لمْ يجد الرضا إليهم سبيلًا، أم يسلمون أمرهم للطيب الابن الأوسط للغائب الحاضر، فتذعن إرادتهم وتثور قلوبهم كلما حدثهم عنْ حق العبيد والإماء والجواري فِي المكاتبة، أو شرح لهم كيف تكون المساواة وكيف يكون الإنصاف بين الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، أو ألزمهم بجزل العطاء للجنقو عمال الزراعة. ثم يردون أنفسهم إلى هدوءٍ منكر ويأملون ألا يجيء مِنْ ورائه شرٌ عظيم.

هيأ القوم أنفسهم للقاء الطيب فساروا إليه وحدانًا وجماعات يريدونه أنْ يفيض عليهم بشيءٍ مِنْ أمن وفضل مِنْ طمأنينة. ويريدون أنْ يواسوه فِي هذه الملمة التي نزلت به فساقته إلى السجن ردحًا ثم فارقت بينه وبين أبيه دون أنْ يعرفوا أين فارق أو كيف فارق. وقد احتمل الفتى مِنْ المشقتين أكثر مما يستطيع بشر أنْ يحتمل وبلغ مِنْ الجهد أقصاه. لكنه غير كل الناس يؤمن أنَّ الآمال تصدق أصحابها دائمًا، وأنه لنْ يكذبها مهما قست الأيام.

جلس الجميع فِي ديوان العُمدة الكبير وقدم لهم الطيب وأحسن ضيافتهم، حتى إذا أذن العشاء وأدوا الصلاة وما يلزمها مِنْ خشوع ودعاء وسُنة، أثنى وحمد الله ثم صلى على نبيه وقال:

- كلكم عارفين إنه إرادة الله غالبة.. وإنه أبوي العُمدة سجني

بسبب خلافي معاه على أمر الناس عموم.. ما على عقوقٍ أو عصية.. وكلكم عارفين قبولي بالسجن ورضيت بقدر الله وقرار العُمدة.. وقدر الله كان سببًا فِي غياب العُمدة نفسه وما في زول عارف ليه قبلة.. ولا سبب غيابه.. ولا هو حي ولا ميت.. وشان هو أبوي فأحق الناس بيه هم أولاده.. أخوي فرح بارك الله فيهو حاول مرة والله ما كتب ليه النجاح.. والدور بقى علي ..

صمت برهة همهم فِيها الناس واختلطت همساتهم، لكنه أكمل قائلًا:

•.. حأرحل من الحوش في نص الليل إن شاء الله.. بسوق معاي مرسال شان يدلني على المكان الفارق فيه العُمدة.. بعدها بجيكم صادي.. من هناك بتوكل علي الله ورحلتي تبدأ.. الله يقوينا جميعًا.. وإن شاء الله أصد ومعاي العمدة..

صمت مرة أخرى، وقد سمعوا جلبة فِي الخارج دخل بعدها إلى المجلس فرح ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب وفِي معيته عبد الرحمن ود حسن ود وراق والصادق ود محمد ود جاد الله والجاك ود الأمين ود جاد الله ويوسف ود بابكر ود جاد الله وحمد ود عبد الله ود الباقر. تفرق الوافدون عنْ بعضهم، فأكمل الطيب حديثة:

• .. أها.. الحمد لله فرح أخوي جاء يحضر معانا ومعاه فرسان الحوش كلهم.. بدورهم يسمعون كلامي.. بعد أمرق في نص الليل يبقى عمي محمد الحسن ود أحمد الأرباب فِي مقام العمدة ويقوم بكل

أمر الحوش هو كبير أولاد الأرباب فِي غياب العُمدة إبراهيم.. ولو تميت عشرة أيام وعشر ليالٍ وما صديت.. ولا العمدة صده براه تكونوا مجلس للحوش من ثلاثة هم عمي محمد الحسن ود أحمد الأرباب والشيخ عبد الله ود وراق كبير أولاد وراق والشيخ حسان كبير أولاد جاد الله.. يقوم بأمر الحوش.. وكان تميت الشهر وما صديت وما صد أبوي العُمدة.. تختاروا ليكم عمدة جديد من بيناتكم.. بشرط ما يكون من أولاد الأرباب.. فلو كانت العُمودية خير كُلها نحن أولاد الأرباب أخدنا حقنا منها.. ولو كانت شر كلها فنحن كمان أخدنا من شرها البكفينا.. كده كلامي انتهى.. وصل الله على نبينا محمد ابن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

.. وما إنْ أكمل حديثه حتى انتابت فرح موجة هستيرية مِنْ الضحك، وانتاب الجمع موجة أخرى خليط مِنْ الدهشة والعجب وعدم التصديق، وتبادل الجميع النظرات وارتسمت الكثير مِنْ الابتسامات على الشفاه كل مِنْها تحمل معنًى مختلفًا، وفغرت أفواه البعض بلا كلام، وعلت الهمسات فرحة حينًا ومستنكرة حينًا وغير مصدقة حينًا آخر. لملم فرح كل ضحكاته إليه وقال غاضبًا وصارخًا:

• أنت جنيت يا ود فاطنة؟.. باين السجن جننك فوق رأسك المدوقس ده.. أنت منو شان تأمرنا كلنا وكمان تأمرني أنا فرح ود العُمدة الكبير.. بقيت تهترف بالكلام ساكت.. فاكر نفسك كبير أولاد

الأرباب.. امشِ محل ما تحت رأسك خت كرعيك.. ولا أنت ولا أبوك ما تجونا صادين عقبة.. تفتش عن أبوك.. تطير ما ترك على كيفك.. إلا ما تتأمر علينا هنا.. أنا ود العُمدة الكبير.. ما بتقدر تقلع مني العُمودية إن طش أبوك ولا مات.. أنا العمدة هنا.. كمان عايز العمودية تبقى في بيت عمك.. طز فيك وفيهو.. شايل أصبعك تغزو في صلب غيرك.. لا أنت ولا عمك زول فيكم ببقى عمدة وأنا حي ما في.. خلي كمان همج الحوش يختاروا واحدًا من غير حوش الأرباب شان يبقى عمدة.. باين عليك جنيت.. وبقت فينا حكاية سكتنالو دخل بحمارو.. أنت فاكر بسكتلك زي سكاتي في بيت الله يوم الجمعة.. حرم إلا تشوف مني الماشفته قبل ده.. هيييع.. أنا ولدك يا السُرة بنت عوج الدرب..

ابتسم الطيب وتقدم ناحيته، فتراجع فرح خطوتين إلى الوراء، وقف مكانه وقال:

• أنت متأكد أنه أبوك مات؟.. ولو مات.. أنت أحسن من منو في الرجال ديل شان تتولى أمر الحوش؟..

لمْ يجبه لكنه التفت إلى صحبه، فأشاروا له بهز رءوسهم، واستل سيفه وصرخ:

• اقبضوا عليه ياحراس العُمدة وعبيده؟.. أرموه في السجن.. زي ما قال أبوي العُمدة.. ومن يوم الليلة أنا عُمدة حوش الأرباب.. لغاية ما أبوي يجيء صادي.. كان رجع بعد شهر واحد.. رجع عمدة زي ما

كان.. وكان ما صده أخدت عزاءه وقبلنا عزاكم فوقوه.. ده أمر لكل أهل الحوش..

لمْ يتحرك الطيب مِنْ مكانه لكنه حدج أخاه بنظرة أرعدت فرائصه وهزت السيف الذي يحمله، تحرك عبد الرحمن والصادق بسيفيهما باتجاه فرح ووقفا خلفه وهما ينظران بخوفٍ شديد إلى الطيب. اتجه الطيب بوجهه ناحية عمه محمد الحسن ود أحمد الأرباب كبير أولاد الأرباب ثم إلى الشيخ عبد الله ود وراق كبير أولاد وراق ثم إلى الشيخ حسان ود جاد الله كبير أولاد جاد الله.. وسألهم:

• شن قولكم في كلام أخوي الكبير فرح؟

لمْ يجبه أحد، فسألهم مرة أخرى:

• شن قولكم؟.. بدور يبقى عمدتكم.. بيقول ده حقه.. حتى قبل ما يعرف عمدتكم الأرباب حي ولا ميت..

نهض محمد الحسن ود أحمد الأرباب كبير أولاد الأرباب واتجه صوب فرح، وقال فِي صوتٍ حازمٍ وحاسمٍ وآمرٍ:

• نزل سيفك يا ولد.. وخليً قولكً في العمدة وأخوك وأهلك بأدب.. لا بتستحي ولا تختشي.. رجال زينا يقيفوا قدامك وتقل في أدبك.. نزل سيفك.. وإلا بضوقك إيدي يا كلب..

صمت برهة ثم قال:

• .. أبوك بكى بدموعه لما رمى أخوك في السجن ظلم.. كان عارف

إنه كلام الطيب حق لكن ما كان داير يهدم الحوش وكان عايز يرضي الناس كلها.. وكبار الحوش كانوا شاهدين على كلامي ده لما دعاهم في قطية الضيافة في سوق الحوش.. بس أنت قليت أدبك عليه وعلى أخوك وعلينا نحن كمان.. الزم حدك يا ولد وإلا..

جلجلت ضحكات فرح المكان، واستقبلها الحاضرون باستهانة واستنكار، لكنه أتبعها صارخًا فِيهم:

• وين حراس العمده وعبيده؟.. أرموه في السجن؟.. وأقبضوا على عمي ده ذاته؟.. عايز أشوفهم في سجن الحوش قدام عيني.. وين أنتم؟

لمْ يتحرك أحد، واكتسى وجه الطيب بمسحة مِنْ غضب، لكنه ربت على كتف عمه، وقال يراضيه:

• ما تزعل يا عمي.. خليه لي.. أنا بعرف فرح أخوي كويس.. وبعرف أسوي شنو معاه..

تراجع عبد الرحمن والصادق خطوتين إلى الخلف وقد أحسا بغضبه فتملكهما الخوف، واهتز سيف فرحٍ مرة أخرى. صاح الطيب مناديًا:

• تعالَ لجوه يا ود عجيب وريِّنه عندك لينه شنو ..

دخل ود عجيب ومعه بعض الحراس وهم يجرون وراءهم رجال فرح وعبيده مكبلين بالقيود والأصفاد. وما إنْ رأى فرح رجاله وعبيده في قبضة ود عجيب حتى انخلع قلبه مِنْ بين أضالعه، واهتزت يده

وسقط سيفه. وحاول عبد الرحمن والصادق أنْ يتراجعا فأمسك بهما رجال ود عجيب. وأمسك البعض الآخر بالجاك ود الأمين ود جاد الله ويوسف ود بابكر ود جاد الله وحمد ود عبد الله ود الباقر. قال الطيب فِي هدوء:

• كنت عارف إنتو ناوين على شنو.. قاعدين تخططوا وترسموا فوق كم.. ده كله وسخ دنيا.. وأنا ما داير منكم شيء.. عشان كده حأسجن كل واحد فيكم في بيت أمه ما يمرقوا منها شبر لغاية ما أجي صادي.. بعدها تبقوا أحرار.. وكان الله أخد وديعته يبقى أمركم في ذمة العمدة الجديد وهو حُر يسوي فيكم الدايره..

صمت برهة، ثم قال موجهًا حديثه إلى حمد ود عبد الله ود الباقر وهو يقترب مِنْه:

• بتدور تبقى عمدة بعد تركب ضهر أخوي وتدلدل كرعيك.. لسه فاكر إنه أبوك مات بسبب العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب.. أبوك كتله الطمع.. أبوك كتلته عينه المالملاها غير التراب.. خت كلامي ده فوق رأسك يا الهوين.. لو عرفت إنك سبب غياب العُمدة.. كتلتك براها ما بتكفيني.. فهمته ولا أعيد ليك كلامي ده تاني..

صمت قليلًا، ثم أمر الحُراس بأخذهم مكبلين إلى بيوت أمهاتهم، وعين حارسًا على كل بيت. ثم استأذن كبار الحوش وخرج للبحث عنْ أبيه.

(25)

سكن الغضب والحِنق قلب السُرة بنت عوج الدرب وفِي عينيها دموع تريد أنْ تنفر لكنها تمسكها بين جفونها فِي شيءٍ مِنْ الجهد، وهي ترى ابنها وقد بات مسجونًا فِي بيته وأسيرًا فِي مُلك أبيه. وراوحت ساعة وهي تتردد بين الغضب والحِنق دون أنْ يغشاها الاطمئنان أو يزورها الأمن، وبناتها يحاولن أنْ يسلينها ويعزينها ويرضينها، لكنها لا تذعن للرضا أبداً أو تذعن إليه إذعاناً ساخطاً مغيظًا مغلوبًا فِي الغالب الأعم. كانت تحب فرحًا أشد الحب وكانت تريده ذكي القلب، سريع الحس، بليغ اللسان، بل كانت تريده فارس فرسان الحوش وزينة شبابه، ورسمت له كل شيء ليصبح عُمدة حوش الأرباب. لكنه اعتل عليها حتى أعياها فلمْ تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الرضا سبيلًا.

.. نظرت إلى السماء تطلب مِنْها العون، لكنها لمْ ترَ السماء كأنها اختفت، أو قد حدث لها حدثٌ لا تدري أعظيم هو أم وضيع، شيءٌ

ما قد أخفاها، تحسه لكنها لا تتحقق منه. كأن السماء تلوي لسانها بكلام لا تفصح فِيه ولا تبين، فتباعد طلاسمه الأمد بين الطمأنينة والأمن والرضا. ثم انجلى المنظر عنْ خيال الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل، فأربد وجهها واكتسى بمسحة عنيفةٍ مِنْ الغضب والحِنق. كانت تكرهه وتكره أمه ولا تلتمس الود عِندهما قط، وصبأ قلبها عنْ محبتهما بلا ردة.

نظرت إلى ابنها السجين وقالت تهدئ مِنْ روعة:

• ما تزعل ولا تشيل هم يا وليدي، وحياة سيدي الحسن.. ما تقعد فِي السجن سبعة أيام.. سجنك ما بطول يا وليدي..

تعلقت عيناه بعيني أمه آملًا، وسألها وقد استحال صوته الضئيل المنكسر إلى هواء خافت لا يكاد السامع يتميز حروفه إلا فِي مشقة وعناء:

• حتسوي شنو يُمه؟.. سجني ود فاطنة قدام كبار رجال الحوش.. زول فيهم قال بغم مافي.. شن حتسوي يُمه.. وأنتِ مرة.. وحدك ما معاك سند.. وما في زول في ضهرك؟

تراجعت عنْه خطوتين، ثم رسمت ابتسامة خبيثة، وقالت فِي صوتٍ شيطاني النبرة:

• ما تستهون بي أمك يا وليدي.. ياما النسوان حكمن بلاد.. صحي أنا مرة.. لكن بألف راجل.. والفي رأسي تتهز ليهو شنبات..

خبرته الناس وطبايعن.. ولفيت البلاد دي بلد بلد.. ياما مرت علي مصايب ومشاكل..

صمتت برهة، وقد مال قلبه إلى حديثها، ثم أردفت سائلة وقد لمعت عيناها بخبث عظيم:

• أنت سألت روحك.. القشير ده مرق من السجن كيف؟.. كيف هرب مِنْ السجن؟.. وكيف فك قيده؟..

أجابها فِي بلاهة:

• لا.. يمه.. ما عرفت مرق منه كيف.. فجأة!.. كده لقيناه بره السجن.. يمكن يكون في واحد ساعده..

رمقته بنظرة مغيظة وقالت:

• .. يمكن ساعدته الشواطين.. ولا الجن السُفلي.. ولا السحر الأسود.. ولا الكجور والأسياد.. ده ما سوات أوادم..

صمتت مرة أخرى ثم قالت:

• اسمع كلامي ده.. وما تكلم به زول.. حتى خوياتك ما تقولهن.. بكرة إن بقينا من أهل الدنيا.. بسافر لي خيلانك.. شان ييجوا يفكوك.. ده أول شيء.. تاني حاجة ما بخلي لي سحار في الدنيا دي ولا كجور.. ولا سفلي.. ولا بتاع شواطين ولا جن أحمر إلا جبته لي هنا.. سفرتي دي حتخليني أعمل الدايراهو بدون ما يعرفوا أولاد الأرباب الله يكفينا شرهم.. وبرضو بعيد مِن عيون ود قشيرة..

قهرته بي علي نسيب النبي.. بصد بعد يومين تلاتة.. وإن شاء الله آجي أفرحك.. يا فرح يا ود بطني..

نظر إليها بغباء، لكنها لمْ تمهله وأردفت:

• ما بطول هناك.. وبرجع ومعاي جيش عدييل.. الإنس فيه والجن فيه.. يخلصونا من فاطنة وليداته.. ومن أبوك وشره.. بصد عقبة.. وبتبقى عمدة حوش الأرباب يا جناي.. كان رضوا كان أبوا..

تبسمت فِي وجهه ثم غابت عنْ ناظريه.

(26)

لهجت الألسنة بفعل الطيب ود العُمدة إبراهيم وأحاديثه ولمْ تمل استعادته كما لمْ تمل تكرارها. أحسوا به قائدًا عظيمًا يدرك معاني القوة والعدل والتواضع والحرية والمساواة والإنصاف. وندموا أشد الندم على موافقتهم العمدة على سجنه، لكنه فاقهم كرمًا ونخوة فلمْ يعبهم وأشرك جميع مِنْ فِي الحوش فِي حكمه وهو ما لمْ يسبق إليه بشر قبله. وحسم أمر أخيه بلا انحياز أو خوف، فدفعهم هذا الإحساس إلى التحمس إليه والدعاء له بالنُجح والعودة سالمًا، وهامت به أنظار الفتيان والفتيات على السواء، وعشقته القلوب والنفوس، وهي تراه يتحامل على نفسه وأهله ويأخذهم بالجهد مِنْ أجلهم جميعًا، لا يميل إلى عصبيته ولا ينحاز إلى أخيه. يريدهم جميعًا على اختلافهم خيرًا للحوش وبرًّا به. ووقعت كلماته فِي أمر قيادة الحوش موقعًا حسنًا نقشوه فِي ضمائرهم وعقولهم وملأوا به نفوسهم.

.. اجتمع أولاد وراق فِي مجلس يخصهم فِي دار كبيرهم الشيخ عبد

الله ود وراق، الذي ابتدرهم قائلًا:

• .. لميتكم يا أولاد وراق كبار وصغار في شان أمر الطيب ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب.. شفته في الدنيا دي كتير.. وشيبتي دي ما بياض شعر بس لكن عرفته بيها الدنيا.. وعرفته ناسه جوه وبره.. ما شفته زي الطيب ود إبراهيم ود أحمد الأرباب.. وكان بتسمعوا كلامي وأنا كبيركم ما في أحسن منه عمدة لحوشنا ده التبينا فيه من جدودنا.. فيه صفات رجالة وكرم وعدل.. ما شفتها في راجل واحد تب.. فكان جاء صاد نبقيه عمدتنا إن شاء الله.. زول صبر على ظلم أبوه.. ونحن كمان صبر على ظلمنا.. وبي عقله حسب كل حاجة حتى غدر خويه بيه وبينا.. ما حاسبنا على ظلمنا ليهو.. ووقف في وش خويه ومنع عنه العمودية.. وكلكم بتعرفوا عنجصة فرح جابه من خيلانه.. وشوية عنطزة فارغه ورثها من أبيه العُمدة.. الطيب ما خلى فرح يركب فوق ضهر الحوش ويدلدل كرعيه.. وما خلا قفاه ساكت مفكوك زي كلب الحر.. حبسه في بيت أمه زي ما حبس أولادنا.. وما رماهم في السجن زي ما العمده رماهو في السجن..

قاطعه أحدهم مستفسرًا:

• .. وشن نسوي كان صد مع العمدة؟

أجابه بلا تردد:

• نطلب من العُمدة يسيب العمودية لولده الطيب ويتنازل عنها ليهو.. ولد عادل.. تقي.. بعرف الله.. وصاحب معروف.. فينا كلنا..

وكان الحال فِي دار أولاد جاد الله مغايرًا، إذ لمْ يستريحوا حتى اتفقوا على المطالبة بحقهم فِي العمودية وحكم الحوش، وسموا كبيرهم الشيخ حسان ود جاد الله عمدة جديدًا إنْ لمْ يعد العُمدة إبراهيم فِي معية ابنه الطيب خلال المدة التي اتفق عليها. وأنكروا أنْ يتولى أمرهم أي مِنْ أولاد وراق إنْ تنازل أولاد الأرباب عنْ العمودية، وكرهوا أنْ ينازعهم فِيها فرح وأخواله. وجعلوا يخططون ويرسمون ويأملون، ويتمنى بعضهم ألا يظهر العمدة مرة أخرى أو أنْ يتحققوا مِنْ موته. وحلم البعض الآخر مِنْ شيبهم وشبابهم بشراء المزيد مِنْ العبيد والإماء، وشرب الكثير مِنْ المريسة والعرقي والعسلية، والتمرغ على صدور الموسات المكاديات والفرخات والتمتع بفروجهن بلْ وبناء المزيد مِنْ الإندايات. وانشغلوا بغد أيامهم عنْ المسجونين مِنْهم.

.. وسمع ود مرسال ما فعله الطيب بأخيه.. فأطلق زغرودة عالية عذبة كتلك التي يطلقها النساء، وجعل يرقص كرقصهن وهو يصيح: «يا فارس رجال الحوش.. ألحقني».. كانت دموعه تنهمر هاربة مِنْ بين جفونه، كدموع المحبين تنسكب بلا انقطاع،

قال يحدث المومسات فِي إنداية الرضية بنت الإزيرق:

• يمين الله.. راجل يدخل علي تاني غيرو ما في..

قاطعته ست الدار الحلبية وهي تغمز بعينها لرفيقتيها ألمظ الحبشية والشامة بنت الجاز:

• تبته لي الله.. ولا سبت سوات النسوان في شان ود العُمدة؟

نظر إليها مغيظًا غاضبًا وسبها قائلًا:

• قطعيه في حشاك ياحلبية يا ملعونة.. يا أدبخانة سوق الرقيق.. يا كافي البلاء ويا حايد المحن ما تجينه البلاوي إلا مِنْ زي ديل.. حساده بس.. ما كفاك براميل العبيد البكبوها فيك كل يوم.. وحات شخودة القارح كان ما مشيتي من قدامي إلا تشوفي مني شيتن ما شفتيه قبل ده.. امشِ مشش.. يمشي بطنك.. بركة الشيخ أب ضفيرة..

ضحكن جميعًا وقد أفلحن فِي إغاظته وإغضابه.

.. وضاقت الدنيا بالرضية بنت الإزيرق.. ففارسها غائب وهي لا تعرف أين اختفى؟ أو كيف غاب؟.. وخوفها مِنْ الكجور الشيخ وشياطينه وأرواحه يكاد يقتلها، وزاد شقاؤها بما جلبته الأنباء عنْ خلاف الأخوين. كانت تحب الطيب ولمْ تكن تأبه لفرحِ لكنها تهاب أمه السُرة بنت عوج الدرب وفعلها. فهي امرأة يخَاف الشيطان مِنْها، لكنها احتاطت لذلك. وحرضت مريومة للإيقاع بعبد السُرة

وخادمها باب الله الأعرج، وإغرائه بالخمر والجنس حتى يخبرها بأدق التفاصيل التي تحدث فِي داخل بيت السُرة. فعلمت أنْ السُرة قد سافرت إلى مكانٍ ما لا يعلمه وأنها ستعود بعد يومين أو ثلاثة. أحست الرضية ببعض الراحة فقد أمرت عبيدها فِي وادي الشياطين بمراقبتها وتتبع تحركاتها قبل أنْ تخرج إلى حيث لا يعلم الناس، على أنْ لا تلحظهم وأنْ يخطروها بأي جديد يعلمونه أو أي خطرٍ يحسونه. وأمرت شيخ عبيدها بالاستعداد لأي طارئ.

وانتقلت فاطنة بنت حمد النيل ونفيسة بنت مصطفى الأرباب امرأتي العُمدة الغائب إلى دار العمدة الكبير فِي ضيافة الزوجة الكبرى الهدية بنت الشريف. يتلون القرآن وتلهج ألسنتهن بالدعاء مِنْ أجل عودة العُمدة وابنه الطيب سالمين غانمين. لمْ يستسلمن للدموع والحزن، بلْ تقبلن الأمر ثقة بالله ورجاءً فِيه، وحسنًا فِي الظن به.

.. واستسلمت تاج الملوك لرحيل الطيب الحبيب بحثًا عنْ أبيه، وزرفت مِنْ دمعها السخين الكثير، وجعلت تنظر إلى السماء سائلة عونها.

(27)

خرج الطيب إلى الصحراء باتجاه الجنوب الغربي للبحث عنْ أبيه، وتبعه مرسال يدله الطريق وهو يتأرجح بين الخوف والأمن، وبين التكلف والجد، كان يدرك أنَّ الخروج معه هذه المرة مختلف أشد الاختلاف، وأنه خروج غريب غير مكتمل إلى نهايته، فِيه شيء مِنْ الإثارة والتشويق وفِيه شهوة مخيفة للاستزادة والرغبة فِي الاستطلاع والفضول. كان يحب الطيب كابنه، لمْ يكن يرى فِيه سيدًا، بلْ كان يراه وليًا مِنْ أولياء الله وصاحب كراماتٍ عديدة، وحين أعتقه الطيب ونَعِم بالحرية، أقسم أنْ يسهر على سلامته مهما كلفه مِنْ عنتٍ وجهد. لكن الطيب يأخذه الآن إلى وادي الشياطين حيث ترك العُمدة، والموت بيد الإنس أهون ألف مرةٍ مِنْ الموت بيد إبليس وعشيرته مِنْ الشياطين والمردة.

وقف الطيب ود العُمدة إبراهيم فِجأة، وتلفت حوله ثم تبسم، وقال يسأل مرسال:

• يا عم مرسال أنت والعمدة وقفتوا هنا.. فوق المكان ده.. مو كدي؟..

أجابه وقد أصابه شيء مِنْ خوف:

• .. يعني.. ما بعيد مِنْ هنا ... هناك عند الشجرات التلاتة ديلاك.. قريب مِنْ القوز الهناك في ضهرن.. العمدة قال للحراس والمعاي .. ينتظرونا تحت.. لغاية ما أصد راجع.. بعد داك خليناهم ومشيت مع العُمدة لغاية المكان الحأوريك ليه.. بس يا سيدي أنت كيف عرفت إننا وقفنا هنا؟..

لمْ يجبه لكنه اتجه بحِصانه صوب الشجيرات الثلاث، فتبعه مرسال بحماره المكادي الضعيف. فرش الطيب مصلاته وجعل يصلي لوقتٍ طويل ويرفع يديه داعيًا، ثم يرسم رسمًا على الأرض وينتظر حتى تزروه الرياح، فيعيد رسمه مِنْ جديد، ومرسال لا يفهم مِنْ أمر الرسم شيئًا، ولكنه يثق فِي مَنْ يتبعه ثقة لا تهزها المظان، ولا تشوبها الشكوك. وكان حال الطيب وهو يبتسم تارة ويضحك أخريات ثم ينظر باتجاه ما خلف التل يستدعي دهشة مرسال ويستثيرها. لكن لا الطيب يبين ولا مرسال يستفسر. وظل الحال بينهما هكذا ساعتين أو يزيد حتى نهض الطيب آمرًا دليله بالاستمرار.

تحركا بتوجيهات مرسال، لكن مرسال أحس بشيءٍ غريب كأن رفيقه يتعمد التأخر، إنَّ حصان الطيب القوي يمكنه الإسراع أكثر،

كأنّه يستبطئه لأمرٍ ما لا يعرفه. تلفت حوله فربما يدرك السبب، لمْ يرَ شيئًا سوى ابتسامة الطيب التي لا تناسب وادي الشياطين. حدث نفسه مهمهمًا: «يمكن شان حماري الضعفان ده.. فسيدي شايل اسمه.. ما داير يتعب حماري شان كده ما بمشي بسراع ..». جر إلى رئتيه نفسًا عميقًا ثم زفره فِي بطء، واستوت ابتسامة هادئة على ثغره، وجعل يحدو ببعض الدوبيت الذي تعلمه، كان صوته رائعًا فِي وحشة مكانٍ كهذا. فجأة! سمع صوت سيده الطيب يقول:

• أقيف يا مرسال هنا.. وصد للحوش.. واتمتع بي أهلك لغاية ما أجي صادي.. إنْ شاء الله..

تسكعت الدهشة معربدة على وجه مرسال وضج فِيه العجب حتى غارت أخاديده، وتمتم قائلًا:

• أنت مستعجل مالك يا سيدي!.. قدامنا ساعة مشي.. شان نصل للمكان الخليت فيه سيدي العمدة..

ابتسم الطيب وقال مداعبًا وقد أوقف حصانه وترجل مِنْ على صهوته وهو يمسك بلجامه:

• ما تخاف علي يا عم مرسال.. حمارك ده حيموت قبال نصل.. حأعرف المكان إن شاء الله.. ما قصرته تب.. وإن شاء الله بكلم العُمدة بكل البتعملوا معاي أنت وغيرك مِنْ المحررين.. والعبيد والسراري كمان.. الله يديكم العافية..

ارتبك مرسال وارتعدت أوصاله، وأوقف حماره بعصبية ظاهرة، ثم ترجل عنْه، وقال فِي صوت خفيض:

• شن سوينا؟.. ما سوينا شيء؟.. نحن كان عتقتونا لوجه الله ولا سبتونا يانا عبيدكم.. الحرية يا ولدي ما بيهدوها للناس.. دي بقلعوها قلع..

قال وقد أسند جسمه على جذع شجرة ثم ربط حِصانه عليها، واتجه ناحيته:

• كلامك الأول ما تعيده تاني يا راجل يا عجوز.. أنت زي أبوي.. نسيت أنت ربيتني كيف.. باقي نسيت.. بس ما ده الأنا عايز أقوله ولا الأنا قاصده.. أنا عارف أنتو بتعملوا في شنو.. وعارف إنك وأصحابك القاعدين تحرسوني وتجيبوا لي الأكل من وراء السجانين.. وعارف إنكم بتتبادلوا الحراسة علي شان ما في واحد يغدر بي.. وعارف إنكم بتدبروا في عمل كبير شان تبقوا أحرارًا.. وخابر إنكم بتدوروا ترجعوا لأهلكم.. قول لي ناسك ما يستعجلوا.. وأنا معاكم.. شان الحرية بقلعوها بالدم.. ما بيدوها هدية.. ولما أصد إن شاء الله نشوف البسويها الله شنو في عباده..

لمْ يجبه مرسال فقد سبقته عيناه بدموعها السخينة، لكنه ربت على كتفه، ومسح دموعه وقال له:

• يا راجل يا عجوز وفر دموعك!.. واسمع كويس لكلامي ده..

امشِ الحوش.. وخلي عينك في رأسك.. مفتحة قدر فنجان القهوة.. ولما تنوم.. نوم بي عين مفتحة وعين مغمضة.. ما تعملوا حاجة كان ما شاورتوا أمكم الهدية بنت الشريف.. قرب منها وما تخلي أي زول يسمع الكلام البيناتكم.. فهمتني يا عم مرسال!

هدأ قليلًا، ورسم ابتسامة وقورة، ومسح بقية دموعه، وسأله:

• أمنا عارفة نحن شن بنسوي؟

أجابه مبتسمًا:

• أيوه.. وهسه يلا امشِ.. صد للحوش.. وأنا حأعرف دربي إنْ شاء الله..

امتطى مرسال دابته المكادية مرة أخرى بعد أنْ ودع رفيقه ورفع يديه إلى السماء داعيًا الله أنْ يعيده مرة أخرى سالمًا غانمًا.

(28)

فرش الطيب فروةً لصلاته، واقتعد عليها يراقب مرسال وهو يبتعد قليلًا قليلًا، حتى ابتلعه الليل، ثم أخرج مسبحته مِنْ جيب جلبابه ووضعها أمامه، ونهض ثانية، واستقبل القبلة وكبر وصلى ركعتين، ثم اقتعد ثانية على فروته وجعل يدعو الله ويسبح باسمه ويقرأ أورادًا لا يعرف أحدٌ سرها. كان ينهض بين الفينة والفينة، وينظر فِي اتجاهات مختلفة، مشيرًا إليها باليد التي تحمل المسبحة، باحثًا عنْ شيءٍ ما فِي ظلمة الليل البهيم. وكان وادي الشياطين موحشًا ومخيفًا، لكن الطيب لا يأبه بما يظهره مِنْ وحشة أو يشيعه مِنْ خوف.

نهض مرة أخرى وجعل يجمع بعض الأغصان الجافة، وأخذ حجرين وحكهما ليشعل نارًا تضيء له المكان. نجح بعد عدة محاولات، وانطلقت ألسنة النار هادئة ترسل بعض الضوء. حمد الله على نعمة النور والضياء، ورفع بصره إلى السماء ثم أدار وجهه إلى يمينه وصاح مناديًا:

ـ ابقي مارقة يا الرضية ..

لمْ تجبه الرضية، كأنها تريد أنْ تتدثر بالليل أو تنكمش بين ظلماته، فأعاد قائلًا:

• اظهري يا الرضية.. خابر إنك ماشية ورانا من ساعة مرقنا من الحوش أنا ومرسال.. تعالي وليك الأمان..

ظهر شبح الرضية فِي الظلام، اقتربت مِنْ مكان جلوسه بخطواتٍ خائفة. بدت تعابير وجهها حين اقتربت مِنْ مرمى ضوء النار تضج بأخلاطٍ مِنْ الدهشة والخوف والاضطراب. دنت مِنْ مجلسه أكثر، نظرت إليه وهي لا تدري كيف كشف أمرها، ومنذ متى كان ذلك، لكنه كان هادئ البال باسم الثغر، يتلقاها بالرضا والقبول. قال لها:

• الزمي الجابرة يالرضية.. أنت خايفة ليه.. زي الشفتي ليك شيطان؟..

صمت برهة وهو يشيع الابتسام فِي المكان، ثم أردف:

• المخليك قاطعة المسافة دي كلها فِي قفاي شنو.. شقيانة فوق كم.. دايره شنو من مشيك وراي؟

نظرت إليه وقد انتقل إليها بعض هدوئه، وقالت:

•ما كنت بقدر أخليك براك بعد عرفته إنك مارق شان تفتش عن أبوك العُمدة.. أنا آخر زولة شافت العُمدة مِنْ ناس حوش الأرباب.. وشان كده كان لازم أمشي وراك.. أنت الوحيد البتقدر ترجع العُمدة للحوش تاني.. لكن!.. أنت عرفت إني ماشية وراك كيف؟

لمْ يجبها بل أشاح بوجهه بعيدًا فأمسكت عنْ الكلام وقد تحشرج صوتها وعانى مِنْ غصة واضحة، ثم تمتمت بصوت خفيضٍ باكٍ قائلة:

• إن شاء تلاقيه.. وتجو صادين سوا؟

قطب جبينه وهو يطالع وجهها وقد تغيرت ملامحه مِنْ الهدوء السمح إلى الاهتمام والتركيز، وسألها:

• وين شفتِي العُمدة آخر مرة؟.. وليه أنت آخر واحدة شافته من ناس الحوش؟

نظرت إليه كأنها ترجوه ألا يضغط عليها أكثر أو كأنها تأمل ألا يفشى سرها، لكن الوقت غير مناسب لمثل هذه الرجاء ولا ذاك الأمل ولا بُد مِنْ ما ليس مِنْه بد. قالت:

• .. كان معاي فِي فريق العبيد.. أنا.. أنا..

لمْ تستطع أنْ تكمل، انحدرت مِنْها دموع غزار. نظر إليها بعطف دون أنْ ينطق فترة غير قليلة، ثم سألها بهدوء:

• كملي.. كملي.. وما تدسي عليّ حاجة..

رفعت إليه عينيها الدامعتين وأكملت:

• أنا سريته.. وأنا.. أنا سره..

صمتت مرة أخرى لجر أنفاسها، ثم أكملت:

• .. وفريق العبيد ما بعيد من هنا.. قريب.. تحت جبل إبليس.. كان غربنا شوية كدي بنصل.. والفريق كله بالفيهو من ناس وخيل

وإبل وضأن وبقر حق أبيك العُمدة..

.. ومضت تحكي له عنْ سر علاقتها بأبيه، وهو ينظر إليها دهشًا وعجبًا، ويعيد ما تقوله مرة ومرة ومرة، ويسأل نفسه كيف تورط أبوه فِي مثل علاقة كهذه؟.. لمْ يكن فِي حاجةٍ إليها.. كان يمكن أن يعاشرها كسرية أو مُلك يمين بحسب اعتقاده، لكنه فضل أنْ يعاشرها كمحظية تدير أعمالًا لا تليق به كعُمدة لحوش الأرباب. لمْ يرد أنْ يصدق أنْ العُمدة ود الأرباب يدير الإنداية فِي الخفاء ويبيع الناس العرقي والمريسة والعسلية وفروج العاهرات. حتى العاهرات هن مُلك يمينه، كيف له أنْ يبيع للناس فروج إمائه وجواريه؟ وكيف لأعيان مِنْ كبار الحوش أنْ يشاركوه هذا الفجور؟ وكيف لهم أنْ يبيعوا لأهلهم وإخوانهم وأبنائهم وعبيدهم وإمائهم العُهر والسُكر والمجون؟

سألها مستفسرًا بعد أنْ جر نفسًا عميقًا إلى رئتيه ثم زفره فِي هدوء:

• وأبوي عمل كده ليه؟.. وليه اختارك أنت دون خلق الله من رقيقه وخدمه؟.. ولي سواله فريق للعبيد وإنداية وهو عنده الحوش كله؟

أجابته باستحياء:

• بدور يمسك كل الحوش في إيده خاصة الرجال الكبار.. وهو عارف سر كل رجال الحوش.. بنى فريق العبيد ده شان حاجتين.. الحاجة الأولى.. يعمل ليه جيش ما في زول يعرفه ولا يعرف حده.. يقدر يسند عليه ضهره لمن يحتاجه.. ولما تشوف الفريق حتعرف كيف

عبيده ديل أقوياء ونقاوة.. أبوك فارس عينه تعرف تعزل الرجال كويس جدًّا.. والحاجة التانية كان بدور مكان يستقبل فيه الخدم والفريخات يفحصهم ويفحصن شوية شوية.. يلم شوية منهم لخدمه.. وشوية للإنداية.. وشوية يبيعه مرة تانية للنخاسين.. بس بعيد عن فريق العبيد.. بدون ما زول يعرف جَنْ من وين..

صمتت هنيهة وهو يتابعها باهتمامٍ بالغ كأنه يحثها على الاستمرار، فأردفت كأنها تدافع عنْ نفسها:

• .. سألتني ليه هو اختارني أنا.. معليش يا ود سيدي.. الكلام الحأقوله ليك جايز يكون صعبًا عليك لأنك جنى عرب.. العُمدة بريدني ريدة ما رادها لأي واحدة من نسوانه.. حتى الأم الكبيرة..

حدجها بنظرة لمْ تستطع تفسيرها، لكنها لمْ تأبه لها كأنها قد تنمرت فجأة واستمرت تقول:

• .. وأنا قبلت أكون له سرية زي ما أنت شايف.. وصاحبة إنداية قدام الناس.. أقيف فيها وأشوف معاها أحوال الناس.. أبوك راجل قوي رغم ريدته لي بس عُمره ما قال لي بدورك.. أنت طبعًا بتعرفه كويس.. راجل في مكانته ما كان ممكن يعمل حساب الحريم.. كان حرة ولا سرية.. وأنا رضيت بقسمتي معاه.. لأني ما شايفة راجل زيه.. ورضيت كمان بالبديني ليه كتير ولا شوية.. يجيني في السر.. ويمرق مني في السر..

صمتت مرة أخرى، وهو يسمعها بصبرٍ وجلد، وتابعت:

• .. ما في زول خابر الما بيني وبين العُمدة غيرك أنت هسة.. مرسال هو الرسول بينا.. بس هو ما خابر حاجة .... العُمدة ما برسله كلو.. كلو.. وأنا برسله لما يكون في حاجة ضرورية.. شان كده خلي البيني وبين أبوك سر ما في واحد غيرك يعرفه.. وأنا لو عارفة ألاقي كيف ما كان ممكن أكلمك..

رسم ابتسامة ما، لكنها كانت كافية لتشجيعها على الاستمرار، وكرت تعيد ما قالته أول حديثها إليه:

• .. يا وليدي أنت الوحيد البتقدر ترجع أبوك إنْ شاء الله..

قطب جبينه وسألها مستفسرًا:

• لي أنا بالذات؟.. لي ما فرح أو أي زول تاني؟

أجابته وقد أمنت قليلًا:

• شان أنت الوحيد البتقدر تقيف قدام الكجور الشيخ..

عربدت تعابير الدهشة والعجب والاضطراب على محياه، وطفقت تحكي له عنْ سر الكجور الشيخ الذي أتى به العُمدة يوم ولادته، وكيف أنه كَجَّرَه فلمْ يعد باستطاعة أحدٍ أيًا كان أنْ يؤذيه، وكيف أنَّ العُمدة كان يخاف عليه مِنْ السُرة بنت عوج الدرب، وجعلت تحكي له أسرارًا لمْ يلمّ بها مِنْ قبل. كان يستمع لها فِي اهتمامٍ بالغ وهو لا يدري، هلْ يصدق كل ما يسمعه.. أو ينكره؟

(29)

وصلت السُرة بنت عوج الدرب سرًّا إلى ديار أهلها فِي الجهة الشرقية مِنْ النيل والتي تبعد مسيرة يوم على ظهر الدواب عنْ حوش الأرباب، وقد تأبطت شرًّا بالحوش وأهله، ومنظر ابنها المحبوس فِي دارها لا يبارح لها مخيلة ولا يغادر عنها خاطرة. جاءتهم وهي تحمل فِي معيتها كثيرًا مِنْ الأسى والألمْ، وتحمل معهما كرهًا وحنقًا لا ينتهيان ولا يبرآن. كانت تدرك أنَّ مهمتها صعبة لذا عمدت ألا تلتقي الرجال مِنْهم إلا بعد أنْ تفرغ ما تريد على أسماع شقيقاتها خديجة المكناة بأم حقين، وسعاد الملقبة بالهِويد، والرحمة الملقبة بالدعكون، وسالمة المكناة بأم رخام، وبعدهن تحدث أباها العمدة عوج الدرب، ومن ثم تلقيه على آذان أشقائها الرجال عبد الرحمن الشقيق الأكبر، وعمسيب الشقيق الأوسط، وعكاشة الشقيق الأصغر. كانت تعلم أنَّ أصعب اللحظات ستأتي فِي مواجهة شقيقها الأكبر عبد الرحمن، فهو رجل صعب المراس، لا يلين قلبه إلى أمر النساء حين يتعلق

الأمر بحكم الرجال، وهو يحب زوجها العمدة إبراهيم ود الأرباب ويحترمه، ولا يرضى فِيه سوءًا وإنْ جاء مِنْ شقيقته الوسطى أحب أخواته إليه، كما أنَّ أباها لا يرد له رأيًا ولا يعيد له نصيحة. لمْ تكن تُعنى كثيرًا بشقيقها الأوسط عمسيب وهي تعلم أنه لنْ يخرج عنْ طوع عبد الرحمن، بينما لمْ تهب أمر عكاشة نديد ابنها وصديقه وحبيبه.

.. دفعت بطرف الثوب الذي يغطي الرأس إلى الخلف بلا اعتناء فانكشفت «مسائر» شعرها الطويلة المهملة.. وهي تحاول أنْ تهرب بعينيها بعيدًا عنْ عيني شقيقتها الكبرى خديجة أم حقين.. والأخت الكبرى لا تمسك نظراتها الفاحصة عنْها.. والسُرة تجتهد فِي الهروب ما شاء الاجتهاد لها أنْ تفعل.. وشقيقاتها الهويد والدعكون وأم رخام يحتفين بها احتفاء الشقيقة بالشقيقة فانشغلت بهن فارة مِنْ أم حقين.. لكن ذلك لمْ يدم طويلًا.. سألتها قائلة:

• شن جابك يا السُرة يا بنت أبوي؟..

شهقت أم رخام شهقة مستنكرة، وبدا غضبها واضحًا وهي تسمع سؤال أم حقين فتنكره أشد الإنكار، وتبادلت الهويد والدعكون النظرات بينهما وهما يتأرجحان بين الإنكار والدهشة. ردت أم رخام عنْ السُرة قائلة:

• جات تشوف أبوها وأهله.. جات تزورنا يا أم حقين.. المفروض نرحب بيها.. ما مشتاقة ليها يعني.. دي أم فرح يا أختي..

كمان بيسألوها جيتي لي شنو كمان.. و..

نظرت إليها أم حقين نظرة تطاير الشرر مِنْها حتى ارتبكت.. ثم نهضت مِنْ مكانها وقد اغرورقت عيناها.. وأرادت أنْ تخرج إلى خارج الغرفة لكنها توقفت وهي تسمع صوت شقيقتها الكبرى تقول وكأنها تعنيها بالحديث:

• «ما بالحيل على لحم السخيل.. هو باطل وسيده بكاتل».. ما شايفة داخلة علينا كيف؟.. مسايرة ما مسرحاها.. وشَعَرَهْا منكش.. وجاية قاطعة المسافة دي كلها بلا حنة.. متل النسوان.. ناسية إنها مرة عمدة.. وما مرة عمدة بس.. وكمان بنت عمدة.. بلا دُخان.. ولا ممسحة.. جاية بعجاج كرعيها.. مكندكة ومقشفة.. وملفحة بي توب زي هدمة الخدم.. وعيون طايرة تتلفت زي الساكيها زول.. مالك يا بت؟.. جاي هنا مالك؟.. مسوية شنو وداساهو يا بنت عوج الدرب؟..

استرخى الحزن فِي عينيها استرخاء المقيم، كأنه سحاب عكر صفو سمائها فِي نهارٍ أو ليلٍ، وانفرجت شفتاها عنْ همهمةٍ قصيرة غير مفهومة، أعقبتها تنهيدة طويلة، تكشف عنْ نفسٍ ودعت الاطمئنان وراحة البال، وسعت دؤوبةً إلى التعاسة والعناء، وتعلقت بحبال البؤس والشقاء، وعشقت الألم والعذاب. جفت الدموع عنْ عينيها فلمْ تستطع البكاء بغير دموع. نهضت أم رخام مِنْ مجلسها،

وجلست إلى جوارها وقد أصابها الهلع، سألتها فِي ذهول:

• مالك يا السُرة يا أختي؟.. في شيتن شاغلك؟..

لمْ تحرك السُرة ساكنًا ولمْ تجبها، لكنها جعلت تفرك فِي يديها صامتة، ولمْ يمنع خفوت الضوء مجالساتها مِنْ رؤية شفتيها الراجفتين ينطبقان حينًا ويفترقان آخر، وأطرافها تختلج كيف شاءت فِي اضطراب واجف. وانتهزت أم حقين لحظة قصيرة سيطر فِيها الفضول عليهن، وسألتها بحزم:

• مالك ما دايرة تتكلمي؟.. جايانه مطلقة ولا شنو؟ ما فاضل ليك إلا حبل واحد..

.. لمْ تجد السُرة ما ترد به على شقيقتها أم حقين، ولا أنْ تفلت مِنْ حصارها لها، ولا أنْ تحد مِنْ ثورتها الهائجة، غير أنْ تبوح بأسباب زيارتها الطارئة. حكت لهن عنْ الطيب ود فاطنة بنت العُمدة حمد النيل ود سعد، وعنْ رأيه فِي أمر العبيد والخدم. وأسرفت فِي تضخيم مشكلته مع أبيه العُمده حتى إنَّه سجنه، وكيف أنَّ العُمدة نفسه خرج ولمْ يعد حتى الآن، وأنَّ السجين استغل غياب أبيه فسارع للانتقام مِنْ ابنها فرح وحبسه فِي بيتها، وذهب للبحث عنْ الغائب كما يدعي، وترك ابنها تحت حراسة أعمامه وبعض العبيد الأشداء. وأخبرتهن بأنها هنا لكي يساعدنها فِي إقناع أبيها وإخوتها للوقوف مع بكرها فرح وتحريره وتمكينه مِنْ العمودية فِي حال عدم عودة

الغائب أو موته.

سمعنها بمشاعرٍ مختلفة، فالهويد والدعكون وأم رخام استقبلن حديثها بشيءٍ مِنْ القبول والدعة، فهنْ يرون أنَّ أختهن على حق، وأنَّ ما يقوله الطيب ليس على حق لا فِي فتواه عنْ العبيد والخدم، ولا فِي تجنيه على أخيه البكر وابن أختهن. أما أم حقين فهي ترى غير ما يرين، ولا تحس بهذا القبول ولا بتلك الدعة، هي لا توافق الطيب فيما ذهب إليه لكنها لا تنكره ولا ترى ضرورة لذلك، لكنه الضُر الذي يحرك شقيقتها ويجعلها تكرهه، والطمع الذي يحركها لتستولى على العُمدة إبراهيم ود الأرباب وحوش الأرباب جميعًا، وهي تريد استخدام أبيها وإخوانها فِي هذه العداوة لأجل أطماعها ولتتويج ابنها البكر فرح عمدة رغم أنه لا هم له سوى الخمر وفروج النساء.

(30)

تمنت السُرة بنت عوج الدرب على أخيها البكر أنْ يصنع مِنْ أحلامها وقائع غير مرتبة وغير منطقية. غرقت فِي نزف المفردات فلمْ تعرف إنْ كانت قد أحسنت اختيار كلماتها ففهمها قصدًا ومعنًى، أم أنَّها فشلت فلا هو فهمها ولا أراد. مبرراتها الكثيرة لمْ تدفعه ليلبس روح شقيقته الوسطى، ولا أنْ يعينها على وضع حملها الذي مِنْ أجله جاءت. كانت تريد أن تصل به إلى أمر يخالف طبيعته التي تميل كل الميل إلى صاحبه العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب.. وتريد لنهجه أنْ ينحرف باتجاه ابنها فرح ليزين رأسه بتاج عُمودية حوش الأرباب، لكن الأمر كان مستحيلًا. وحين أعيتها الحيلة، كشفت عنْ دخائلها مرةً واحدة، فقالت:

• شفته السواه ود فاطنة.. غدر بي ود أختك شان ما يبقى العُمدة.. وسجنه في بيته قدام البسوى والما بسوى.. راجل واحد مِنْ رجال الحوش قاله بغم ما في.. فرح ولدك مرمي مسجون في بيته.. مربوط

زي العبيد.. يرضيك الكلام ده يا ود أبوي.. يا زينة أولاد عوج الدرب..

لمْ يجبها لكنه ظل ينظر إليها متفحصًا، يريد سبر أغوارها. كان يدرك أنَّ نفسها أكرم عليها مِنْ أنْ تذعن إلى ما أراده الطيب ود إبراهيم ود أحمد الأرباب، فهو وإنْ كان ابن ضرتها أو ابن زوجها العُمدة.. إلا أنها تراه رجلًا مِنْ عامة الناس، وإنْ تعلم فِي بلاد أولاد الريف، لكنه لمْ يوحَ إليه ولمْ يأته خبر السماء. عاف قلبها وأبى عقلها أن تكون العُمودية فِي بيت فاطنة لا بيتها، فيهيأ لها ولولدها مِنْ السلطان ما لا تستطيع احتماله. أخذتها المحنة أخذ السوار للمعصم، فلمْ تعد تدري أتعلم ما تقول أم تهزي بما تقول. وهي لا تريد أنْ تقتصر المحنة عليها وابنها وأخواته، بل تريد أنْ تحشر أباها وإخوانها وأخواتها وبقية أهلها فيها حشرًا ولا غرابة، فهو يعرفها جيدًا منذ طفولتها وصباها، حين تضع أمرًا نصب أعينها فدونه خرط القتاد. أدرك أنَّ نفسها قد اضطربت وضاقت بغياب العُمدة المفاجئ، وأنَّها تستبق الأحداث لتتوج ابنها عُمدة لحوش أبيه لا يصرفها عنْ ذلك شيء، مثلها مثل بقية النساء تتأثر نفسها بما تتأثر به نفوسهن، وتخضع طبيعتها لما يخضعن له مِنْ كل ما يعرض لهن مِنْ فنون الكيد، فإنَّ كيدهن عظيم. وهي بعد ذلك رواح بين الغضب والحنق، والحزن والأسى، والألم والعذاب، والوهن والضعف.

.. شعرت بتردد أخيها البكر فقالت تدفعه للحديث:

• شن قولك يا كبير أولاد عوج الدرب؟.. حتخلى ود أختك مسجون في بيت أبوه بعد ما غدر بيه ود فاطنة؟.. جيت أتحامى بيكم.. ياكم عزوتي في الدنيا دي.. وولدي في ذمتك يا أخوي.. تاخد ليه حقه.. وترجعه عمدة غصب.. كان أبوه حي ولا ميت..

انتهرها قائلًا وقد بلغ الغضب منه مبلغًا:

• أنت جنيتي يا ولية.. كمان دايراني أدخل بيت العُمدة إبراهيم.. شان أكاتل أهله فِي شان وليدك الخايب.. وليدك الفاسد.. كان هو راجل بالصح ما كان نام في عنقريبه ليلة واحدة وأبوه ما معروف حي ولا ميت.. أنت فاكرة أنا قاعد هنا ما جايب خبره.. ولد ني.. رأسه ما فيه غير النسوان والمريسة والسكر ليله ونهاره.. يومه كله مقضيه في الإنداية عند الرضية بنت الإزيرق.. دايراه يبقى العُمدة فِي شان شنو..

ضربت على صدرها وهي تحس بخيبة أمل لا يمكن احتمالها، وجعلت تبكي بصوتٍ عالٍ وهي تكيل التراب على رأسها وتقول:

• عارفاك من زمان ما بتدور فرح.. بتكرهه زي جوع بطنك.. سوالك شنو شان ما تقيف معاه في محنته.. أنت ما بتدورنا شان العُمدة صاحبك.. إلا أنا ما دايره منك حاجة.. أنا بنت العُمدة عوج الدرب.. الأسد النتر.. وتمساح الدميرة.. وهو حيجيب لي حقي.. و..

صفعها صفعة ألقت بها أرضًا، وقال مهددًا:

• حرم لو راجلك هنا إلا كان خليته يطلقك.. أنت مرة أنتِ.. أنتِ بنت العُمدة عوج الدرب.. راجلك ما معروف وين.. وجايه شان تخلينا نقيف مع ولدك الصعلوق ده.. علي بالطلاق تفتحي خشمك تاني إلا تشوفي مني الشافوه رقيق العُمدة.. وعلي بالطلاق حدك معانا هنا الليلة دي بس.. ومن ما تصبح تشيلي زوادتك وتمشي تحرسي راجلك لغاية ما نعرف شن حاصلو.. وفرح ما ببقى عمدة شان هو ما راجل.. أكان راجل بالصح ما كان ده حاله.. يله قومي قامك بلا يخمك..

حاولت أن تقول شيئًا إلا أنها سمعت صوت أبيها يقول لها:

• اسمعي كلام أخوك يا بتي.. وعاودي لي بيتك.. وما ترجعي تاني هنا إلا نعرف مصير العُمدة إبراهيم.. وولدك مو نافع.. قوليله جدك قال ليك ما عافي منك.. وود فاطنة ضرتك أنفع منه ألف مرة.. راجل من ضهر راجل.. الله يكفيك يا بتي شر الولده الفاسدة..

كانت نبرات صوته واضحة وحاسمة فانسحبت إلى داخل الدار دون أنْ تنبس ببنت شفة.

لمْ تحاور أباها ولمْ تحاج أخاها الأكبر مرة أخرى، لكنها غادرت ديار أهلها حين أشرقت شمس الغد، بقلب مليء بالبغض والضغينة والحقد والحسد والموجدة.

(31)

أخلص مرسال للفرح بخروج سيده الطيب ود إبراهيم ود أحمد الأرباب مِنْ السجن كما يفرح العبيد والإماء أمثاله، وأفرق لغيابه وغياب سيده العُمدة إبراهيم كما يفرق الأقنان والجواري أيضًا.
.. وتأثر ورهطه بما يحدث فِي الحوش وما رشح على لسان الصادق ود محمد ود جاد الله مِنْ حديث العفاريت التي خنقت العمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب وقتلته ثم دفعت بجثته إلى الضباع ومزقت جسده إربًا إربًا.. فأصابهم بشيءٍ مِنْ الأسى وشيءٍ مِنْ الحيرة.. ولا غرابة وهم يدينون له بالولاء وإنْ منع عنهم حريتهم التي ولدوا بها.. والتمسوا إلى هذا الولاء ألوانًا مِنْ الحجج أكثروا فيها التكلف والتزيد.. وانقسموا إلى فريقين. فريق مصدق وآخر مكذب لما رشح مِنْ أمر مقتل العُمدة.. فأما المصدقون فكانوا يزعمون أن غياب العمدة دون أنْ يعرف أحد أين اختفى يجزم بمقتله وأسرفوا فِي تصديقهم حتى أرهقهم التصديق.. وأما المكذبون فيزعمون أنَّ

فروسية العُمدة لا تهزمها العفاريت ولا تلوك لحومها الضباع.. وأسرفوا أنَّه وإنْ صح ما رشح فأين هي جثة العُمدة أو ما تبقى منها.. ولمْ يكتفِ الفريقان بحججهما وإنَّما تعالت أصواتهما حتى تجاوزت القصد، ولو استطاعا لتشابكت الأيدي بدلًا مِنْ الأصوات..

.. صدَّق باب الله الأعرج ما رشح مِنْ أخبار مقتل العُمدة.. لمْ يبد تحمسًا لعودته.. كان واضحًا أنَّ الرجل متأثرٌ بما يقال فِي بيت السُرة بنت عوج الدرب.. وكان يمشي بين الرقيق والإماء بما يسمعه هناك.. لمْ يخفِ مشاعره الساخطة على الطيب ود العُمدة إبراهيم لسجنه لسيده فرح.. وكان أغلب فريق المصدقين مِنْ عبيد السُرة بنت عوج الدرب وأولادها.. وعبيد أولاد جاد الله بينما كان أغلب المكذبين مِنْ عبيد الأم الكبري والأم فاطنة بنت حمد النيل والأم الصغرى.. وأولادهما.. وعبيد أولاد وراق.. وعبيد وإماء الإنداية..

.. وكان مرسال بين فريق المكذبين.. فهو يعرف العُمدة معرفة وثيقة، تمكنه مِنْ تقدير قوته أحق التقدير.. فرجل مثله لا يمكن أنْ تخنقه العفاريت ولا أنْ تمزقه الضباع.. وهو آخر مِنْ رآه مِنْ أهل الحوش وقد كان فِي أفضل حالات قوته ولولا سجنه لولده الطيب لما أمكن لأحد لومه.. لكن الحيرة تمسك بتلابيبه، فهو لا يعرف أين اختفى الرجل ولا كيف اختفى.. ولا حتى إلى أين كان يقصد.. حتى الطيب أمره أنْ يعود دون أنْ يكمل معه طريق البحث عنْ

العُمدة ..

..التقى مرسال بباب الله الأعرج تحت شجرة السدر فيْ سوق الثلاثاء، فسلم عليه دون أنْ يجلس بجانبه.. وجلس بجانب أحد رفاقه يهمس له بشيءٍ ما.. مما أثار حفيظة باب الله.. وبدا عليه الضيق مِنْ أثر هذا التجاهل.. صاح كأنه يريد أنْ يعلن تواجده:

• سمعتوا يا جماعة الخير بالشياطين الراكبة سيدي الطيب ود العُمدة.. والله الدنيا دي غريبة.. هسي كلام زي ده يصدقوا كيف.. حرم سيدي الطيب يخوف إبليس ذاته.. ده سجن أخاه الكبير.. شياطين شنو البتركبه.. وحات سيدي الحسن.. يخت الشيطان تحت كراعه تاني ما يفرفر بمليم..

سمع مرسال صياح أرباب الأعرج وأدرك أنَّ فِي داخله شيئًا ما يريد قوله.. وأنَّ وراء هذا الكلام الساخر ما وراءه.. لذا عليه أنْ يأخذه باللين حتى يستحلب كل ما بجوفه مِنْ أخبار.. فوجوده الدائم فِي دار السُرة بنت عوج الدرب وصدره الذي لا يحفظ سرًّا ولسانه المنفلت يجعلوا منه مصدرًا مهمًا مِنْ مصادر المعلومات.. لكنه قرر أنْ يستفزه بالتجاهل أولًا، فلمْ يرد عليه، فزاد حنقه وغيظه وصرخ ثانية:

• .. إلا سيدي الطيب بجيب خبر أبونا العمدة.. مِنْ بطن المرافعين بجيبه.. ما زول كجور.. عات كان ما زول كجور يسجن

سيدي فرح.. أخوه الكبير.. وراجل واحد في الحوش كله ما يقول عوووووك.. عليكم الله دي ما سوات كجور.. في زول قبال ده سواها.. كجر الكبار والصغار..

تبسم مرسال وقد أدرك مبتغاه.. لكنه أصر على تجاهله.. حتى يسيطر عليه.. لمْ يعجب الحال باب الله الأعرج فقال:

• .. غايتو أمي السُرة قاعداله فوق راي.. في شيتن ماني خابره فوق رأسه.. ليها أسبوع ما مرقت مِنْ أوضته الكبيرة.. حتى فرح ما شافته إلا نهار أمس.. تعاين ليها في عيونه تحسهن يبقن زي جمر الفرن.. حاجة ما قادر أوصفها.. الله يصبرها علي سجن ولدها.. كاسر نفسها.. لكنها ما قادرة تسوي حاجة.. إلا قاعدة تسوي شنو في الأوضة.. ما خبرته..

أحس مرسال باستواء حال الرجل.. فقرر التدخل حتى لا يزيد في حديثه فيكشف أسرارًا لا يريد للمجتمعين تحت شجرة السدر أنْ يسمعوها.. فقال له مداعبًا:

• .. مالك تهضرب يا باب الله براك .. باين عليك طولت مِنْ مريومة.. وخندريسة القوي.. ما تقوم يلاكاه.. ولا شايفلك شوفتن تانية..

افترجت شفتا باب الله الأعرج عنْ ابتسامة معربدة حين أحس باهتمام صاحبه وسمع باسم مريومة والخندريس القوي المُسكر..

فقال وهو ينفخ نفسه:

• .. والله طولت يا مرسال يا أخوي.. إلا مفلس فلسن يصعب على الكافر.. أكان بتعزمني بمشي.. مالي ما بمشي.. في ضكر بيابه مريومة.. وشراب العرقي القوي.. يا أخي إنداية الرضية دي جنة بس.. تركب في النسوان وتمص فِي العرقي والعسلية والمريسة.. الله يخليها لينه.. مرة ولا ألف راجل..

أجابه ضاحكًا:

• حكايتك شنو يا باب الله.. السنة كلها مفلس.. القروش دي ما بتطلعها تب.. تموت وتخليها وراك.. لكن يا أخوي ما في مشكلة خليها علي المرة دي.. إن شاء الله تعزمني يوم قبل ما أموت..

ضحك وأردف:

• إلا خايفك تموت أنت كان عزمتني.. قوم أرح.. ما تعَصِر علينا الواطة ونحن في سوق الثلاثاء ..

(32)

عادت السُرة بنت عوج الدرب إلى دارها وقلبها لمْ يبرأ مِنْ الضِّغن على الطيب، وعلى أمه فاطنة بنت حمد النيل وهي تشعر بتعاظم سلطانهما على أهل حوش الأرباب، وعلى زوجها المفقود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب، وشقيقها عبد الرحمن الذي أجبرها على الرجوع دون سند منه أو مِنْ أبيها العُمدة عوج الدرب. كان قلبها مشبعًا بالحقد والحسد والموجدة، ولمْ يستطع النسيان أنْ يصنع بذاكرتها ما يصنعه بذاكرة النسائين، وقد سجلت صورة أخيها عبد الرحمن وهو يصفعها تلك الصفعة التي أسقطتها، وذلك الكلام القاسي الذي قاله بحقها وحق ابنها فرح، واختياره الوقوف إلى جانب زوجها المفقود. وكان أنْ أفسدت هذه الذاكرة التي لا تنسى عليها حياتها واضطرتها إلى خصومات لا تنتهي فثقل عليها أمر دنياها.

.. كانت الظروف حولها شديدة الحرج وكل شيءٍ فيها مضطرب شديد الاضطراب. يلح عليها الخطر العظيم، لكنها لمْ تزعن لإلحاحه، فلمْ تكد شمس اليوم التالي حتى أفضت لشقيقها الأصغر عكاشة،

نديد ابنها وصديقه وحبيبه، بمكنون صدرها وأسرت له بما تريد. واستثارت مشاعره وهي تعلم مدى حبه لابنها فرح. واتفقا على أنْ ينكلا بالمتسببين فِي سجنه تنكيلًا يرهبهم ويمنعهم مِنْ أنْ يعودوا إلى مثل ما اقترفوا مِنْ الإثم وأنْ ينصبا فرحًا عُمدة على حوش الأرباب سواء عاد أبوه أو لمْ يعد.

وأخذ عكاشة اتفاقه مع شقيقته السُرة مأخذ الجد، وتهيأ للأمر فجمع أصحابه المقربين وأسر لهم برغبته فِي غزو حوش الأرباب لأجل تحرير عمدتها المأمول فرح ود إبراهيم ود أحمد الأرباب وابن شقيقته السُرة، والمسجون غدرًا بأمر أخيه غير الشقيق الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل الطامع فِي العُمودية بسبب غياب أبيه، كما جمع جيشًا مِنْ عبيدهم الأشداء القادرين على «الدواس». وضرب على تحركاتهم سياجًا مِنْ السرية الصارمة مشيعًا أنهم ذاهبون فِي رحلة للقنص والصيد فِي البوادي القريبة فهذا موسم الغزلان وغيرها مِنْ الفرائس المرغوبة مِنْ الطيور والدواب. واستعد وجميع صحبه وعبيدهم بجدٍ إلا ابن عمه حمدان ود عبد الله الذي كان يود أنْ يترووا ويتأكدوا مِنْ صحة ما نقلته السُرة، إلا أنّ عكاشة ألح عليه فِي الخروج. لمْ يفل تردد حمدان مِنْ عزمهم، وإنما ثبتوا له وأقنعوه بضرورة الخروج معهم لنصرة فرح.

.. دخلت السُرة على ابنها فرح فهالها حاله مِنْ الثبات للمحنة القاسية، وشعرت بما يملأ نفسه مِنْ التردد والشك والوهن والاضطراب. وما إن

رآها حتى ثارت نفسه ثورة شديدة وعنيفة، وبلغ منه الغضب والحنق منتهاهما، وسالت دموعه بلا انقطاع وقد انكسرت نفسه وجرح كبرياؤه بسبب هذا السجن اللعين. قالت تحاول أنْ تهدئ مِنْ روعة:

• أبشر يا وليدي.. ما تخاف.. أخوالك الفوارس جايين يلحقوك.. فوق سروج خيلهم وداقين نحاسهم.. اصبر شوية.. وحتلقى نفسك عُمدة حوش الأرباب..

قاطعها وهو يمسح دموعه:

• طولتي علي يمه.. وأخوالي طولوا عليَّ كمان.. أنا قاعد مرمي فوق عنقريبي ما قادر أمرق لي خشم باب البيت.. شان ود فاطنة ساجني.. ود فاطنة يمه.. قعدني في البيت زي النسوان.. وأعمامي صامين خشمهم.. وخالي عبد الرحمن ما جايب خبر..

أحست بما يعانيه مِنْ ألم القهر والحنق فقالت تحاول تهدأته:

• ما عندنا غير الصبر يا وليدي.. أخوالك بحضروا فِي جيش عديل شان يقلبوها عديل فوق رأس ود فاطنة..

سألها فجأةً:

• خالي عبد الرحمن خبره شنو؟.. مالو ما جاء معاك؟..

اضطربت قليلًا وأشاحت بوجهها عنه، وقالت:

• كمان داير عبد الرحمن ود عوج الدرب يسوي رأسه برأس ود فاطنة وأبوك طاشي زول عارفه وين مافي.. فوارس أولاد عوج الدرب

قايدن عكاشة زول الحارة.. يا هو القدره.. وقدر سمه..

اضطربت نفسه قليلًا، وتمتم:

• يعني خالي عبد الرحمن كبير أولاد عوج الدرب ما جاي معاهم..

أجابته قائلة:

• قلتلك عبد الرحمن ما جاي.. يعني كبيرنا يصغر نفسه وأهله قدام ود فاطنة.. أنت ما عارف خالك زول أبوك عديل كده.. وكُرهتو في الدنيا دي عمك محمد الحسن ود أحمد الأرباب.. ما بدورو تب.. وكان سمع منه كلام أعوج ما بتحمل عشان كده اتفقوا إنه البجي قايد الفوارس عكاشة.. وأبوي وعبد الرحمن وعمسيب يقعدوا ينتظروا سواتم..

.. وجعلت تحكي له عنْ الخطة المتفق عليها، كما حكت له عنْ زيارتها إلى كجور الشيخ السجمان فِي الشط الشرقي للنيل عند قوز أولاد برهان.. وأسرت له بما فعله الشيخ السجمان وما وعد به لتنصيبه عمدة لحوش الأرباب إنْ عاد أبوه أو لمْ يعد. لملم إليه نفسه بعد أن سمع حكاويها عن الشيخ السجمان ووعده لها بتنصيبه عمدة وهذا غاية مناه. تركته لقضاء بعض المهام المنزلية، بينما أخذ فرح يتأمل فِي حياته القادمة التي سيكون فيها الآمر الناهي فِي حوش الأرباب. وسافر على دروب خياله ممتطيًا فيالق الشر وشياطينه ليرسم محكمة لأخيه غير الشقيق الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل جراء ما اقترفه معه مِنْ خطأ لا يغتفر.

(33)

تعاظم إعجاب الطيب ود العمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب بالرضية بنت الإزيرق، وأحسن الظن بها، كونها امرأة قوية البأس، حسنة البلاء، بارعة فِي إدارة الشأن العام، وفوق ذلك قادرة على حفظ السر. وبدا له أنَّ أباه العُمدة كان على حق فِي الاعتماد عليها فِي كل موطن مِنْ مواطن الشدة والبأس، رغم عدم رضاه عنْ الوظيفة التي أرادها لها كسرية تبيع الوهم والمتعة للناس. كان يحس أنَّ امرأة بمثل صفاتها لا يجب أنْ تجبر على العيش فِي الخفاء لتدير مأخورة كل همها أنْ تذهب بعقول الرجال بشرب الخمر، وأنْ تستحلب طاقاتهم عبر لحوم النساء. فعلت الأعاجيب وهي تسوس فريق العبيد عند سفح جبل إبليس. كانت تدير رجالًا أقوياء لمْ يشهد مثلهم مِنْ قبل، يبدو مِنْ مظهرهم أنَّها اختارتهم ليكونوا مقاتلين أشداء يعرفون كيف يخوضون المعارك المنتظرة. وبدت بينهم الرضية بنت الإزيرق ملكة لا صاحبة الإنداية أو المرأة السرية. تعرف متى تأمر، وبماذا

تأمر، ومتى تضطر إلى الوقوف، ومتى تحتد أو تتأنى، ملكة تامة المُلك لا يشوبها شيءٌ مِنْ رق ولا شيةٌ مِنْ عبودية. كان فِيها خصلة لمْ تغب عنْ فطنته، شدة حرصها على العدل والنَّصفة، وبعدها عنْ السَّرف والجور، وكانت محبتها للعُمدة آثر عندها مِنْ حُريتها أو إحساسها بهذه الحرية.

دفعت الظروف الطيب دفعًا إلى اكتشاف ساكني فريق العبيد عند سفح جبل إبليس. كانوا نحو الثلاثمائة مِنْ العبيد الرجال الأشداء، ومثلهم مِنْ الجواري التي تلطف مَنْ انتقاهم بهن تلطف المبدعين، فكن عظيمات الجمال، فِي صدورهن سعة، وفِي أناملهن رقة لا تشبه رقة الإماء، وفِي أجسادهن لين كلين اللدائن، وفِي أعينهن نعسة تذهب بالعقول، كأن اختيارهن كان لاستيلادهن لا لأعمال الخادمات. وكان الرقيق مِنْ الرجال ضخامًا يجيدون فنون القتال وركوب الخيل، والصبر على البلاء والمشقة. كان فريق العبيد مدججًا بالسلاح والعدة والعتاد، فِيه نحو مائة وخمسين مِنْ الخيول الأصلية والأفراس وبعض المهور الصغيرة. كأنَّ الفريق قد أعد منذ زمن بعيد لأمر ما.. حتى «القطاطي» بنيت بشكلٍ هندسي مخالف لما اعتادوه.. شاهده فِي مكانٍ ما منذ زمن بعيد لمْ يستطع تحديده على وجه الدقة.. لكنه يجزم بأنَّه شاهده فِي مكان ما.. فِي وقتٍ ما. تساءل الطيب وهو يشاهد كل ما بفريق العبيد: «شنو الكان فِي رأسك يابا

العمدة.. شان تعمل ليك فريق زي ده.. وجيش قدر ده.. وتدسهم مِنْ الناس.. حتى جناك ما عارف أنت بتعمل فِي شنو.. كت خايف مِنْ شنو يابا العُمدة؟»

.. شيءٌ ما أقلق مضجعه حين شاهد تغير ملامح الرضية بنت الإزيـرق وهي تستمع إلى حديث مَنْ كانت تدعوه مرجان ود دمباوي.. أحس باضطرابها وهي تسمعه بأذن مفتوحة، وكان يبدو عليه الجِد وهو يكلمها. ولمح الرجل وهو يأمر نفر مِنْ رهطه بأمرٍ ما.. بعدها بدأت حركة غير عادية فِي الفريق.. كأنَّ أهله يستعدون لخوض حربٍ وشيكة.. حاولت الرضية أنْ تخفي اضطرابها عنه، ولمْ يشأ أنْ يضغط عليها لتكشف سرًّا تحاول أنْ تداريه فِي عناءٍ واضح.

.. دخل معها إلى القطية الكبيرة التي استقبلت فِيها أباه العُمدة فِي ليلته الأخيرة. كانت غاية فِي الجمال والترتيب.. تبدو بوضوح أنها وكر مِنْ أوكار العشق الذي يتخطفه الناس خفيةً بعيدًا عنْ أعين المتطفلين. حكت له الرضية عنْ ليلتهما الأخيرة دون أنْ تفشي سر سيدها. خالطه شعور ما بأنها تخفي شيئًا ما لمْ يتبينه إنْ كان عنْ أبيه أو بسبب حديثها الخفي مع مرجان. سألها:

• أنتْ متأكدة إنه أبوي العمدة رحل منكم شديد؟.. ولیه ما مشيتي معاه؟

أجابته والكلمات تتردد بين شفتيها:

• والله كان شديد ما فيه شيء.. وما كنت بقدر أمشي معاه.. شان كنت منتظرة شوية عبيد وخدم جايين مِنْ غادي.. مِنْ قوز البراميل..

.. طلب مِنْها أنْ يبيت داخل قطية أبيه فأذنت له راضية، كما طلب مِنْها التخلص مِنْ بعض الأغراض التي لا تلزمه فِي بياته هذا ففعلت، وتركت له المكان وغادرت. أحست أنه يريد أن يشتم رائحة المكان الذي نام عليه أبوه آخر ليلة شاهده أحد مِنْ معارفه. وعرفت بأنَّه يريد أنْ يخلو بنفسه إلى ربه ليناجيه ويسأله الفرج. وكانت تعلم بأنَّه الوحيد القادر على إعادة الغائب. أخذ إبريقًا مليئًا بالماء وتوضأ ثم صلى ركعتين.. وأخذ يقرأ القرآن ويرتله بصوتٍ جميل.. ويقرأ الكثير مِنْ الأوراد التي يعرفها حتى أخذته غفوة رأى فِيها العُمدة يناديه ويهمس له ببعض الكلمات.. ويذكره ببعض الأماكن القديمة التي زاراها معًا. كان يبدو متعبًا مرهقًا.. يرقد على مكانٍ غير واضح المعالم إلا مِنْ شجرة مِنْ أشجار التبلدي الضخمة.. يتسور حوله بعض المخلوقات الضخمة.. لمْ تكن مِنْ الإنس ولا مِنْ الحيوانات المألوفة.. كأنهم مِنْ الشياطين المردة.. كانوا يرقصون حوله رقصات أشبه برقصات الموت.. وهو ينظر إليهم فِي استسلامٍ تام ثم يلتفت إليه مبتسمًا ويمد يديه إليه مناديًا وراجيًا أنْ يحتطنهُ ويخلصه مِنْ مصابه.

.. استيفظ الطيب فجرًا وبعد أنْ أدى ما يلزمه مِنْ الفرض، شعر

ببعض الراحة وهو يتذكر ما رآه فِي منامه.. وجعل يسأل نفسه أين هذا المكان الذي يحملك يا أبي؟.. وأين شجرة التبلدي هذه؟.. قرر أنْ يسأل الرضية عنها.. خرجت الشمس عنْ مخبأها إلى الدنيا.. وبدأت حركة دؤوبة فِي الفريق.. خرج إلى حوش الفريق فالتقى الرضية وقد أعدت بعض الطعام.. جلس ليأكل.. تركته وانتحت جانبًا.. أصر أنْ تجالسه وأنْ تطعم معه.. سألها فجأة وهي تأكل:

• .. بتعرفي تفسير الأحلام يا الرضية.

أجابته وهي تضحك:

• حلمت بشنو وأنت نايم..

قال وهو ينظر إليها بعينٍ فاحصة:

• شفت أبوي العُمدة نايم تحت شجرة قنقليز كبيرة.. وحولينه شياطين بترقص.. وهو يعاين ليهم شوية ويعاين لي شوية.. يضحك معاي ويمد إيده..

نهضت مرتعبة خائفة، وقالت بصوتٍ مرتجف:

• الحق أباك يا الطيب يا ولدي.. أبوك فِي سجن شيخ الكجور.. امشِ قوز السحاحير.. تلقاه وراء خور ود الجابرة.. واعمل حسابك.. شيخ الكجور مكجرك.. كان ما عملت حسابك بكتلك أنت وأبوك.. هو ماسك أبوك فِي شان تجيه.. امشِ بسرعة يا ولدي والله ينصرك.. أنت محتاج ثلاثة أيام مشي بلياليهم.. وابقَ عشرة على

نفسك وعلي أبيك العُمدة..

سألها وقد أحس بجديتها وبخوفها معًا:

• أنت بتعرفي الكجور الشيخ مِنْ وين؟.. وهو مكجرني ليه؟.. شن سويت له؟.. قولي يالرضية.. ما تخافي.

حكت له الرضية القصة بكاملها منذ ولادته.. جرت دموعه غزارًا.. لكنه لملم إليه نفسه.. وقام إلى حصانه بعد أنْ استودعها الله.

(34)

فعلت وساوس الشيطان فعلها بأهل الحوش.. كأنها تريد أنْ تسقيهم القلق والاضطراب عللًا بعد نهل.. غاب عنهم عمدتهم فجأة دون إنذار.. وغاب دون أنْ يمنحهم الفرصة لاحتمال ما تلاه مِنْ الأثقال والخطوب. وزاد عليهم خروج الطيب للبحث عنْ أبيه المشقة والرهق. شعر معظم أهل الحوش بقسوة وثقل غياب الرجلين عنْ الحوش، حتى سجن فرح فِي بيت أمه أفرغ الحوش مِنْ حيويته.. وتسكع الوجوم فِي وجوه ساكنيه حتى شعروا أنه الضياع.

بدت الأم الكبرى الهدية بنت الشريف الجيلاني ود الجنيد مهمومة شديدة الهم على غياب زوجها العُمدة وخروج الطيب للبحث عنه، تحاول أنْ تضجع فلا تستطيع وترغب فِي أنْ تجلس فلا تقدر. لمْ تكن تطمئن إلى شيءٍ فكل الذي حولها مجهول. لا تعرف كيف اختفى زوجها العُمدة ولا لِمَ اختفى.. ولا علم لها سوى ما أفرغه مرسال عليهم.. وتأخر الغائب عنْ العودة إلى دياره دون أنْ يُخبر.. بعده لا

شيء سوى ما يرشح مِنْ أفواه الناس مِنْ أحاديث الشياطين المردة والضباع القتلة.. لا توجد أخبار مؤكدة عنْ حياته أو مماته مما يزيد مِنْ اضطرابها وقلقها عليه.. لكن حدسها الذي لا يخيب، يميل كل الميل إلى أنَّ سيد الحوش لا زال على قيد الحياة فِي مكانٍ ما فِي هذه البسيطة.

.. وزاد مِنْ قلقها ما سمعته يتناقل همسًا بين العبيد والجواري عنْ غياب الرضية بنت الإزيرق المفاجئ عنْ الإنداية.. حاولت أنْ تربط ذلك بغياب العمدة لكنها لمْ تستطع الجزم به.. فالرضية غابت عنْ إندايتها بعد غيابه وعند خروج الطيب للبحث عنْه.. فأينْ اختفت هذه المرأة؟.. ولِمَ فِي هذا التوقيت بالذات؟.. واستيقظت فِي دواخلها مشاعر قديمة تجاهها.. مشاعر الأنثى تجاه الأنثى حين يكون الهدف قلب الرجل.. تلك المضغة المتقلبة التي لا تفرق بين الحرة والأمة.. سألت نفسها: «مالك يا بنت الشريف قمتِ لي سوات النسوان؟.. إلا السويتي فيني يا بنت الإزيرق ما سوَّنه بنيات العرب.. لكن الدنيا سدادة.. والجاياكي ما بتختاكي».

.. نادت على مرسال.. فجاء مهرولًا تاركًا نعليه خارج حوش استقبال الضيوف، وسألته:

• شن خبرك؟.. شن لقيت فِي الإنداية؟

أجابها وهو يلهث:

• ما فِي شيتن جديد..

نظرت إليه فِي حزم فاستدرك قائلًا:

• قالوا الرضية ست الإنداية عيانة راحت للبقعة شان تتعالج.. إلا حسيت إنهم كدابين.. باقي لي مشت تجيب ليها فريخاتن ومكادياتن سمحات مِنْ قوز ود إسماعين.. شان سوقه قرب.. فريخاته ديل قِدمن ومافي راجل بدورن تاني..

دفعت إليه نظرة حارقة، فأحنى رأسه، وتمتم قائلًا بصوتٍ خفيضٍ حتى لا تسمعه:

• عاد نان نقولك شنو يُمه.. خدم وقِدمن.. إلا كان مريومة الواقع فِيها باب الله الأعرج فجخ بالدين..

أشاحت بوجهها عنه، وقالت آمرة:

• عُقب ما تصد راجعة تيجي تكلمني.. وهسة بدورك تعرف لي أخبار الإنداية والبحصل فِيها.. ما دايراك تغفل عن أي حاجة..

أجابها:

• سمح يُمه.. بدوريني أمشي يومي هناك.

قالت:

• لا.. لا.. .. ما تسيب الحوش شان تقتس فِي الإنداية وسط النسوان وتمص فِي العرقي والمريسة.. دايراك واعي وصاحي هنا فِي الحوش.. إلا أسأل أي زول جاي مِنْ غادي البحصل هناك شنو.

أومأ برأسه موافقًا، وقال:

• سمح يمه.. ما في عوجة.. بسوي ليك الدايراه.. إلا ما فهمته شن بدوري مِنْ خبر الإنداية..

لمْ تجبه فأدرك أنَّ غرضها مِنْه قد انتهى، وانسحب فِي هدوء.

.. تناولت «إبريقها».. وجلست على «بنبرٍ» قصير.. وجعلت تتوضأ.. أحسنت وضوءها، واستقبلت القبلة، وصلت ركعتين لوجه الله، تدعو فيهما سائلة الله عودة الغائبين.

(35)

كانت تقف عند باب القطية الكبيرة حين عاد مرجان ود دمباوي ومَنْ معه إلى فريق العبيد بعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام، قضوها فِي استكشاف ما يحدث فِي حوش الأرباب، والتأكد مِنْ الأخبار الواردة مِنْ حوش عوج الدرب. ترجل مرجان عنْ صهوة حصانه وحياها فأحسن تحيتها، ثم أشار إلى تابعيه أنْ يذهبوا ليأخدوا قسطًا مِنْ الراحة. دلفا إلى داخل القطية الكبيرة وهي تتفرس فِي وجهه الصارم تريد أنْ تعلم شيئًا مما يخفيه. سألته متعجلة:

• شن خبرك؟

أجابها:

• السمعناه كله صِح.. عكاشة ود عوج الدرب متفق مع خيته السُرة.. ناوي يهجم على حوش الأرباب ويفك ود السُرة فرح.. شان يبقى العُمدة قبل لا يرجع العُمدة الكبير وسيدي الطيب..

أحست بالأرض تميد تحت قدميها، فجلست على طرف

«العنقريب» الكبير، وهي تنظر إليه غير مصدقة، تريد أنْ تكذبه لكنها لا تستطيع. أردف قائلًا:

• عكاشة لامي خويانه وعبيده.. وعبيد خويانه.. وعامل منهم جيشًا صغيرًا.. وشايع فِي دارهم أنه طالع معاهم للقنيص.. إلا هو ناوي شر.. كلهم وليدات صغار ما فيهم كبير عاقل.. إلا ود عم ليه ونديد ليهم.. اسمه حمدان ود عبد الله ملاوذ مِنْ الطلوع.. وقلبه ما بيه.. إلا عكاشة وأصحابه ما مدنوا فرقة شان يرجع صادي لا وراء بقفاهن.. خايفينه يطلع سرهم..

سألته بخوف:

• يعني هسة الشافع ده طالع يرش فِي الدم وأهله الكبار ما عارفين؟

أجابها بثقة:

• لا.. لا.. ما عارفين.. عكاشة ماشي فِي قفا خيته السُرة.. باقي هو نديد ولده فرح.. ولد خيبان زي ود خيته.. همه كُله فِي العرقي والمريسة والنسوان والقنيص.. مربي ليه شوية كلاب سلوقيات شان القنيص.. وشايف نفسه فارس وهو ما بعرف عدلت السيف مِنْ قلبته..

رسمت ابتسامة شاحبة وهي تحس بسخريته، وسألته:

• أهه.. وهم ناويين يدخلوا حوش الأرباب متين؟

أجابها:

• قالوا بيمرقوا بعد صلاة الجمعة الفي قدامنه دي.. أول بالتبادي يشرقوا لي بطن البادية لي جوه.. يعسكروهم يومين وليلة فِي وادي السكاكين.. بعدين بيجوا مِنْ فوق قوز سيدي الحسن شان خبر ما يصد لي حوش عوج الدرب.. وبعد داك يخشوا على حوش الأرباب مِنْ قفا درب الفقراء.. يعني يصلوا لخشم الحوش بعد خمسة أيام وأربع ليالٍ مِنْ بعد صلاة الجمعة الفي وشنا إنْ شاء الله..

صمت برهة، وحاول أنْ يردف لكنها قاطعته قائلة:

• كفاية كده.. امشِ ارتاح لسه قدامنا يومين وليلة.. ريح جسمك.. ورجالك.. وخيلك.. بعدين نكمل كلامنا..

خرج مِنْ القطية وأغلق بابها. نهضت الرضية واقتربت مِنْ نافذتها، وجعلت تنظر إلى حال الرجال وهم يستعدون لأمر لا يعرفون منتهاه كما يستعدون للحرب. جلست على أريكة قريبة مِنْ النافذة تمكنها مِنْ مراقبة مرجان ورجاله وبقية أهل فريق العبيد. لكن أفكارها تجاوزتهم إلى الغائب الذي لا تدري ماذا ألم به حتى هذه اللحظة، وإلى الطيب الفارس الذي يبحث عنْ أبيه متجهًا إلى قوز «السحاحير»، معقل الكجور الشيخ.

.. عليها الآن أنْ تخطط للسيطرة على جيش عكاشة ود عوج الدرب دون أنْ تدخل معه فِي أي قتال.. فمهما كان حسن نواياها

تجاه العمدة رجلها وسيدها، إلا أنَّ لعكاشة عزوة وعشيرة لنْ يرضيا بأنَّ تمسه سهام العبيد والإماء. لنْ يقبل أهله أنْ يموت على يد أحد عبيد العمدة أو سريته حتى إنْ جاء غازيًا. هذا حكم السيد للعبد.. وهي - وإن كانت تحب سيدها - فهي أمة سرية تدير إنداية فِي أطراف حوش الأرباب.. وإنْ أصاب العمدة أو ابنه الطيب سوءًا فلن يصدق أحدٌ أنَّها كانت سريته وسره، ولنْ تجد مَنْ يحميها مِنْ بطش أولاد العُمدة عوج الدرب أو حتى أولاد وراق وأولاد جاد الله.. ولا غضبة السُرة وابنها فرح.

.. إذن عليها إعمال الحيلة والسيطرة على عكاشة ورهطه بعقلها لا ببطش مرجان ود دمباوي ورجاله الأشداء، وهي تحتاج فِي هذا لمكر الأناث لا قوة الذكور. أحست ببعض الراحة.. فنهضت مِنْ مكانها وأغلقت النافذة، خفت الضوء داخل القطية الكبيرة، استلقت على «عنقريبها».. مرت بيدها على مرقده بجانبها.. رسمت ابتسامة نضرة.. ثم أسلمت عينيها للنوم.

(36)

قصد مرسال الإنداية وفِي معيته باب الله الأعرج، هكذا طلبت مِنْه الرضية بنت الإزيرق حين عادت مِنْ رحلتها الأخيرة. عرف مِنْها أنها تريده عينًا داخل بيت السُرة بنت عوج الدرب، تريد أخبارًا يومية وتفصيلية عنْ ما يدور هناك، دون أنْ تثير الشك والريبة. لمْ يكن هناك أفضل مِنْه، فطبع باب الله الميال لتسقط أخبار الناس يجعل الدفع به أو تجنيده لخدمة مخططاتها أمرًا لا صعوبة فِيه، كما أنَّ سهولة إخراج ما بجوفه مِنْ معلومات غير مكلف ولنْ تخسر سوى كأس أو كأسين مِنْ العرقي، وليلة أو ليلتين يقضيها عند فخذي مريومة. مرسال نفسه كان مشوقًا لمقابلتها بعد عودتها الأخيرة.

.. نظر باب الله إلى مرسال نظرة ساخرة، وقال محاولًا إغاظته:

• والله يا مرسال يا أخوي.. أنا زول محظوظ خلاص.. ألقى لي صدر حنين زي صدر مريومة.. وخندريس أشفطه شفط.. ماني زيك.. أنت يوم تلقى ويوم ما تلقى.. ويوم عرقي ولا عسلية.. ويوم

مريسة..

أدرك غايته، لكنه حاول مجاراته:

• عاد وين ألقى زي مريومة.. زيها بنلقي.. ما بنلقي.. إلا أنا ما بدور شراب العرقي.. أكان شربته يومين ورا بعض ياني المالي ليكم الواطة طراش.. العسلية والمريسة حنينات على بطني.. كبرنا خلاص يا ود عمي.. قايلني ظربون زيك..

ضحك باب الله حتى كاد أنْ يسقط،، واستند على مرسال وهو يقول ضاحكًا:

• عارف يا ود عمي.. مريومة يوم ترقص لي بي رحطة.. وأدس إيدي فِي المناصيص وأقرم لي قرمتين تلاتة.. أهه.. وجاك يا عبار البغو.. أكرطع.. وأترع..

قاطعه مرسال ضاحكًا:

• تترع ولا تظرط.. إلا تعرف يا باب الله يا أخوي أنا بدور الدكاي.. مريسة سمحة.. إلا بتخليني أبول الليل كله..

صمت قليلًا ثم أردف ضاحكًا:

• .. حتى مويتي جوه الفصيص بيكون نصها بول.. مما أكبها الخويدم تجفل.. وتكورك.. واااااااااااااي.. ما مليت الطشت.. أها ومع سلته تسمع تششششش.. انقلب بعدها ونومة للصباح ريحة المرفعين ما تقومني..

.. وصلا إلى الإنداية فالتقتهما الرضية بابتسامة مشجعة، ورحبت بهما، ودعتهما إلى قطية الضيوف الكبرى.. فأحس باب الله بالزهو، داعبته الرضية قائلة:

• جاي لمريومة طبعًا.. تشكر فيك ساكت.. شن سويتلها المرة دي..

أشاح بوجهه عنها وجعلت عيناه تدمعان وتتدفق الدماء إلى وجهه، فأردفت:

• البنية مابية الرجال إلا أنت.. أنا قلت يمكن سلاحك عجبها.. ولا يمكن بتبل أضانة بكلام بدوروه النسوان.. أحي أنا منك يا برويس.

أحس بحرارة تسري فِي جسده.. حرارة يعلمها جيدًا، لكنه لمْ يجبها، وهي لمْ تصمت، فقد عرفت كيف تقلب جنبيه:

• مريومة دي مِنْ جات ما نامت مع راجل واحد مرتين، إلا مِنْ دخلته عليها أنت.. هي ما بدور غيرك.. يا تجيها كل يوم يا تخليها لغيرك..

حاول أنْ يقول شيئًا، لكنها قاطعته قائلة:

• بشوفها اليوم قامت مِنْ الصباح ودفقت الموية فوق جسمها.. وقعدت فوق حفرة الدخان.. باين مرض النسوان خلاص غبه بختك.. قوم امشِ لا تخليها تستناك كتير.. المرة ما بتستحمل غياب

الراجل.. امشِ ليها.. تلقاها منتظراك..

لمْ يكن يحتاج لأكثر مِنْ هذا الإذن.. فنهض متعجلًا واتجه إلى قطية مريومة، بينما كانت نظرات مرسال تتبعه حتى غاب عنها. التفت إليها وقال:

• حمدا لله على سلامتك.. طولتِ الغيبة المرة دي..

لمْ تجبه، فاستطرد مستدركًا:

• سألتني أمي الهدية عنْ السبب الخلاك تسيبي الإنداية.. إلا أنا قت ليها إنك عيانة ومشيتِ البقعة للعلاج، ولما حسيت إنها ما صدقتني قلت ليها يمكن تكوني مشيتِ تشتري فريخاتن جُداد مِنْ سوق قوز ود إسماعين.. .. قالت لي مِنْ تيجي صادة كلمني.. أهه أكلمها ولا نخليها شوية ..

لمعت عيناها بوميض يعرفنه النساء، وأفلتت مِنْها ابتسامة حاولت جاهدة أنْ تخفيها عنْ مرسال، أشاحت بوجهها وأجابته:

• أنت ما كدبت يا مرسال.. أنا مشيت شان أجيب لي فريخات ومكاديات مِنْ قوزن أبعد شوية مِنْ قوز ود إسماعين.. والليلة حأدوقك واحدة فيهن.. فتاة صغيرة ما دخل عليها راجل قبلك.. إلا بدورك قبل ما تدخل عليها كويس.. تسمع كلامي البقوله ليك.. الليلة خد راحتك.. وبيتو معاي اليوم.. وبكرة مِنْ الصباح صد للحوش.. وما في زول يعرف الكلام البيني وبينك..

لمْ يصدق كلامها عنْ الفتاة فسألها مستفسرًا:

• أنت بي صِحك.. البنية فتاة.. بِكر.. أنا أول واحد يقدها..

علمت ألا فائدة مِنْ الحديث معه الآن، فالرجال لا يفهمون حين تنهض ذكورهم إلا لغة واحدة. أمسكت بيده.. وسحبته خارج القطية، ونادت على فتاة باسمها قائلة:

• حواية.. حواية..

وتهادت فتاة صغيرة السن رائعة الجمال، مسدلة الشعر، ناهدة الصدر، مشدودة العجيزة، وقفت أمامهما وأجابتها:

• نعم يمه.. فِي شنو.

أجابتها:

• سلمي علي مرسال.. عايزاك تدلكيه.. وعايزاه يقضي الليلة معاك.. مرسال ده راجل أسد.. كان سألتي عنه نسوان الإنداية بعرفنك بيه.. كلهن ضاقنو ..

أشاحت بوجهها خجلة، ومدت يدها إليه، كاد أن يقع حين لامست يداه يدها. ضحكت الرضية.. وقالت مداعبة:

• يللا يا راجل.. سوق.. الليلة ليلتك يا عريس.. اوعَ تخذلنا يا أسد.. وقبُل لا أنسى قول للهدية الرضية صدت.. يلا يا عريس كلامنا الصباح إنْ بقينا مِنْ أهل الدنيا..

مضت أمامه إلى قطيتها، يتأمل فيها كالراهب، واختفيا داخل

القطية الصغيرة. دلفت الرضية ثانية إلى قطيتها، وجعلت ترتب خططها للغد. تريد أنْ تسمع مِنْ مريومة أولًا ما سيقوله باب الله الأعرج. عليها أنْ تشرح لمرسال ما تريده بسهولة ويسر حتى يفهمه ويستوعبه ويقدر على فعله. تمددت على «عنقريبها».. وأسندت رأسها إلى طرف «العنقريب».. تذكرت رجلها العمدة، فزرفت الكثير مِنْ الدمع حتى غلبها النوم ونامت.

(37)

شعور غريب تملكه بأنَّ شخصًا ما يراقبه ويوجه خطواته ويدفعه إلى السير فِي طريقٍ رسم له بعناية ليصل به إلى غاية محددة. أدرك أنَّ الكجور الشيخ يلاعبه ويحاول السيطرة عليه، فهذه النسمات الهادئات التي هاجت فجأة لتتحول إلى إعصارٍ ورياح هوجاء، ليجد نفسه فِي نقطة البداية مرة أخرى، وتضيع آثار الطريق الذي سلكه، لا يمكن أنْ تكون محض صدفة. إنها المرة الثالثة التي يحدث فيها هذا الأمر العجيب.. ما إنْ يصل إلى تلك التلة حيث الشجيرات الثلاث وذلك الحجر العجيب الواقف كالنصب خلفهن، إلا ويعود الإعصار برياحه الهوجاء وأتربته الكثيفة مرة أخرى ليدفع به عبر طريق وعرٍ إلى نفس النقطة التي بدأ مِنْها مسيره. أدرك أنَّ الكجور الشيخ يراه، ترجل عنْ حصانه، وسحبه خلفه إلى أنْ اقترب مِنْ ساق شجرة جافة، ربطه هناك واستظل بظله، وأخرج مِنْ جرابه حجرًا، ثم تيمم صعيدًا طاهرًا، وصلى ركعتين وأدى ما يلزمها مِنْ الخشوع والدعاء.

بحث عنْ أعواد مِنْ الخشب ثم شد ثوبًا يلتحف به بين أعواد الخشب والساق، فصار كالخيمة انحشر تحتها وتمدد، وأخذته غفوة فنام.

استيقظ فجأة.. أحس بشيءٍ مِنْ الخوف يداخله، ما الذي أنامه، وذلك الحُلم الذي لا يكاد يذكره، والصوت الذي يشابه صوت أبيه، وتلك الجملة الغريبة: «الليل ستار!».. ترى ماذا تعني؟.. أحس بثقل جسده.. تمدد مرة أخرى على الأرض، وقال يحدث نفسه:

• أفو يا الطيب ود فاطنة.. جسمك برد مِنْ فسوة الكجور الشيخ.. أنت زول حافظ كتاب الله.. شن بسوي معاك الكجور الشيخ.. إبليس فِي رقبته يفوت ليك الدرب لامن سحاحير الإنس.. إلا السمعته فِي المنام ده شن معناه..

تناول حجره مرة أخرى، وتيمم ثم استقبل القبلة وصلى، وما إنْ قرأ الفاتحة مِنْ الركعة الأولى حتى قرأ: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ» مِنْ سورة هود، فانشرح لها صدره، ثم قرأ فِي الركعة الثانية بعد الفاتحة: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ» مِنْ سورة الحجر فاطمأنت نفسه. أكمل صلاته وأدرك أنَّ ما شاهده فِي المنام رؤية تدفعه إلى السير ليلًا.. فالليل ستار وفِي ذلك حكمة، والظلام الدامس سلاحه للتغلب على الكجور الشيخ وفِي ذلك حكمة أخرى.

.. وما هي إلا سويعات حتى أرخى الليل أستاره وغشى النهار

بظلامه الكالح، لا أثر للقمر.. أخرج ماءً شرب منه وسقى حصانه، وتوكل على الحي الذي لا يموت، وبدأ مسيرته باتجاه قوز السحاحير.

.. شعر الطيب ود العمدة إبراهيم ود الأرباب بنشاطٍ عجيب، كما شعر بخفة حصانه وقوته، ورغم الظلام الدامس الذي يلفهما إلا أنَّ الحصان يبدو مرتاحًا فِي سيره كأنه يعرف الطريق أو كأن شيئًا ما يقوده إلى السبيل الصحيح. لمْ يمضِ سوى ساعتين حتى وصلا إلى الشجيرات الثلاث، ترجل الطيب عنْ حصانه، وأراد ربطه عند إحداهن فتمنع الحصان وصهل صهيلًا كالأنين وتراجع بضع خطواتٍ إلى الوراء. دهش الطيب مِنْ تصرف حصانه وحاول سحبه ثانية فأبي. أحس الطيب بأنَّ شيئًا ما أدركه الحصان ولمْ يدركه، ربما هي حية مندسة تحت التراب أو خلف الشجيرات. ترك الحصان مكانه على بعيد خطوات، ثم اقترب مِنْ الشجيرات مرخيًا سمعه عله يسمع فحيح الأفعى أو حركتها، وجعل يدعو: «اللهم إني أعوذ بكلماتك التامة مِنْ كل شيطان وهامة ومِنْ كل عين لامة».. مشهرًا سيفه ليقضي على أي عدوٍ يهاجمه إنْ كان مِنْ الإنس أو الجن أو الهوام. لمْ يسمع شيئًا وفحص الشجيرات جيدًا رغم الظلام، ثم اتجه ناحية الحجر الذي يشبه النصب، شيء ما لا يريحه فِي هذا الحجر، استل سيفه وضربه ضربة واحدة وهو يهلل ويكبر يريد كسره وتفتيته. انشق الحجر إلى نصفين وسمع آهة مرعبة كالأنين، ثم تفتت دون الحاجة إلى ضربة

أخرى. التفت خلفه فلم يرَ غير حصانه يقترب ناحيته، وقد اختفت الشجيرات الثلاث دون أنْ يتركن أثرًا. تلفت حوله فلمْ يرَ شيئًا بجانبه سوي مطيته، ولمْ يحس شيئًا سوى الظلام الدامس، ولمْ يسمع شيئًا سوى السكون المقيت. قرر أنْ يمتطي دابته ويبعد عنْ هذا المكان بالقدر الذي يستطيع حتى لا تهب الأعاصير مرة أخرى.

.. وانطلقا يطويان الأرض طيًا، حتى بلغا حدود جبال السلو.. كان ذلك فجرًا، فقرر ألا يدخلاها الآن.. لأنَّ الشمس ستشرق قبل أنْ يغادرها وبالتالي سينكشف أمره أمام الكجور الشيخ، فترجل عنْ رفيقه وبحث عنْ مكانٍ خفي، يسكنان فِيه حتى يجيء الليل، فيعاودان المسير مرة أخرى. فرش فروة وصلى الفجر، ثم تمدد ونام.

.. استيقظ مِنْ نومه بعد أنْ ارتفع الضحى وهو يردد قوله تعالى: «قَالَ بَلْ أَلْقُوا * فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ».. وكانت دموعه تجري دون سبب واضح.. لا يذكر شيئًا إلا ترديده هذه الآية مِنْ سورة طه، تمتم قائلًا: «صدق الله العظيم».. بحث عنْ شيءٍ يأكله، فوجد بعض ثمار المانجو قريبة منه، تناول ثمرتين وأكلهما مستطعمًا مذاقهما، أتي ببعض الماء وبعض الحشائش الخضراء وخبزٍ جاف كان معه لمرافقه.. أراد أنْ يتوضأ مِنْ ماء جدول قريبٍ منه، حين مد يده لمْ تطاوعه وأبت أنْ تمس الماء، تراجع خطوتين وهو يقلب كفيه ويسأل نفسه: «مالكن أبيتن المي».. أدرك أنْ الكجور

الشيخ قد عرف مكانه، ابتعد وحصانه عنْ جدول الماء بضعة أمتار، وجعل يراقب المكان مِنْ حولهما آملًا أنْ تنقضي ساعات النهار سريعًا ليدخل الليل فيستطيعان تجاوز جبال السلو وأوديتها فِي ليلته تلك.

.. مضي نحو أربع ساعات وهو يرقب المكان حتى أصابه الملل، وكاد أنْ يغفو مرة أخرى حين سمع صهيل حصانه الفزع، تلفت حوله، فرأي جدول الماء يقترب نحوهما، كأنه حية تسعى، فتذكر الآية التي كان يرددها، ونهض مستلًا سيفه، وهو يردد قوله تعالى: «قَالَ أَلْقُوا * فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ»، ثم يهلل ويكبر ويحوقل. فجأة خرجت حية ضخمة مِنْ جدول الماء تريد مهاجمتهما، فقرأ قوله تعالى الذي استيقظ به: « قَالَ بَلْ أَلْقُوا * فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ».. فتضاءلت الحية حتى اختفت، وعاد جدول الماء مِنْ حيث أتى.

.. أدرك الطيب أنَّ الله يريد به خيرًا.. التفت إلى حصانه فوجده قد هدأ.. ابتسم له شاكرًا.. واستعد للرحيل.. فالكجور الشيخ لا يستطيع أنْ يفعل شيئًا حتى الغد.. فقط عليه أخذ الحيطة والحذر، وأنْ يتجاوز هذه الجبال ووديانها قبل نهار الغد. أحس ببعض الجوع وما زال أمامه بعض الوقت حتى تغيب الشمس.. صنع لنفسه شيئًا مِنْ الدامريقا وقليل مِنْ المونكولو وجعل يأكل باستمتاع، وأكرم حصانه بشيء مِنْ السُكر.

(38)

نقل مرسال إلى الأم الكبرى الهدية بنت الشريف ما يجري ڢِي الحوش وكل ما سمعه مِنْ باب الله الأعرج، وأخبار ما يحدث ڢِي دار الأم الثانية السُرة بنت عوج الدرب. كما أخبرها بعودة الرضية بنت الإزيرق إلى الإنداية، وأنها قد أحضرت ڢِي معيتها نحو الثلاثين مِنْ الخدم والمكاديات. لمْ تعبأ الأم الكبرى بعودة الرضية أو هذا ما حاولت أنْ تظهره، وأبدت اهتمامًا كبيرًا بما أتاها به مِنْ أخبار مِما أفشاه له باب الله الأعرج: «أمي السُرة حاله ما ياهو.. زي الجاها خبر سمح.. بس ما بخبر مِنْ وين.. طلقت الزغاريد هي وبناته.. أنا قلت العوين ديل جنن ولا شنو.. ولدن محبوس وهن يزغردن.. رخيت آذني سمعتهن بيقولن عكاشة ڢِي قفا درب الفقراء.. عكاشة في قفا درب الفقراء.. إلا ما خبرته الجاب شلاقة ده شنو لي درب الفقراء».

.. لمْ يعجبها الأمر.. وشعرت بأنَّ أمرًا ما تدبره السُرة وأولادها ڢِي الخفاء، سألت نفسها: «شن بتدوري تسوي يا الممسوخة؟».. أخذت

تتحرك جيئة وذهابًا فِي غرفتها الكبيرة وشعورها بالقلق والاضطراب يزداد شيئًا فشيئًا، قالت تحدث نفسها: «درب الفقراء ده ما دربك يا عكاشة.. شن بخليك تيجي مِنْ فوق.. دربك عديل مِنْ حوش عوج الدرب لحوش الأرباب.. أنت داير تخش حوشنا وما فِي زول يشوفك.. وقطع شك رسلته ليك زول شان تخبر خيتك».. نادت على مرسال، وحين حضر سألته:

• فيكم واحد شافوله زول غريب دخل الحوش؟

عجب لسؤالها، فقال مستفسرًا:

• زول غريب كيف يعني؟

قالت:

• يعني فِي ناس غرباء دخلوا حوش الأرباب.. ناسن جو مِنْ الشرق ولا الغرب دخلوا يزوروا ليهم ناس جوه الحوش ..

أجاب بغباء:

•لا.. لا يمه.. إلا ما متأكد شديد.. يمكن يكون جو فِي الليل.. إلا المتأكد منه.. ما في زول غريب حدانا فِي البيت الكبير تب..

قالت فِي ضيق:

• ألبسلك عراقي نضيف.. وقشقش عجاج كرعيك.. وحضر الحمارة العالية خلينا نمشي لي بيت ستك السُرة.. بدورك تسأل لي باب الله أكان شافلو زول غريب جاهم فِي اليومين الفاتن ديل.. بس هو ما

يخبر بإنك بتدور تقرره.. يلا عجِل.. تلقاني واقفة عند الباب الكبير..

أجابها وقد خالطه شيء مِنْ عجب ودهشة:

• سمح يمه..

خرج وهو يهز رأسه ويتمتم:

• الله يستر.. يمه بتدور تمشي للسُرة فوق بيته.. الله يستر.. ده ما خته عديل كده.. الله يستر..

التقته عند باب الدار الكبير، ركبت حمارتها العالية، وأمسك بلجامها وجرها لتمشي. كانت الهدية تتفحص الطرقات بعين خبيرة، وتنظر فِي وجوه الناس تريد سبر أغوارهم. أحست بشيءٍ مِنْ تحدٍ واضح يظهر فِي وجوه العبيد الرجال وعيونهم أين ما التقتهم، نادت على مرسال، فأوقف الحِمارة، اقترب منها، فهمست فِي أذنه:

• امشِ بينا لامن تصل جامع حوش أولاد وراق.. وصد بينا راجع لي بيت العمدة التاني..

عجب لطلبها، لكنه أخذ يجر الدابة إلى حيث أرادت.. دون أنْ ينبس ببنت شفة، وهي ترقب الناس دون أنْ يشعروا. كان كل مَنْ يلاقيها مِنْ أولاد الأرباب، أو أولاد حوش وراق، أو أولاد حوش جاد الله، يرفع يده محييًا: «سلام يُمه» ثم يمضي إلى حال سبيله، لكن هذا لمْ يكن حال العبيد الرجال الذين كانت تلتقيهم فِي رحلتها هذه، قليل مِنْهم مَنْ فعل ذلك وهو ما اعتادته، لكن الكثير مِنْهم تجاهلوها

عمدًا. لمْ تستطع أنْ تجد تفسيرًا لذلك ولمْ تطمئن له، كما لمْ تقدر أنْ تمنع نظراتهم المتحدية.

وصلوا بدابتهم إلى دار العمدة الثانية، دفعت الباب ودخلت دون استئذان. أخذ مرسال المطية إلى بيت العبيد. رأتها إحدى الخادمات فأسرعت إلى سيدتها تبلغها بحضور الأم الكبرى. تناولت السُرة ثوبها سريعًا وبدت عليها آثار المفاجأة والاضطراب، التقتها عند باب الغرفة، نظرت إليها نظرة الغيرة والحنق. قالت الأم الكبرى وهي تحييها:

• سلام يا السُرة ..

ردت عليها التحية قائلة:

• أهلن.. حبابك.. ادخلي لا جوه.. إن شاء الله عافية ..

قالت:

• يعافيك.. ويعافي وليدك.. وبنياتك.. جيت أسلم عليكم وأشوف وليدي فرح..

جرت دموع السُرة سخينة، وقالت تعاتبها:

• وليدك فرح تشوفيه بعد سجنه أخوه ود فاطنة بنت حمد النيل.. فرح ما ولدك.. ولدك الطيب ود بنت حمد النيل ..

أجابتها بحسم:

• هيبي.. أنا ما جيت لي كهن النسوان يا مرة.. كلهم ولاد العُمدة..

وكلهم ولادي.. كلميه شان أدخل أشوفه..

أشارت لها كي تتبعها، دخلتا عليه، فرأته مكبلًا، بلحية كثة، وشعرٍ قذر، رقت لحاله، وذرفت دموعًا سخينة. قالت تحييه:

• سلام فرح وليدي.. كيف حالك؟

رفع رأسه إليها، رأي دموعها تجري على خديها، انفجر باكيًا وقال:

• شفتِ السواهو فيني الطيب.. أنا فرح ود العمدة وأخوه الكبير يسوي فيني كده.. دي عدو ما بسويها فِي فارس زيي..

مسحت دموعها وقالت بحسم:

• اسمع يا ولد.. ضهر أبوك ما بجيب عدوك.. والإنت فيه.. سوات إيدك.. وجريك وراء النسوان والعنطزة الفارغة فِي شان تبقى عمدة.. بتدور تبقى عمدة قبل لا تعرف أبوك حي ولا ميت.. وأنا جيت أقولك.. لا تسوي الغلط وأنت مقيد فِي بيت أمك..

قاطعتها السُرة سائلة فِي ضيق:

• شن بتدوري تقولي يا الهدية؟

التفتت ناحيتها وقالت فِي قوة:

• المتلي ما بنادوها باسمه يا بنت عوج الدرب.. إلا الفي قلبك بغلبك.. في أمان الله

اتجهت ناحية الباب والكل يناظرها، وحين وصلت إليه التفتت إليهم قائلة:

• سمعت عكاشة خويك قريب مننا.. قالوا مِشَوِم فِي درب الفقراء.. كان جاكم زيارة كلموني شان أقوم بالواجب.. باقي أنا أم الواجب.. ولا ما كده ..

أحست باضطرابهما، تفحصت وجه السُرة الذي خالطته ألوان متعددة، ووجه فرح الذي اضطرب اضطرابًا عظيمًا، وهو يحاول أنْ يخفيه بطرف ثوبه ماسحًا دموعه. دارت حول نفسها وخرجت مِنْ الغرفة دون أنْ تزيد.

(39)

شعر بثقلٍ فِي رأسه، حاول أنْ يفتح عينيه، الظلام الدامس يحيط بالمكان، لمْ يقدر أنْ يتبين المكان. أراد أنْ يتمطى ويحرك ساقيه، شعر بعجزه عنْ الحركة. لا يدري لذلك سببًا، يداه مقيدتان إلى خلف ظهره، ماذا حدث له؟ لا يجد إجابة. حاول أنْ يجذب إليه قدميه، إنَّهما لا تتحركان. كأنهما مقيدتان بحبل غليظ. اشتم رائحة غريبة لمْ يستطع أنْ يتبينها.. أهي رائحة عرقه أم رائحة خليط الخندريس والمريسة. حاول أنْ يفك يديه، لكنه لمْ يستطع. نفخ هواءا ساخنًا عنْ صدره، وصاح ينادي ابن عمه دون أنْ يراه:

• حمدان.. يا حمدان ..

لمْ يسمع ردًّا، فناداه مرة ثانية:

• حمدان.. يا حمدان.. طشيت وين يا الشقي..

شعر بحركة قريبة مِنْه، ثم سمع صوتًا كالأنين، أحس برهبة شديدة.. فانكمش فِي مكانه كأنه لا يريد لأحد أنْ يدرك وجوده. فجأة

سمع ابن عمه حمدان ود عبد الله يناديه:

• أنت وين يا عكاشة يا ود عمي؟.. مو بس أنت وين.. حنا كلنا وين؟.. والدنيا دي مضلمة كده ماله.. ده ضلام الليل ولا ضلام القبور.. إحنا فِي الدنيا ولا فِي مكان تاني؟..

رد متسائلًا:

• وين الخادم السميحة الكانت معاي؟.. الله عليها.. نهيداتها تعصرهن عَصِرْ.. وقت تختهن فِي صدرك.. تقول سكاكين عديييل..

قاطعه حمدان قائلًا:

• أنت جنيت يا ود عمي.. إحنا عارفين نفسنا وين شان نفكر فِي شطور النسوان.. سبحان الله مقيدين وبالنا فِي الخويدم.. عقلك في ضكرك.. الله يقطع النسوان ويلعنن فِي القبل الأربع..

سمعا أصواتًا تئن بالقرب مِنْهما، ثم اكتشفا أنَّهم جميعًا موجودون فِي مكان واحد، وأنهم جميعًا مقيدون. كان حمدان أول مَنْ أدرك أنهم أسروا، فقال:

• يا ود العُمدة إحنا مسجونين.. ومربطين بالحبال.. بس ماني عارف منو الساجنه ولا الرابطنه .. خايف بكرة يبيعونا فِي سوق النخاسة.. سمعتني يا ود العُمدة.. طيشك وقعنا فِي يد الما بخاف الله..

أجابه مرتعدًا:

• ما فِي ود مقنعة بقدر يقيد ود العُمدة.. إحنا ما فِي زول بيقدر

يبيعنا.. فِي زول ببيع سيده ..

قاطعه ساخرًا:

• ما خاتي.. تتكلم سااااكت هو الكلام بقروش..

صمتا عنْ الحديث، لكن عكاشة سأله مستفسرًا:

• أنت يا حمدان يا أخوي.. دحين إحنا بعد ما فجخنا الفريخات الصغار فوق الإنداية قبلنا على وين.. مخي يودي ويجيب ما ني فاكر قبلنا علي وين.. كل الجاي فوق رأسي نهيد الفرخة المدردم داك.. بزته زي المسمار.. خلاني أركبه أكان تلاتة، كان أربع مرات.. وعرانه الضيق توَّر نفسي.. غايتو حكيته جنس حك..

قاطعه غاضبًا:

• الناس فِي شنو وود العمدة فِي شنو.. إلا والله ما فاكر وين قبلنا.. العرقي والمريسة طششن عيونا.. والله ما ني عارف شرقنا ولا غربنا.. شوَمنا ولا فتنا غادي مِنْ درب الفقراء.. ما عارفين عدلتنا مِنْ قفانا..

صاح أحدهم:

• يا ود العُمدة ما فِي زول عارف السوّاها فِينا منو.. إجووغرنا العرقي ومصينا المريسة.. وفجخنا الفريخات.. والمكاديات.. وقيدونا أم فكو.. وما بعرف كان سووا فينا السويناه فِي النسوان ولا عفونا.. حرم حاسي لي بي عود غليظ فِي حشاي.. إلا ما عارفه ده حق منو..

صرخ فِيه حمدان:

ـ صم خشمك الله يلعنك.. أنت راجل أنت..

.. أدركوا أنهم مقيدون وعرايا فعلًا، فانكمش كل فِي مكانه ليستر عورته. وجعل كل منهم يحدث نفسه ويسألها: «ماذا حدث؟».. آخر ما يذكره الفرد مِنْهم أنه شرب كثيرًا شيئًا مِنْ الخندريس وبعضًا مِنْ المريسة، ثم استلقى بجوار امرأة ما.. يفعل الحرام.. لا يهم إنْ كانت حرة سليلة حسب ونسب، أو جارية تم شراؤها مِنْ إحدى أسواق النخاسة هنا أو هناك. كلاهما حرام وكلاهما هتك للعرض.

.. حاول حمدان أنْ يسترجع حديث صاحبهما، لكنه لا يكاد يذكر شيئًا سوى أنهم سمعوا بإندابة الرضية بنت الإزيرق، فقرروا أنْ يقضوا فِيها ليلتهم جميعًا قبل غزو حوش الأرباب فِي فجر يومهم التالي. لكنه لا يذكر إنْ كانوا غادروها أم لا.. وإنْ غادروها، فإلى أين؟.. وإن لمْ يغادروها فماذا حدث؟.. ومَنْ هم الذين قيدوهم؟ وكيف حدث ذلك؟ ولِمَ؟

(40)

بلغ بها الاضطراب والضيق مبلغًا، فقد مضت ثلاثة أيام على الموعد المضروب بينها وبين شقيقها عكاشة، لكنه لمْ يظهر. لمْ يدخل الحوش غازيًا ولا زائرًا، ولمْ يرسل أحدًا مِنْ طرفه ليبلغها لِمَ لمْ يحضر. لا تدري إنْ تغير المرسوم بينهما، أم حدث شيء ما استدعى تأجيل دخوله إلى الحوش. وهي لا تعلم ماذا تفعل؟.. حتى عبدها باب الله الأعرج الذي أرسلته إليه، لمْ يجده فِي نواحي درب الفقراء.. ولمْ يجد أثرًا له ولا أثرًا لرجاله.. أين اختفى هذا الشقي؟.. لكن باب الله ذكر شيئًا عجيبًا لم يكن جزءًا مِنْ خطة الغزو. قال إنَّه سمع مِنْ إحدى جواري الإنداية أنَّ سيدًا فِيه صفات أخيها حضر إليها منذ أربعة أيام ومعه أسياد وعبيد كثيرون، قضوا يومهم وليلتهم يسكرون ويعربدون، وأصر هذا السيد على أنْ يشتري جارية مِنْ جواري الإنداية، ودفع ثمنها أضعافًا مضاعفة وأخذها معهم ورحلوا. وذكرت له أنَّ السيد وصحبه قد أجزلوا العطاء لكل أهل الإنداية حتى إنهم كرهوا أنْ

يغادروهم. كان وصف السيد ينطبق انطباق الحافر على الحافر على أخيها.. وبحسب ما رواه العبد باب الله، فإنَّ الزائرين كانوا فِي غاية الرضا مِنْ يومهم وليلتهم اللذين قضوهما هناك.

.. مرت ثلاثة أيام أخرى دون أنْ تسمع شيئًا عنْ شقيقها عكاشة، حتى عبيدها الذين أًرسلتهم للبحث عنه فِي الجوار لمْ يأتوا بشيء يبين مكانه، أو إنْ كان قد مر مِنْ هنا أو هناك. لمْ يكن الوقت فِي مصلحتها، فقد مرت الأيام العشرة التي قطعها الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل على أهل الحوش لمْ يعد فيها ولمْ يعد أبوه، وحيث إنهما لمْ يعودا إلى الحوش، فقد تنازل محمد الحسن ود أحمد الأرباب عن العمودية مؤقتًا، وأمر بتكوين المجلس الثلاثي حسب اتفاقه مع الطيب نفسه. ثلاثة يحكمون الحوش الآن كما سماهم الطيب: محمد الحسن ود أحمد الأرباب والشيخ عبد الله ود وراق كبير أولاد وراق والشيخ حسان كبير أولاد جاد الله، وبعد أسبوعين مِنْ الآن سيكون الحوش أمام أمرين، إما عودة العمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب وولده الطيب أو أنْ يختاروا عمدة جديدًا لا يكون مِنْ أولاد الأرباب. وهذا ما لا تستطيع احتماله، فقد أعدت العدة وحاربت الدنيا كلها مِنْ أجل أنْ يتوج ابنها البِكر فرح ود إبراهيم ود أحمد الأرباب عمدة لحوش الأرباب. لن تحتمل أنْ ينتصر عليها الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل وأمه.

.. قررت أن تسافر إلى أهلها.. إذ لا بُد لهم مِنْ حل هاتين المشكلتين،

فمن ناحية شقيقها مختفٍ منذ نحو أسبوع، ومِنْ ناحية أخرى عمودية الحوش على وشك الضياع بسبب جور ود فاطنة بنت حمد النيل. أسرت لبناتها ولابنها فرح بما تخطط له، واتفقوا على أنْ يكتموا أمر سفرها ليومين أو ثلاثة حتى تعود على وجه السرعة.

.. خرجت فِي منتصف الليل متخفية وفِي معيتها خمسة مِنْ عبيدها الأشداء المدججين بالسلاح، تنشد الوصول إلى ديار أهلها فِي حوش عوج الدرب قبل فوات الأوان. تحتاج إلى مسيرة يوم على ظهر الدواب، وتريد الإسراع طمعًا فِي اختصار الوقت. كانت تسأل عنْ شقيقها كلما تقدمت بضعة أميال أو رأت جمعًا مِنْ الناس هنا وهناك، آملةً أنْ تجده أو تسمع عنه خبرًا، فلا تلقى أخاها الأكبر عبد الرحمن إلا وفِي معيتها الخبر اليقين. لكنها لمْ تجده ولمْ تسمع خبرًا مِنْه، حتى وصلت إلى ديار أهلها بعد مسيرة يوم أو نحوه.

.. مرة أخرى فضلت السُرة ملاقاةً شقيقاتها أولًا، غير أنها حاولت أنْ تهرب مِنْ نظرات شقيقتها الكبرى أم حقين الفاحصة. سألتها أم حقين:

• شن خبرك يا أم فرح؟.. جايانه تاني بعجاج كرعيك..

انهارت السُرة وأفرغت ما بجوفها وشقيقاتها ينظرنها فِي خليط مِنْ الدهشة والعجب، حكت لهن كل شيءٍ بالتفصيل، لمْ تنسَ شيئًا.. كما لمْ تنسَ أنْ ترمي بالأسباب كلها على كاهل فاطنة بنت حمد النيل

وولدها الطيب.

التفتوا جميعًا إلى أم حقين.. التي كانت تنظر إلى السُرة بغيظ وحنقٍ شديدين، لكنها كظمتهما، وقالت حاسمة، دون أنْ تعرف أيًا مِنْهن ماذا تخبئ:

• خشمك عندك.. تقعدي ليك يومين تسلمي على أهلك وأبيك وتترحمي على قبر أمك وتمشي بيتك.. تنتظرين هناك أخاك الكبير عبد الرحمن لمن يجيك.. عكاشة أخوك لو حصلت له حاجة حتطير رقاب.. والعمودية دي انسيها تب.. كفاك أبوك عمدة وراجلك عمدة.. ولدك ده ما راجل شان يبقى عمدة.. عمودية شنو الدايراها لي جنى الربا والتلاف.. كلام غير ده ما بدور أسمعه.. انطمي لغاية ما تصدي لي بيتك..

.. وتركتهن وذهبت إلى حالها.

(41)

رأي فِي ما يرى النائم الكجور الشيخ ينظر إلى أبيه نظرةَ تحمل الكثير مِنْ الحنق والغضب والحسد. كان أبوه مقيدًا بالأغلال، يبدو عليه الإرهاق والتعب، يئن أنينًا موجعًا، ويتصبب مِنْه العرق، وتنبعث مِنْه روائح كريهة. وضع الكجور الشيخ إناءً مِنْ «القرع» على بُعيد مترين أو نحوهما مِنْ أبيه فِي عكس اتجاه الريح، ثم صب فِيه ماءً صافيًا، ثم غمر فِيه ثلاث حصوات، بترتيب أحجامها، الأولي صغيرة، والثانية أكبر قليلًا، والثالثة أكبر منهما، وكانت فِي حجم بيضة الدجاجة أو نحوها. وكانت الحصوات الثلاث ملساء بيضاوية الشكل يشوبها احمرار مِنْ أحد جنباتها. ثم غرز «كوكاب الكجور» بجانب إناء القرع ومحتوياته باتجاه الريح. وجعل يطوف حولها ثلاثًا ويتوقف وهو يقرأ شيئًا أو هكذا خُيِّل له، ثم يتفل داخل إناء القرع ثلاثًا، ثم يعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع. ينزع «كوكاب الكجور» ويتجه به صوب أبيه، ويلكزه به حتى يصرخ، ثم يضحك مقهقهًا ومحدثًا أباه:

• ولدك قرب شديد.. جاي لموته.. تدقه المطرة.. وتكتله الصاقعة .. تقع ليه فِي نص رأسه..

.. لمْ يستطع الأب أنْ يرد كيد الكجور الشيخ، الذي تراجع ليقف فوق إناء القرع جاعله بين قدميه وممسكًا بعصاته ذات الرأسين، ومضى يتحدث بصوتٍ عالٍ، رافعًا يديه إلى السماء. أظلم المكان فجأةً، وسُمعت أصواتٌ مختلفة تأتي مِنْ بعيد، فجأة دار المكان وكأنَّ عاصفة هوجاء قد عصفت به، ثم سكت كل شيء، وسقط الكجور الشيخ بعيدًا عنْ إناء القرع، وهو فِي حالةٍ يرثى لها وجسمه يتصبب عرقًا، وعيناه الحمراوان كأنهما فوهتا بركان.

.. استيقظ الطيب ود العمدة مِنْ نومه هلعًا فزعًا، وأنفاسه تتسارع بلا توقف.. تلفت حوله فلمْ يجد شيئًا سوى حصانه والأشجار التي يتقيان بها مِنْ الشمس والكجور الشيخ. بسمل وحوقل وكبر، واستغفر الله، ونهض مِنْ مرقده متناولًا إبريقه، صب قليلًا مِنْ الماء وتجرعه بنهم وهو يشعر بعطشٍ شديد، وتناول حجره وتيمم صعيدًا طاهرًا ثم صلى ركعتين وأتبعهما بما يلزمهما مِنْ الخشوع والدعاء. أحس ببعض الراحة، واستعاد بعض نفسه، ثم صب بعض الماء وسقى حصانه واطمأن عليه. عاد ليقتعد الأرض على فروته، وهو يسأل نفسه: «شنو البخلي الكجور الشيخ بدور يكتلني؟.. هو مكجن أبوي العُمدة فِي شان حبسني.. القلبو علي أنا شنو.. وليه لي هسة ما

كتل أبوي العُمدة.. العمدة ليه أكتر مِنْ تمنتاشر يوم غايب شان هو حابسه.. كان هو كايسلو كان كتله.. الكلام ده فيهو شيتن أعوج.. الزول ده ما داير أبوي العُمدة.. دايرني أنا تب.. كان كدي يا الكجور يا أنا يا أنت.. إلا الواطة دي ما بتشيلنا الاتنين».

.. شعر بشيءٍ مِنْ الراحة والاطمئنان يسريان فِي داخله، فعلى قسوة حُلمه فالعُمدة سيكون بخير، على الأقل حتى يلتقي بالكجور الشيخ. لكن! ما زالت الحيرة كما هي.. لِمَ انقلب عليه حتى أراد قتله؟.. لمْ يجد ردًّا مناسبًا لسؤاله، لكنه استنتج أنَّ الكجور الشيخ استغل أمر حبسه.. فأسر أباه لكي يدفعه للبحث عنه، ويجبره على الخروج مِنْ حوش الأرباب إلى قوز السحاحير، يريده بعيدًا عنْ أرضه وأهله ومحبيه.. لماذا؟ لمْ يحصل على أي إجابة. دخل عليه وقت صلاة الظهر، فتيمم وصلى مُقصرًا وجامعًا.. ثم مد جسمه على «تبروقته»، وأرخى عضلاته، واضعًا يده على رأسه، ظل يفكر حتى أصابه شيءٌ مِنْ نعاس فنام.

.. رأى الكجور الشيخ مرة أخرى فِي مكان مغلق شديد الظلمة.. كان مرعوبًا.. يمسك بعصاه ذات الرأسين، ويهش بها على شيءٍ ما.. وكان يصرخ.. صراخًا مهولًا.. ثم يدور ويدور حتى يسقط على الأرض.. ثم ينهض أخرى.. ومعالم الخوف والفزع يرتسمان على وجهه.. حاول أنْ يسد أذنيه كأنه لا يريد أنْ يسمع شيئًا.. فجأة! دخل

طائرٌ ضخم إلى المكان واختطف العصاة ذات الرأسين وطار بها بعيدًا، سقط بعدها الكجور الشيخ وهو يصرخ مِنْ الألم. استيقظ الطيب وهو يلهث.. تعوَّذ بالله وبسمل وحوقل وكبر، ثم تيمم ليجمع قاصرًا صلاتي المغرب والعشاء، ثم يجهز نفسه لمغادرة جبال السلو ووديانها إلى «قوز السحاحير».

.. أسرى الطيب ليلته تلك دون أنْ يتوقف ودون أي مصاعب، واستطاع تجاوز جبال السلو ووديانها والوصول إلى مشارف «قوز السحاحير» عند أول خيوط الصباح، كان قد قرر عدم دخول «القوز» إلا بعد غروب الشمس، يريد أنْ يستكشف المكان، كما يريد أنْ يستخدم سلاح الظلام حتى لا يمكن الكجور الشيخ مِنْ السيطرة عليه. وكان حدسه سليمًا، إذ إنْ الكجور الشيخ قد زرع رجالًا أشداء عند مداخل «القوز» الأربعة. بحث عنْ مكانٍ يأخذ فِيه قسطًا مِنْ الراحة ويخفيه مِنْ العيون. وجده تحت ربوة تبعد قدرًا مِنْ المدخل الشمالي «للقوز». كانت مكانًا جيدًا للاختباء خاصة أنها عكس اتجاه الريح وعليه فإن الرياح تغشى «القوز» أولًا، وهذا سيمكنه مِنْ المراقبة، وسماع بعض ما يدور، دون أنْ ينتبه أحدٌ لوجوده. قرر أنْ يستخدم الحيلة وأنْ يمتنع عنْ إسالة الدماء إلا مضطرًا. كما قرر أنْ يتسلل إلى معقل الكجور الشيخ عند منتصف الليل.

.. مضى الوقت ثقيلًا، لكنه كان كافيًا ليستكشف المكان، شاهد

العمدة مستلقيًا على جانبه فِي ساحة تقع فِي المنتصف، تحيط بها القطاطي مِنْ كل مكان، مِنْ بينها قطية كبيرة تختلف فِي شكلها وحجمها عنْ الأخريات. شعر بأنه قد شاهد منظر هذه القطاطي مِنْ قبل، إنها تشبه تلك القطاطي التي شاهدها فِي فريق العبيد الذي أنشأه العُمدة ـ عند سفح جبل إبليس ـ وتديره الرضية. بدا واضحًا أنَّ القطية الكبرى ـ والتي تشبه إلى حدٍ كبير قطية أبيه فِي فريق العبيد ـ هي قطية الكجور الشيخ، التي يقوم على حراستها عملاقان يشبهان شخصًا ما رآه قريبًا، هما بالقطع يشبهان مرجان ود دمباوي عبد أبيه وقائد جيشه الخفي، ما هذا التعقيد؟.. كيف فات على العُمدة كل هذا؟ لمْ يكن هناك وقت للإجابة على كل هذه الأسئلة.. ما يهمه الآن أنَّ أباه العمدة ما زال حيًّا لكنه شديد الإعياء، يكاد لا يشعر بالشمس، ولا يتقلب إلا على فتراتٍ طويلة. ورغم اطمئنانه على أبيه، إلا أنَّ الهرب به سيكون صعبًا وربما مستحيلًا، وقد يكون مجازفة تودي بحياتهما. تحقق أنه لنْ يستطيع وحده قتال كل هؤلاء العمالقة، إلا بالحيلة. شاهد بعض الحراس يشعلون أربعة مشاعلٍ كبيرة حتى يضيئون الساحة التي تتوسط بيوتهم. وكانت المشاعل الأربعة تضيء المكان كالنهار، خرج الكجور الشيخ ليتفقد أسيره، ثم جعل يسمر قليلًا مع أهل «القوز»، بعدها تفرقوا جميعًا إلى مساكنهم.

.. تسلل عند منتصف الليل بعد أنْ سكن جميع أهل «القوز» ودون

أنْ يلحظه حراس البوابة الشمالية. وصل بخفة الفهد إلى الساحة المتوسطة، تحرك دون أن يصدر صوتًا باتجاه العمدة الملقى وسط الساحة دون قيد، هزه فلمْ يتحرك، همس فِي أذنه: «يابا العمده.. يابا العمدة.. أنا ولدك الطيب.. سامعني يابا».. لمْ يتحرك، فأعاد مقاله مرة أخرى بدأت عيناه تتحركان، لكنه لا يشعر به، قال يحاول إيقاظه: «يابه أنا جيت شان نصد الحوش سوا.. أنا ولدك الطيب يابا العُمدة..»، تحرك العمدة حركة لا تكاد تحس، لكنها كانت كافية ليدرك أنه على ما يرام، فتح عينيه.. أبصره وتبسم، حاول أنْ يحمله فخرجت منه أنة، فأغلق فمه بحنو، وقال: «لا يابا العُمدة.. ما تتكلم.. شان ما فِي واحد يسمعنا».. نظر إليه بعين دامعة وتبسم مرة أخرى. لمْ يهنأ الطيب بالهدوء طويلًا، إذ سمع قهقهة عالية، فالتفت ناحيتها فإذا هو محاصر مِنْ كل طرف بالساحة، وإذا الكجور الشيخ يقول له ساخرًا:

• جيت لي قضاك برجليك.. أنت كنت فاكرني ما عارفك بتصل لي هنا؟.. تبقى غلطان.. أنا الوصلتك هنا..

ترك أباه وأرقده فِي وضع يسمح له أنْ يرى ويسمع ما يحدث، ثم نهض فِي هدوء وابتعد عنْ أَبيه إلى أطراف الساحة، أدرك أنَّ معركته قد بدأت.. ويجب أنْ تنتهي قبل بزوغ الشمس.. فالكجور الشيخ سيكتسب قوة إضافية إذا ظهرت الشمس. كان يراقب حركاته جيدًا، تركه يتحرك حتى توسط المسافة بينه بين أبيه، لمْ ينبس ببنت شفة، مما

أغاظ الكجور الشيخ فقال:

• شنو سكت.. ما قلته فارس.. الليلة تعرف كيف أولاد العرب قلبهم كبير.. وخوافين..

ابتسم الطيب ابتسامة ساخرة وأجابه:

• بتعرف تتكلم كلام العرب كويس.. طيب مالو نفسك قايم.. خايف مِنْ شنو ..

أحس بأنَّ كلماته استفزته، فتحرك بعض خطواتٍ باتجاه اليسار بحيث يراه العُمدة، لكن الكجور الشيخ صاح به:

• ماشي وين يا الطيب؟.. عايز تهرب تخلي أبوك مجدوع فِي قوز السحاحير.. تقطع المسافة دي كلها شان تخلي أبوك فِي قفاك وتورينه عجاج كرعيك..

أدرك أنهما فِي مرحلة عض الأصابع، مَنْ منهما سيصبر حتى يسيطر على الآخر. أجابه:

• أنت بتعرف المتلي ما بيجري.. إلا قول لي.. ليه بتدور تكتلني.. شن سويتلك.. سمعته زمان إنك كجرتني كجورن أبيض.. إلا باين الكلام ده مو صاح.. وأنت كجرتني كجورًا أسود.. الله يسود عليك عيشتك فِي القبل الأربع..

لمْ تتغير ملامحه، لكنه بدا ضعيفًا حين قال:

• زمان أبوك ده جاني وقال عايز يحفظك مِنْ مرته التانية ومن

عمايل إخوانك لما تكبروا.. وفعلًا جابك هنا وكجرتك كجورن أبيض.. إلا بعدها بقت تظهر عندنا حاجات غريبة.. شي حرايق.. وشيتن جفاف.. وشيتن بقرنا يموت بلا سبب.. مشيت للكجور الزعيم.. شاف الحاجات دي جايه من عندك.. وقال لي الولد ده كان كبر بكتلك.. وبحرق قوز السحاحير كله.. حاولت أكتلك مِنْ زمان إلا ما قدرته.. وعيب الكجور الشيخ يكتل ليه شافعن صغير.. ودَّاك أبوك لأولاد الريف شان تقرأ القرآن.. جيت زول تاني.. حتى الكجور الأبيض فك منك.. سلطت عليك السُرة بنت عوج الدرب القبيل أبوك جابك هنا شان يكجرك منها.. وسلطت عليك أخوك فرح وكرهته فيك.. إلا القرآن حفظك لمن جيت لي موتك بي كرعيك..

شعر أنَّ أباه يصغي إليهما، وأنه يتفاعل لما يقال، اتجه إلى حيث أحد «الأزيار» المثبتة على طرف الساحة، تناول «كوز» الماء، وملأه دون أنْ يشرب، عاد إلى مكانه، و«كوز» الماء الممتلئ فِي يده، وهو يراقبه، وقف فِي نفس المكان حتى يراه أبوه، وقال متحديًا:

• بس أنت لو كتلتني الأمانة اللي ليك عندنا ما بتشوفها تاني.. هي قاعدة فِي الحفظ والصون.. أرجع بالعمدة.. تجيك صادة.. أموت أنا ولا يموت العمدة.. تاني ما بتشوفها تب.. وبعد تمر ثلاثة أيام بلياليهم.. بجيك جيش مِنْ حوش الأرباب رأسه عندك وضنبه عند حوش الأرباب.. إلا الواطة دي تنفلق نصين وتندفن تحتة.. إلا فوق

ضهرها ما بتلقالك مكانة ..

أبدى الكجور الشيخ انزعاجه الشديد، لكنه حاول أنْ يتماسك، وسأله:

• أمانة شنو المابتجيني صادة.. أنت بتغش منو.. داير تطول فِي أيامك.. أنت ميت ميت بعد جيت لي هنا بي كرعيك ..

قال متحديًا :

• قلت لك كان كتلتني ما بتجيك صادة.. مرجان ولدك ما بجيك صادي.. أنت قايل الزيك ده.. بِقدر يغشنا..

شعر بهول المفاجأة عليه، وأحس بأنه فت عضده، وكان هذا كل الذي يريده، فقذف بالماء إلى أحد المِشْعَلَين خلفه، فانطفأ. واهتزت ثقة الكجور الشيخ بنفسه، وصرخ قائلًا:

• مرجان ولدي بجيشه.. يدبح عيال العرب كلهن.. والله ما تسوي ليه شيء.. وأوعه تاني تطفي النار.. إنْ سويته بكتلك ..

لمْ يرد عليه لكنه قذف بقية الماء فأطفأ المشعل الآخر الواقع خلفه، وأظلمت الساحة بعض الشيء، دب الخوف فِي نفس الكجور الشيخ وتراجع إلى الخلف فاقترب مِنْ العمدة دون أنْ يدري، فقرأ الطيب الآية:

• «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ»

وجعل يكررها بصوتٍ جميلٍ وهو ينظر إلى أبيه نظراتٍ ذات معني، وكان يكرر كلماتها الأخيرة أكثر مِنْ مرة «وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ»، حتى أومأ له العُمدة برأسه، فتقدم خطوتين تجاه الكجور الشيخ الذي تراجع مثلهما، كانتا كافيتين ليسحب العمدة العصا ذات الرأسين مِنْه. لمْ يصدق الكجور الشيخ أنْ سلاحه الأمضى قد جرد منه وأنه ما عاد قادرًا على «الكجوجية»، حاول الهرب إلا أنَّ سيف الطيب المشهور أوقفه، فركع يستجديه واستسلم له وباستسلامه ركع «قوز السحاحير» كُله مستسلمًا. قيده جيدًا وأمر بأن يسجن فِي قطيته حتى الصباح، ونهض إلى أبيه يرفعه عنْ الأرض، وهو يهمس: «حمدا لله على السلامة يابا العمدة.. بدورك ترتاح للصباح.. بعدها لازم نمشي نشوف عقابنه.. كان اتأخرنا هنا هناك بتخرب، وهنا الكجاجير بتلموا علينا وحالنا يبقى صعب.. والكجور الشيخ ده ما بنخليه فِي قفانا.. بنسوقوا معانا.. هسه أنت ارتاح الله يصبحنا بالخير».

(42)

وصل الطيب وأبوه والكجور الشيخ سرًّا عند منتصف الليل إلى بيت الأم الكبرى الهدية بنت الشريف، بعد أنْ قضيا نحو أربعة أيام بلياليها منذ أنْ غادروا «قوز السحاحير». كادت فرحتها بعودتهم أنَّ تبلغ بها إلى عنان السماء لكن الطيب كتمها، وحذرها مِنْ أنْ يعلم أحدٌ بوصولهم، حتى أمه فاطنة بنت حمد النيل لا يجب أنْ تعلم شيئًا. أسر لها أنَّ الخطر ما زال قائمًا، وأنَّ هناك أمورًا لا بُد مِنْ تسويتها أولًا والسيطرة عليها كاملًا ليتم الإعلان عنْ عودة العمدة. وأنْه مِنْ الضروري أنْ ينعم العُمدة نفسه ببعض الراحة ويستشفي مِنْ الإعياء الذي أصابه. حكى لها الكثير مما أصابها بالحيرة. لكنها تماسكت ثم دخلت بهم سرًّا إلى حوش العمدة ثم غرفته الكبيرة الخاصة، دخلوها جميعًا دون أنْ يراهم أحدٌ. ناقلت نظراتها بين الطيب والأسير المقيد، فأعلمها بضرورة أنْ يبقى معهم فِي نفس الغرفة الكبيرة حتى لا ينكشف سر عودتهم. همست فِي أذنه: «باقي ثلاثة أيام مِنْ الشهر»..

ابتسم وأجابها: «ما تخافي يُمه.. إنْ شاء بحصل خير.. الجمعة عقب باكر بينتهي كل شي إنْ شاء الله.. بس بدورك مِنْ الصباح ترسلي مرسال يقول للرضية بنت الإزيرق ست الإنداية، أمنا الكبيرة بتدور تشوفك بعد صلاة العشاء».. أحس بضيقها، سألها: : «مالك يُمه؟».. لمْ تجبه، فكرر سؤاله، نظرت إليه عاتبة، وأجابته مستنكرة: «بتدور توسخ بيت أبوك بعوين الإندايات».. ابتسم فِي وجهها، وقال: «والله يمه ده ما قصدي.. إلا قلت لك فِي أمور لازم تنقضي أولًا.. والأمور دي غير الرضية ما في زول يقضيها».. زادت هذه الكلمات القليلات مِنْ غضبها وحنقها.. وعجز الطيب عنْ تفسير ذلك.. إلا أنه قال: «أنت يمه ما عاجبك كلامي.. إلا كان ما بتدوريها تيجي خليني النمشي ليها بعد صلاة الفجر.. شان ما في زول يشوفني».. قالت وهي تشيح بوجهها بعيدًا عنه: «لا.. لا.. برسِل لها مرسال.. إلا دي أول وآخر مرة تدخل علينا في بيت العمدة الكبير ..» ثم تركتهم وخرجت.

لمْ يغمض جفن الأم الكبرى وهي تقبل طلب الطيب وإصراره على دعوة الرضية بنت الإزيرق للحضور، وأي أمرٍ مهم لا يمكن أنْ يعالجه غيرها. مرة أخرى بعد كل هذه السنين ستجد نفسها أمام الرضية.. مرة أخرى سيكون رجل واحد متنازعًا بين السيدة والأمة.. لا يمكن أنْ يكون هذا الأمر بعيدًا عنْ العُمدة والحوش.. صاحبة الإنداية هي مَنْ فِي يدها الحل.. كيف يمكن تصديق هذا.

أشرقت الشمس بنور ربها، ونادت الهدية بنت الشريف على مرسال، وطلبت منه الذهاب إلى الإنداية، والعودة بالرضية لمقابلتها بعد صلاة العشاء دون أنْ يراهما أحد.. فرح مرسال بالذهاب إلى الإنداية لكن فرحته شابها العجب والدهشة، وقال متمتمًا: «جنى عرب ديل ما بتقدر تعرف فِي جوه رأسهم فِي شنو.. هسع يمه دي شن بتدور بالرضية؟.. لا بتشرب العرقي لا بتدور المريسة.. شن بتدور بالرضية؟».. لكنه لمْ يستطع أنْ يرفض.. بل سعى إلى هناك بسرعة.

.. ولمْ يكن حال الرضية بأفضل مِنْ حال مرسال، فقد جعلت تقلب هذا الطلب العجيب فِي داخلها لكنها لمْ تجد تفسيرًا.. كانت تدرك أنَّ الهدية بنت الشريف وهي السيدة والأم الكبرى لنْ تستطيع التنازل والحضور بنفسها لمقابلتها وهي الجارية صاحبة الإنداية.. وكانت تعلم أنَّ الإنداية ليست بالمكان المناسب الذي يمكن أنْ تزوره حرة بقدرها.. وكانت تعرف أنه مِنْ المنطقي للأم الكبرى أنْ تدعو الجميع إلى مقابلتها حتى وإنْ فِي السر.. لكنها عجزت أنْ تدرك السبب الذي مِنْ أجله طلبت لقاءها.. والعمار بينهما مهدود والشقة بينهما بعيدة.. والأمد بينهما قد طال.. إذن فيم تريدها؟.. لكنها قررت القبول.. فمن ناحية هي لا تستطيع الرفض وعليها أنْ تذعن لأمر سادتها.. ومِنْ ناحية أخرى يدفعها الفضول لمثل هذا اللقاء.

.. مر الوقت بطيئًا حتى دخل العشاء، وقررت الرضية الدخول

إلى الحوش وأهله يصلون صلاة العشاء فِي جامع أولاد الأرباب.. وحددت أنْ يكون ذلك بعد الركعة الثانية.. نفذت ومرسال الخطة كما رسمتها.. أدخلها مرسال فِي غرفة جانبية بعد أنْ استأذن الأم الكبرى.. انتظرت بعض الوقت فِي ضيق.. مرت الثواني والدقائق كالدهر.. لمْ تحضر الأم الكبرى.. ربما هي تصلي صلاة العشاء.. هكذا حدثت نفسها.. وجلست تنتظر.. بعدها بلحظات دخل الغرفة الطيب ود العمدة فلمْ تصدق نفسها، ولمْ تصدق ما رأت.

.. لمْ تصدق أنها تراه أمامها مرة أخرى، كادت أنْ تسقط. سألته همسًا عنْ العُمدة فأجابها بأنه بخير، شعر بلهفتها عليه لكنه أشار إليها بألا تتحدث عنه ثانية وهي فِي بيت الأم الكبرى، وترفق بها لأنها لنْ تستطيع أنْ تراه الآن. قال يحدثها وهي تتأمله فِي إعجاب:

• اسمعيني يا الرضية.. أول بالتبادي ما فِي زول يعرف إننا صدينا.. لا أنا ولا أبوي العمدة.. إحنا كلنا واقعين فِي مشكلة لازم نحلها الأول وبعدين نشوف شنْ نسوي..

قاطعته فزعة:

• مشكلة.. أبوك طيب ولا فيهو حاجة أنت داسسها علي..

أجابها:

• أبوي العُمدة ما فيه شيء.. تعبان شوية.. أبوي العمدة ما هو المشكلة.. المشكلة عندك أنتِ.. فوق مملكتك..

نهضت مِنْ مجلسها وهي تضرب صدرها، وقالت وقد ضج وجهها بصورٍ مختلفة للدهشة والعجب:

• شن بتقول يا ود العمدة؟.. بتدور تتهمني فِي شرفي؟.. أنا أبوك لما دخل على كنت فتاة.. وغيره ما دخل عليَّ راجل..

نظر إليها متعجبًا، وقال:

• هسع الجاب الكلام الشين ده شنو.. فِي زول سألك منه.. شنْ بتعرفي عنْ مُرجان ود دمباوي؟.. العبد اللِيل العمدة الفي فريق العبيد..

هدأت قليلًا، لكنها استنكرت سؤاله:

• .. ده عبد اشتراه العمدة معاهو أربعة تانيين: كاكنجا، وكرم الله، وأب كريق، وساطور.. جابن نخاس مِنْ سوق «الكريقة» وباعهم لي أبوك.. والعمدة جابن الفريق.. الكلام ما تم ليه حول.. إلا بتسأل عنه ليه؟

لمْ يجب سؤالها، لكنه استفسر سائلًا:

• مِنْو السواهو كبير العبيد.. رئيسهم يعني؟

أجابته بدهشة واضحة:

• يعني منو غير أبوك العُمدة.. هو الاشتراه.. وهو السواه رئيس لعبيده هناك.. لكن النصيحة بمرقة ولو على رقبتي.. مرجان مما جاء داخل على فريق العبيد.. ما شفنه منه العيب.. عبد فارس.. وقوي..

إلا ما عنده شغلة بالنسوان.. وعيبه التاني ما بصلي تب.. وأكان سكر بسوي المشاكل..

لمْ يعلق على حديثها لفترة حسبتها طويلة فسألته:

• شن سوا؟.. لغاية ليلة أمس كان فِي أمان الله فِي الفريق.. والفريق كله جاهز كان درته للدواس بسندك..

قال وهو ينظر إليها نظراتٍ ذات معنى:

• مرجان ده ود الكجور الشيخ.. وزعيم «قوز السحاحير».. ما فِي زول باعه للعمدة.. ده شرك شان يدخل الحوش.. مرجان ده الدسه دقيق العروق فِي أكل العُمدة الإنتِ زودتيه ليه يوم كان عندك.. شان كده قدر الكجور الشيخ يقبض عليه ويحجزه عنده.. كانوا متابعينه لغاية ما أكل ونام مخدر.. ربطوه بالحبال وساقوهوا القوز عندهم.. وهسع مرجان راجي يسمع مِنْ أبوه الكجور الشيخ الإشارة شان يهجم على الحوش.. ويقضي على أولاد الأرباب نفر نفر ..

صرخت مستنكرة:

• ما بصدق!.. شن بتقول يا ود سيدي؟.. أنت متأكد؟

لمْ يجبها، تبدلت تعابير وجهها وسيطر عليها الخوف، صرخت:

• .. سجمي! عكاشة ود عوج الدرب.

عجب لذكر اسم عكاشة ود عوج الدرب وهما يتحدثان عنْ مرجان ود الكجور الشيخ، سألها:

• شنْ دخل عكاشة فِي كلامنا ده يا الرضية.. أنت طشيتي..

أجابته وهي فِي حالة ذهولٍ تام:

• عكاشة مسجون فِي فريق العبيد..

قال، مستنكرًا:

• شنو؟.. شن بتقولي أنتِ؟

.. وحكت الرضية بنت الإزيرق للطيب عنْ خطتها البسيطة والسهلة التي أنقذت بها الحوش فِي غيابه وغياب العمدة نفسه.. خطة تعرفها حواء جيدًا.. حيث اتفقت مع مرجان ود دمباوي على تجنب «الدواس» واستخدام الحيلة والإغراء الأنثوي بدلًا مِنْ السيوف والدروع. كانت تعلم قدر العمدة عوج الدرب وأولاده عند أهل الحوش وما جاوره مِنْ «حيشان» و«فرقان» وغيره. وكانت تعلم أنَّ المساس بعكاشة بسوء يعني بحورًا مِنْ الدماء لا أمل فِي إيقافها، لذا قررت استخدام سلاح النساء وجره وجيشه المكون مِنْ نحو مائة مِنْ السادة والعبيد إلى الإنداية أولًا بحجة ضيافتهم ثم السيطرة على عقولهم بالخمر وعلى قوتهم بأفخاذ النساء. وحين تذهب العقول وتخور القوى، يسهل السيطرة على الرجال الذين يضعون كل همهم فِي ذكورهم. كانت مهمة مرجان ود دمباوي ورجاله تقييد السُكارى وحملهم بعيدًا إلى فريق العبيد، وإكرام وفادتهم ومعاملتهم بإحسان حتى ينجلي الأمر. وكان الجزء الثاني مِنْ الخطة هو تسريب الأمر إلى

السُرة بنت عوج الدرب وتصدير الهلع لها، فتعجز عنْ السوء حتى يعود الرجلان. كانت تدرك بأنَّ السُرة سيصيبها الخوف، وعلى خوفها لنْ تقدر على كشف سرها إلى أي مِنْ أهل حوش الأرباب، ولنْ تجد أمامها إلا أهلها لتخبرهم باختفاء شقيقها، وبذا ستكشف عنْ كل خططها للجميع، حين تجيبهم على السبب الذي مِنْ أجله أراد أنْ يغزو عكاشة حوش الأرباب.

أدرك الطيب أنَّ الأمر قد صار أكثر تعقيدًا، وعليه أنْ يعالج الأمور بأسرع مما كان يتوقع. أجرى بعض التعديلات السريعة والمهمة على خطته، وأمرها أنْ تتحرك صوب فريق العبيد عند منتصف الليل، وأن يكون فِي معيتها مرسال، وأنْ تتركه عند الشجيرات الثلاث التي ترك عندهن العمدة، دون أنْ تخبره بعودتها، وألح عليها أنْ تصل إلى هناك قبل الفجر، على ألا يحس بها أحد، وأنْ لا تخرج مِنْ دارها حتى يناديها.

.. حفظت ما هو مطلوب منها عنْ ظهر قلب.. وخرجت متسللة حتى لا يراها أحد متجهة إلى الإنداية وفِي معيتها مرسال.

(43)

استعد الطيب كي يرحل صوب فريق العبيد عند سفح جبل الأبالسة بعد أنْ اطمأن على تعافي أبيه وشفائه التام. أخبر والده العُمدة بكل ما جرى فِي غيابه، ورجاه ألا يتحرك أو يسعى لرؤية أي شخص قبل عودته فِي صبيحة الغد، ليصليا الجمعة سويًا فِي جامع حوش الأرباب الكبير. استفسره العُمدة عنْ خطته فشرحها له حتى يطمئن. دعا له أبوه بالتوفيق والسداد وأمره ألا يسفك الدماء بسبب الانتقام. ابتسم فِي وجه أبيه وقبل رأسه، ومضى إلى حيث يرقد الكجور الشيخ.

.. نظر إليه كأنه يعاتبه، وأدرك ما رآه أنَّ الساعة آتية لا ريب فِيها. ارتعد وهو يتفحص وجه الطيب، وقال: «خلاص بتدور تكتلني يا ود العرب».. لمْ يجبه، وجعل يقيد قدميه ويديه بسلاسل مِنْ حديد. والكجور الشيخ ترتعد فرائصه وهو ينظر إليه فِي خوفٍ وهلعٍ شديدين. والطيب لا يتكلم، إنما يحدق فِيه بعين ساخطة. تركه فِي مكانه، وذهب إلى زاوية مِنْ الغرفة تناول مِنْها إناءً مِنْ القرع، وضعه أمام أسيره على

بُعيد مترين، وضع فيه شيئًا مِنْ الماء النظيف، وغمر فِيها ثلاث حصوات بأحجام مختلفة، ثم أتي بشيءٍ يشبه الكوكاب، بعدها وقف على جانبها، وأمسك بالعصاة ذات الرأسين، ولوح بها فِي الفضاء ثم أشار بها إليه. فزع الكجور الشيخ وهو يرى الطيب يلوح بالعصاة فِي الهواء بشكلٍ معين. شعر بأنه يكتب شيئًا أو يرسم شيئًا ما، وخُيِّل إليه أنْ الماء فِي إناء القرع يغلي كلما كتب أو رسم الطيب شيئًا، فسيطر عليه الجزع. وصار يصرخ: «ولدي مرجان لا.. ولدي مرجان لا.. البتدورو بنسويهو ليك.. ما تكجرنا.. العصاية لا.. كجوره أسود.. وأحمر.. كل رأس فِيها يكتل بلد.. الموية بتغلي.. بتحرق ولدي مرجان.. ولدي مرجان لا ... لا تكتله».

كان العُمدة يراقب ما يفعله ابنه الطيب، ويراقب انعكاس ما يفعله على الكجور الشيخ، وكان يعجب ويسأل نفسه: «الولد ده بيسوي فِي شنو؟.. والكجورية البعمل فيها دي اتعلمه وين ومتين؟.. إلا شيتن يخوف الكجور الشيخ قدر ده.. ده شيتن ما شيت نصاح.. الود ده مِنْ يومه ما هين.. فارس نجيب.. الله يبارك فيك يا ولدي.. ويسدد خطاك وين ما تقبل.. راضي عنك دنيا وآخرة».

.. أوقف الطيب طقوسه، وقد رسم ملامح صارمة على وجهه، واقترب مِنْ الكجور الشيخ، قائلًا فِي حزم:

- أنت عارف إنه روحك وروح ولدك مرجان فِي إيدي.. وعارف

إني قلعته مِنك الكجورية قلع فرسان.. جيتك فِي مكانك وشلتها بضراعي ده.. إن بتدور تنجى وتنجي ولدك مِنْ الموت بلا دم.. تسمع الكلام البقوله ليك وتخليه فِي قدامك.. إلا كان بتدور تخون بدفن ولدك في الواطة قدامك.. وبرميك للمرافعين يأكلوا لحمك ..

رغم ملامح الخوف الغالبة على وجهه، إلا أنه أدرك ألا خلاص له إلا بالاتفاق مع الطيب، فأجابه بصوتٍ خفيض:

• قبلان.. البتدورو بسويهو ليك.. الخاين الله يخونه..

قاطعه بحسم:

• أنت بتعرف الله مِنْ وين؟.. متل ما قلت لك إنْ شفته منك أو من ولدك شيتن قلبي أباه بجز ريسينكم.. وأول ما تشوف ولدك تسوقه قدامك وتنقرع.. فاهم..

أومأ برأسه مذعنًا لما يريده الطيب. ما زال العمدة يراقب ويسمع ما يقال. ويعجب للقسوة التي يراها فِي ملامح ولده الطيب. مِنْ أين جئت بها يا بُني؟ هل هي أيام السجن الذي أدخلتك فِي غياهبه ظلمًا؟.. فجأة؟ انتبه لأمرٍ غريب لمْ يحدثه به ابنه، حدث نفسه قائلًا: «الطيب خبرني بي كل حاجة حصلت فِي قفاي.. إلا ما قال لي شاف مرجان وين؟.. ولا مِنْ وين عرفه وعرف طريق فريق الفقرا؟.. المكان ده الجن الأحمر ما بعرفه شن عرفك بيه يا الطيب يا ولدي؟.. المكان ده ما في غيري والرضية البنعرفه ..».. وحين ذكر اسم الرضية لمْ يدرِ أيبتسم أم يغضب.. سأل

نفسه مرة ثانية، وهو يتحسس عورته: «حرم يا الرضية كان جبت سيرة للطيب عن آخر ليلة إلا أتكيك وأنزل فيك ضبح.. الله يلعنك يا الكجور الشيخ.. ما لقيت تكتل إلا ده.. بقى ما نافع إلا يبول بس.. وفي البول بقى يقطع.. والله يسترك يا ود الأرباب مِنْ الفضيحة اللي لت الرجال.. أربع نسوان ودكشة خدم.. تسوي بن شنو بعد مات».

.. أخرجه الطيب مِنْ وسواسه وهو يدعوه إلى صلاة العشاء، قدم ابنه ليصلي به، فهو يخاف ألا يكون خشوعه تامًّا وخالصًا لوجه الله. وبعد أنْ أدياها وما لزمها مِنْ السُنة والدعاء استأذن أباه للخروج.. فهو يريد أنْ يصل إلى فريق العبيد قبل منتصف الليل.

.. خرج الطيب متخفيًا، يقود حصانه ويسحب مِنْ خلفه الكجور الشيخ مكبلًا بالأغلال والسلاسل. كانْ يريده أنْ يمشي على قدميه إلى الشجيرات الثلاث حيث سيلتقي مرسال، حتى تظهر عليه علامات التعب والإرهاق فيسهل أمر السيطرة على ولده مرجان ولا تراق الدماء. وتجنب الحديث معه، كما تجنب أنْ يبدو عليه أي مظهر مِنْ مظاهر العطف أو الإنسانية، فحالات الحروب قاسية على طبيعة الإنسان.

.. مضت ساعتان وهما على هذا الحال، اقتربا مِنْ الشجيرات الثلاث اللائي ظهرن كالشياطين فِي تلك الليلة المقمرة، بدا شبح شخصٍ جالسٍ بالقرب منهن واضحًا، سأل نفسه: «كيف سيلتقيه مرسال هذه المرة؟».. سيكون أول مَنْ يراه بعد الأم الكبرى والرضية بنت الإزيرق. خِيل إليه

أنَّ شبح مرسال يتحرك بسرعة، ويحرك معه حماره العتيق كأنهما يتخفيان. لمْ يأبه بهما.. كان يدرك أنَّ مرسال يخاف الظلمة ولا يحب أنْ يجلس فِيها وحيدًا. اقترب مِنْ الشجيرات دون أنْ يخرج مرسال مِنْ مكمنه، صاح به:

• أمرق جاي يا مرسال ..

سمعه يتعوذ مِنْ الشيطان ويبسمل ويحوقل، فكَر يعيد قوله:

• أمرق جاي يا مرسال.. ياني أنا الطيب ولدك.. أمرق يا راجل يا عجوز..

صاح مِنْ مكمنه وهو يكبر:

• الله أكبر.. الله أكبر.. من قلته عجوز ياكه الطيب وليدي ..

واندفع نحوه يقبله، ويضمه إليه، ودموعه تجري بلا حابس، وهو يردد:

• حمد الله على السلامة يا وليدي.. ميتين الجية؟.. وصلته الحوش ولا لسه؟.. وين سيدي العُمدة؟.. أنت طيب؟.. سيدي العُمدة طيب؟

أجلسه الطيب بجانبه، وقال يهدأ مِنْ روعه ويمسح دموعه:

• بس يا راجل يا عجوز.. الحمد لله كويس وأخوك العُمدة كويس وهو هسع فِي بيته.. بيت الأم الكبيرة.. مِنْ أمس أول..

أبدى استغرابه، وسأله:

• أنت بتدور تغشني يا وليدي.. أنا ساكن وين؟.. ما فِي بيت أمنا

الهدية..

قاطعه، قائلًا:

• أنت ماناديت الرضية لي أمنا.. وما رجعت معاها.. وبيَّته في الإنداية.. وجيت انتظرته هنا.. ده كله كان مني أنا للرضية ..

تمتم قائلًا:

• والله شيتن غريب.. وأنا أقول ليه أمنا الهدية بتدور الرضية..

فجأة انتبه لوجود شخص آخر بجانبهم، التفت إليه فوجده مكبلًا بالأغلال والسلاسل، جفل مِنْ مكانه، وهو يسأل:

• ده منو يا سيدي؟

حكى الطيب لمرسال عنْ الكجور الشيخ وبعض ما يجب عليه معرفته، لكنه لمْ يتوقع غضب مرسال الذي كاد يفتك بالأسير. أخذه بعيدًا وطلب منه أنْ يضبط نفسه لأن الحوش لا يزال فِي خطر، ولا بُد مِنْ معالجة الأمر دون أنْ تجري الدماء. وشرح له الجزء التالي مِنْ خطته للسيطرة على فريق العبيد الذي لمْ يره مرسال قط. لذا ليس عليه شيء سوى مراقبة الأسير إلى أنْ يصلا إلى هناك.

.. بعد نحو ساعة تقدموا صوب فريق العبيد عند سفح جبل الأبالسة. كان مرسال ينظر إلى الأسير بشك عظيم ويأمل أنْ يخلى بينهما لينتقم لسيديه.

(44)

ضجت وجوه كل مَنْ فِي حوش الأرباب، إلا قلة قليلة، بألوانٍ مِنْ الفرح والسعادة، وقد علموا بعودة عمدتهم وفارسهم بعد أنْ كاد اليأس أنْ يقتلهم. وحضروا زرافاتٍ ووحدانًا إلى بيت الهدية بنت الشريف الأم الكبرى للتهنئة بعودة الرجلين. حكى لهم العُمدة ما جرى له، وكيف أنه فخور بابنه الفارس الذي فعل ما يعجز عنه كثير مِنْ البشر وأعاده إلى الحوش بلا دماء، وسألهم أنْ يشهدوا بأنه راضٍ عنه كل الرضا، وأنه سيخلي بينه وبين الناس فمَنْ أراد أنْ يتبع ما يدعو إليه مِنْ الدين والحياة فلا تثريب عليه، ومَنْ لا يريد ذلك فهذا شأنه.

وشهد بيت السُرة بنت عوج الدرب مشاعر متناقضة، فسيدة الدار تجاذبتها تبايناً عظيماً، تبكي تارة فرحةً بعودة بعلها سليمًا معافى، وتدمع أخرى للعواقب التي ستنشأ حتمًا، حين يعلم زوجها العمدة، والطيب ود فاطنة، والهدية بنت الشريف، وفاطنة بنت حمد النيل،

وبقية أهل الحوش بما كانت تدبر. وكان أكثر ما يزعجها ما سمعته مِنْ باب الله الأعرج وهو ينقل لها أخبار البيت الكبير ومغامرة مرسال والطيب، قال لها: «مرسال قال لينه هم لقوا سيدي عكاشة مسجون فِي فريق بعيد كله عبيد زي كدي.. اسمه فريق العبيد.. بعيد خلاص تحت جبل اسمه جبل إبليس ولا الشيطان ما عارف.. إلا باقي لي سمعته إبليس دي.. أعوذ بالله.. وقال لينه سيدي الطيب بعد قبض علي شيخ الفريق.. فكَ سيدي عكاشة وكم نفر من جنى العرب وكمان شوية عبيد حقينهم مِنْ السجن.. شوية كده اتحدث مع سيدي عكاشة كلام دقاق ما سمعه مرسال.. وأداهم زوادة كتيرة.. وقال ليهم ودعتكم الله.. من محلكم شرقوا لي حوش عوج الدرب.. تصلوا بالسلامة.. سألتُه: سيدي عكاشة طيب.. عاين لي فوق عيني شديد.. وقال لي طيب ما فيه شي.. بس أنا ما كلمته أنه سيدي كان فِي قفا درب الفقراء ..»

لمْ يكن حال فرح بأقل مِنْ حال أمه.. بل كان خوفه وهلعه أعظم.. شعر بالضعف رغم أنَّ أسره قد فك.. وتنازعه الاضطراب واليأس فلمْ يدرِ أيذهب لرؤية أباه العائد أم ينتظره حتى يزورهم. وكانت البنات فرحات بعودة والدهن، لكنهن لمْ يجرؤن لإظهار هذه الفرحة أمام أمهن وأخيهن.

.. انطلقت الزغاريد محلقة فِي فضاءات بيت فاطنة بنت حمد النيل

والدة الطيب.. واستقبل عباس الشقيق الأصغر لفارس الحوش وفود المهنئين فرادًا وجماعات، وقضى جل وقته يحمل الأفراح بين بيت الهدية وبيت أمه، وشعرت الأختان الشقيقتان بالزهو.. فأبوهما وشقيقهما قد عادا ظافرين.

.. لكن الحوش كله لمْ يسعد كما سعدت تاج الملوك، دخلت إلى غرفته لأول مرة بعد أنْ سمعت بعودته. لمْ تكن تدخلها قط فِي غيابه، وانفك لسانها بعد نحو شهرٍ مِنْ هذا الغياب المُر، لا تدري أتزغرد ككل النساء، أم ترقص ككل الفتيات، أم تمسح دموعها وتتجمل لأجل العائد. لمْ تشارك أهل الحوش فروسية ابنهم، كانت تصلي فِي محراب الحب، تصطلي بجنته التي لا تطاق، وناره التي يصعب البعد عنها. وحين رأته لأول مرة بعد طول غياب سقطت مغشيًا عليها، ولمْ تشعر بشيءٍ إلا بعد ساعات، استيقظت فإذا هي ترقد على فراشه، وإذا هو ينظر إليها بعينٍ رفيقة رقيقة باكية، وإذا ست الدار ترقبهما وهي لا تدري أتمنع ابنها أم تتركه يمضي إلى قدره المحتوم.

.. وتباينت المشاعر بين فريق أولاد وراق وفريق أولاد جاد الله، ففي الفريق الأول غلب الفرح على غيره مِنْ المشاعر، وإنْ حزن البعض على ضياع العمودية، ذهبوا جميعًا للتهنئة بقلوب راضية ووجوه مبتسمة. لمْ يكن حظ أولاد جاد الله مِنْ الفرح عظيمًا، بل كان قلة مِنْ شيوخهم فرحين، أما الغالب مِنْ الشيوخ والشباب فقد

كانوا رواح بين الحيرة الكسيفة، والحسرة الناعمة، والحنق القوي الذي لا يخفى وإنْ جاهد صاحبه لإخفائه.

.. وانقسم العبيد والجواري إلى قسمين.. قسم فرح بعودة العُمدة وابنه وارتضى بالعبودية، وقسم فرح بعودتهما، لكنه أقسم أنْ يعيش حرًّا. واتفق القسمان على أنْ يعيشا الفرح كما يجب على أهل المكان الواحد، وينتظران ما ستفرزه الأيام القريبة الآتية.

وعمْ الفرح فِي الإنداية، كما شاع فِي الحوش، وأطلقت الرضية الزغاريد بعودة الفارسين دون أنْ تفصح للزوار وأهلها عنْ الأدوار العظيمة التي قامت بها لأجل الحوش وفارسيه. وأعلنت اليوم خمر وغدًا أمر. غير أنها حكت لهم عنْ فروسية الطيب ود العُمدة، وكيف أنه استطاع السيطرة على مرجان ود دمباوي.. قالت: «كلمني مرسال قال لي.. الطيب دخل على فريق بعيد تحت جبل الأبالسة بالغرب اسمه فريق العبيد الله وحده.. نزل مِنْ حصانه وفِي إيده اليمين عصاية تخوف.. عندها رأسين.. رأس أسود ورأس أحمر.. وقف فِي نص الفريق ونادى على واحد كبير اسمه مرجان.. مرجان جاهو مارق مِنْ قطيته.. إلا مِنْ شاف العصاية فوق إيد الطيب اترقط.. وقعد يرجف ما تقول مرجان الفارس البعرفوا ناس الفريق داك.. الطيب سأله.. أنت منو يا مرجان؟.. اتكلم قدام الناس ديل شان يعرفوك.. وتوريهم أنت هنا في الفريق بتسوي شنو.. مرجان قعد

يتلولو فِي الكلام إلا الطيب نهره وأشر ليه بالعصاية العجيبة ديك.. وقال ليه بتعرف العصاية دي حقت منو ولا بتغباها.. لكن مرجان ما قال الحبة.. أهه طوالي الطيب كورك بيطول حسه نادى مرسال وقال ليه جيب الأمانة.. أهه مرسال جاهم داخل سايق معاه راجل كبير مقيد بالحديد.. مما شافه مرجان قعد يهضرب ويكورك.. أهه الطيب قاله.. تسوق أبوك وخوياتك الأربعة وما أشوف وشكن هنا.. إلا إن درته الشينة بجز ريسينكم جز.. وقام الطيب تاني رفع العصاية وبقى يكتب بها فِي الهواء.. الراجل الكبير قعد يصرخ.. لا.. لا.. لا تكجر وليدي.. لا تكتله.. خلني الاتكلم معاه وبنمشي من هنا توَّه.. الطيب أشار ليه برأسه.. الراجل الكبير مشى لي ولده يحبي.. والولد يعاين له ويعاين للطيب.. أهه شوية كدي بعد وسوس ولده.. قال للطيب بنمرق بكره.. الطيب قال له لا.. تمرقوا هسع.. ما بدوركم تبيتوا هنا الليلة.. بعد شوية لملموا حاجاتهم وتزودوا ومرقوا وشهن يلعن قفاهم».. سمعوا القصة بدهشة شديدة دون أنْ يسأل أحدهم مَنْ هؤلاء؟.. وما الذي أتى بهم إلى هنا؟.. وأين يقع جبل الأبالسة الذي يتدرع به فريق العبيد؟.. وما سر هذه العصا التي تخيف الناس؟.. فقط تنادوا إلى فرحتهم بالسُكر والمجون.

.. كان ود مرسال أكثر أهل الإنداية فرحًا بعودة الطيب ود العُمدة، سالمًا. لمْ يكن يرى فِي عودة العمدة فارقًا. كل الذي أفرحه

وأسعده هو عودة الطيب نفسه أما العمدة فلا شأن له به. كان يجلس عند حفرة الدخان تبدو عليه ملامح الفرح والسعادة رأته ست الدار الحلبية فِي جلسته تلك، فنادت على ألمظ الحبشية والشامة بنت الجاز، وقالت لهما:

• تعالن نضحك علي ود مرسال.. نوريه كُهن النسوان الما بعرفه.. عاينن ليه قاعد كيف فِي حفرة الدخان التقول مستني ليه شيتن غليد ..

أجابتها ألمظ الحبشية بلكنتها المعروفة:

• يلا نشوفي ونضحك.. أصله الليلة كل شي مجانًا.. هسع أنا ذنبي شنو أرقد للرجال مجانًا.. عمدة يجي.. عمدة ما يجي.. أنا مالي..

ضحكت الشامة بنت الجاز وهي تسمع رفيقتيها، وقالت متهكمة وقد اقتربن منه:

• كيد النساء.. الغلب كيد إبليس.. أنتن كان قلبتن على زول الله قال بي قوله..

وصلن عنده، فنادته ست الدار الحلبية قائلة:

• سلام ود مرسال.. اتاريك قاعد فِي حفرة الدخان.. ونحن نفتش ليك مِنْ الصباح.. الناس الليلة فرحانه.. والشغل مجاني الليلة.. عرقي ومريسة وعسلية والهناي داك الما بغباك.. بختك يمكن تلقى الدايره..

نظر إليها شذرًا، وقال بحسم:

• أنت يا الحلبية أنا ما قلت لك.. أنا غير الطيب ود العمدة ما في راجل بدخل علي تاني.. أنت ما بتفهمي يا العايبة ..

قاطعته الشامة بنت الجاز قائلة:

• عرسوها طمعت في الخموش.. ماك عارف يعني إنه الطيب ده ما بحل سرواله إلا فِي الحلال.. ولا ماك عارف ريدته لي الخادم وإنه بدور يعرسه.. وهسع الزي الطيب ده سرواله ما حلاه فِي شان مرة يجي يحله شان يركبك أنت.. أنت جنيت يا ود مرسال.. ولا جنيت.. خت عقلك فِي رأسك شان تعرف خلاصك.. وكان غلبك ونفسك عافت الرجال.. توب لله والرسول..

نظر إليهن بألمٍ شديد، لا يريد أنْ يصدق ما يقلن.. دمعت عيناه فبكى بكاءً مرًا، وشاركته ألمظ بكاءه، ثم تركه ثلاثتهن فاليوم يوم فرح.

(45)

جلس بين الأم الكبرى «زينة النسوان» ـ كما يحب أنْ ينعتها دائمًا ـ الهدية بنت الشريف وولده الطيب، وهو ينظر إليهما فِي زهوٍ وافتخار، ويتحدث إليهما فِي مزاج رائق. كان وولده يأكلان مِنْ مائدة تعج بأنواع مختلفة مِنْ أطيب الطعام، وكانت تنظر إليهما فِي إعزاز، لكنها كعادتها لا تأكل قط مع زوجها. تطعمه أولًا ثم تطعم نفسها، تسقيه أولًا ثم تسقي نفسها. وكانت تطعم وتسقي نفسها بعيدًا عنه فهي كزوجة لا تريده أنْ يراها فِي حاجة مِنْ حاجات الدنيا إلا إنْ كانت له. وكانت تحبه حبًّا لا تستطيع أنْ تحده أو تقدر أنْ ترده، وكان يحبها حبًّا لا يستطيع توصيفه، أو الإشارة إليه، لكن كانت كل جوارحه تشي به. فجأة! تغيرت سحنته، وتعكر مزاجه، ووقفت اللقمة حائرة بين «الخمسة والاتنين».. سعل سعالًا شديدًا واكفهر وجهه، ناوله الطيب بعض الماء، ازدرد منه جرعتين أو ثلاث دفع بها الطعام إلى داخل معدته، لكنه احتفظ بملامح مكفهرة. سألته الأم

الكبرى، وقد جزعت:

• مالك يا أخوي؟..

لمْ يجبها، ولكنه أشاح بوجهه كأنه يريد أنْ يهرب منها، لمْ يعجبها ما فعل، فقالت مستنكرة:

• بقيت تديني قفاك.. مالك يا أخوي بتسوي الأعوج..

أجابها، وهو يريد رضاءها:

• ما في شي يا زينة النسوان.. إلا اتذكرته الجخسة ود أمه.. ولدي البكر البدور يبقى عمدة قبال لا يعرف أبوهو حي ولا ميت.. وأمه السُرة البقت لي زي شوكة الحوت لا بتنبلع لا بتفوت..

صمت برهة ثم استطرد قائلًا:

• المرة قلبها أسود.. غير الختا والسواطة ما عندها شي.. خربت الولد والبنيات.. إلا خلاص.. كل أول وليهو آخر.. تمشي لي أهلها.. وأنا أولادي بعرف أربيهم مِنْ أول وغادي.. أصله باقي ليها حبل وحيد نقطعه ونرتاح ..

قالت بحسم:

• ده كلام أعوج.. بعد شيبتك دي بتدور تأدب المرة بالطلاق.. فِي شان شنو.. ما ياهو عمل النسوان.. وما تنسى أنت عُمدة.. والعُمدة ما خراب بيوت شان يخرب بيته ويشتت أولاده.. العُمدة بفرد جناحه ويخت أهل بيته تحته.. ويطبطب عليهم.. ويقشقش

دمعتهم.. ويديهم الأمـان.. فرح ولدك زي ما الطيب وعباس أولادك.. لمه عليك وعلى إخوانه وخليه يبقى راجل.. والسُرة مرتك زي ما نحن نسوانك.. أمسكها عليك وأعفي عنها.. وخليها تسوط فِي سواطته.. العمر ما فضل فيهو حاجة شان تطردها مِنْ الحوش وتحرمها منك ومن وليداتها.. وما تنسي هي بنت منو وشان عين تكرم ألف عين..

نظر إليها ممتنًا، ثم نظر إلى ولده، نهض مِنْ مكانه واتجه ناحيتها، وقبل رأسها، وقال:

• الله يبارك فيك يا بنت الشريف.. كلامك ريحني تب وفوقني من غفلتي.. الله يلعنك يا إبليس.. والله يبارك فيك أنتِ.. ويرضى عليك

شعر الطيب بالراحة وهو يحس بأنَّ السلام قد بدأ يسكن الحوش فِي هدوء، قال يستأذن أباه:

• بدور تديني خاطرك يابا العُمدة ..

سأله مستفسرًا:

• طلبك مجاب إن شاء الله.. قول ..

قال:

• بدور أرجع تاج الملوك لي أهلها.. طبعًا أنت عارف إني عتقتها لوجه الله مِنْ يوم ما اشتريتها..

قاطعة قائلًا فِي سُخرية لاذعة:

• هي لسه قاعدة عند أمك.. وأمك مرة العمدة وخوياتك بنات العُمدة بخدمن فِي الفرخة لي الحين.. عوجة والله.. عوجة كبيرة إلا نقول شنو ..

شعر الطيب بثقل كلمات أبيه، وأحست الهدية بألمه، سبقها مكملًا حديثه ومتجاوزًا سخرية أبيه:

• لسه قاعدة هناك.. وهسع بدور أرجعها لي أهلها..

استمر فِي سُخريته وقال له:

• ليه ما تخلها.. ولا خلي واحد ولا اتنين مِنْ عبيدك العتكتهم يوصلوها لي أهلها.. تاعب روحك فووق كم فِي الخويدم دي..

ابتسم الطيب فِي وجه أبيه، وقال:

• لا.. لا يابا العُمدة.. بدور أشوف أهلها.. وأشوف أمها وأبوها.. وبعد إذنك بدور أخطبها لي رقبتي..

جفل مِنْ مكانه، وقال:

• بتدور تخت وشي فِي التراب وتعرس ليك خادم.. أنت ما نصيح.. امشِ وديها محل ما عايز إلا عرس ما في.. واسمع نصيحة أبوك.. لا تبولك في شق ولا ترافقلك عب.. الشق حساي والعب نساي.. عرس شنو.. دي خادم.. سارره زي ما داير.. إلا عرس ده تشيله من رأسك ..

لمْ تهزه كلمات أبيه القاسيات، قال بأدبٍ جم:

• أنت يا بوي ماك عارف رأي في الـسرارة.. وفي العبودية.. ووريتك فيهم كلام الله والرسول.. وأنا ما بحل سروالي في الحرام.. يا عرس على سْنة الله ورسوله.. يا أعفا النسوان تب ..

أحس بثقل كلام ابنه، لكنه لمْ يقدر على الإذعان لرأيه فقال فِي حسم:

• افهم كلامي كويس يا ولد.. عروسك حلوة بس بطنها شايل من غيرك، طلاقها فضيحة ومسكته خازوق.. المعنى.. كان رضيت كان أبيت ما بتعرس ليك خويدم.. شان تفضحنا.. والناس تقول ود العمدة كاتلنو الخدم.. يطير فِي السماء ويقع على صناح أباطن.. أنا ما برضى تب.. وكان سويته غصب ما تقعد معاي فِي الحوش.. تشوفلك مكان تاني ..

لمْ يُضِق الطيب بكلام أبيه القاسي، نهض مِنْ مكانه، قبل رأس أبيه وقال:

ـ شيتن غصب ولدك الطيب ما بسويه.. والنسوان رزق زي باقي الأرزاق.. شيتن يزعلك ما في.. أوديها لي أهلها وأجي أراضيك يابا العُمدة..

أمسكت الهدية دموعها وهو يودعها ويقبل رأسها. همست له قائلة:

ـ امشِ ودي عروستك وتعال.. والفيه الخير يسوي رب العالمين اللا نام ولا ضاق الطعام..

خرج بلا ضيق وبانشراح تام، وأمل فِي الله أنْ يجمعه بمن يحب.

التفتت الهدية بنت الشريف إلى زوجها، وقالت سائلة:

• ليه بتدور تمنع ولدك مِنْ الحلال وتشاقيه.. وأنت بتسوي نفس الشي فِي الحرام وداسي؟

استغرب حديثها وسألها مستفسرًا:

• أنا بسوي الحرام.. مِنْ وين جبتي الكلام ده يا زينة النسوان؟

أجابته:

• أنت فاكر خبرك مع الرضية بنت الإزيرق ما عندي.. مِنْ يوم اشتريتها مِنْ سوق قوز البعاشيم.. قبل ما تدخل علي السُرة.. ولا قايلني ما خابره سر الإنداية السويتة وقعدتها فيها شان تقبض رجال الحوش في إيدك وتمسك عليهم الذلة البتخلي الراجل يدنقر رأسه شان زول يشوفو ما في.. الطيب دغري الحاجة الدايره بسويها في نص النهار.. واسمع كلامي إنْ أبيت.. ولدك ما بلاويك إلا ما بعرس تاني.. أنت ما بتعرفو أنا ربيته أكتر من أمو الولدتو.. ولي فيهو زي ما ليك وليها ويمكن أكتر.. إن أبيت ولا طردته تاني ما بقعد ليك يوم واحد في بيتك..

أصابه الذهول، تعرف عنه كل شيء، لمْ يستطع الرد عليها،

وجعل يتمتم:

• يحفروها الفيران ويوقعوا فيها التيران !

سمعته يتمتم، لكنها لمْ تأبه لما يقول، وانسحبت وهي تحمل مائدة الطعام إلى الداخل، دون أنْ تسأله، إن كان قد اكتفى أم لا. ظل يتبعها بنظراته حتى اختفت، وجعل يستعيد كلماتها، لمْ يدرك أنه كان مكشوفًا طيلة هذه السنوات. تذكر الرضية بنت الإزيرق، وتذكر الأيام التي قضياها معًا، وتذكر شبابه معها، وكيف كانا يقضيان وقتهما معًا فِي سعادة. أدرك أنْ العِرق دساس، وأنْ ابنه يكرر فعلته على طريقته الخاصة. تحسس عورته، وتمتم:

• تاني إلا تقيف بي شِعبة.. الله يستر.. تورتي نفسي يا بنت الشريف الله يجزاك خير.

(46)

شاع بين أهل الحوش خبر سفر الطيب إلى دار تاج الملوك يريد إعادتها لأهلها معززة مكرمة، كما يريد خطبتها لنفسه على سُنة الله ورسوله، رافضًا قانون التسري، متمسكًا بما يعتقد فِيه. ومرة أخرى اختلفت مشاعر أهل الحوش حول هذه الخطوة، فريق تلقاها بالقبول، واعتبرها نقلة نوعية نحو عهد جديد. عهد يتساوى فيه الناس فِي الحرية والحقوق والواجبات، وكان غالب هذا الفريق مِنْ العبيد، والشباب الذين آمنوا بما يدعو له الطيب وبعض مِنْ السادة الشيوخ قليل. وفريق آخر أنكرها كل الإنكار، واعتبرها ردة على الدين والدنيا على السواء، وكيف لا.. فالرقيق مذكور فِي القرآن، والعبودية حق للبعض، كما الحرية حق للبعض، بما فضل الله بعضهم على بعض، والعبيد والجواري مُلك يمين، وهؤلاء كثيرون بعضهم مِنْ كبار السادة وغالبهم مِنْ شبابهم الذين يكرهون الطيب ويمقتونه إما لغيرة أو لحسد. وفريق ثالث هم قلة، أسكرتهم الدهشة، لكنهم

لا يرون فرقًا بين أنْ تكون عبدًا أو تكون حرًّا، وهم بعض العبيد والجواري الذين يرون الحياة كلها، هي الأكل والشرب، والشرف الذي يلحق بالجارية وأهلها، حين يهتك بكارتها أحد الذين تجري فِي شرايينهم دماء عربية، وهؤلاء لا أثر لهم فِي الحياة ولا فِي الممات.

.. بلغ الغضب والحنق بالصادق ود محمد ود جاد الله مبلغًا لمْ يستطع فِيه السيطرة عليهما أو احتمالهما، وهو يرى سيرة الطيب ود العُمدة تعلو شيئًا فشيئًا، بعد نجاحه فِي العودة بوالده العُمدة سليمًا معافى دون أنْ تسفك الدماء. وكانت أحاديث الناس تغيظه أشد الغيظ وهم يحكون الأساطير عنْ سيطرة الطيب على الكجور الشيخ، وكيف استطاع أنْ يهزمه وينتزع عصا «الكجورية» مِنْه، وكيف أصبح قادرًا على «تكجير» أي شخصٍ ينازعه، فِي أمر الدنيا. لمْ ينسَ ما حدث بينهما يوم سوق الثلاثاء، ولمْ ينسَ كسر ساعده، ولمْ ينسَ أنه حبسه فِي بيت أمه وقيده بالسلاسل والأغلال يوم خرج للبحث عنْ أبيه.

.. كان يجلس حين مال الضحى إلى ابن عميه الجاك ود الأمين ود جاد الله ويوسف ود بابكر ود جاد الله وابن خاله حمد ود عبد الله ود الباقر. جميعهم ضجر، يحاولون قتل الوقت بالسُكر فِي ذلك النهار الغائظ. لا يدرون كيف لهم مِنْ سبيل لإيقاف الطيب الذي ذاع خبره بين الناس فِي المدر والقرى والحضر. وكان غيظ حمد ود عبد الله

ود الباقر وغضبه وحنقه لا يقلون عنْ تلك التي يشعر بها ابن عمته الصادق. لكن لحمد أسباب أخرى تختلف عنْ صاحباتها الساكنة فِي جُعبة الصادق. فحمد لمْ ينسَ تهديد الطيب له قبل خروجه للبحث عنْ أبيه، ولمْ ينسَ حبسه فِي داره شهرًا كاملًا مع الذين أرادوا اقتلاع العمودية مِنْه ومِنْ أبيه، وهو لا يزال يعتقد بأنَّ للعُمدة نفسه يد فِي مقتل أبيه. نظر إلي ندمائه، وقال:

• شن بتدوروا تسووا يا أولاد جاد الله.. الطيب وركب فوق ضهرنا ودلدل كرعيه.. بقى بطل شان رجع أبوه.. الله يلعنه ويلعن أبوه كمان.. حتى النسوان بقن يغنن ليه.. وأماتنا بقن يسوقن بناتهن يسوَّن القهوة لي فاطنة بنت حمد النيل.. وهي قاعدة فِي نص عنقريبة.. خالفتن كراع فوق كراع.. شان يمكن تختار واحدة منهن لي ولده الفارس.. والخسيس جاريلو وراء خويدم مِنْ بلد لي بلد.. وكباركم دايرين يسوهو عمدة.. وأنتو قاعدين تمصوا فِي العرقي وتدندلوا بالمريسة والعسلية.. ما هميكم حاجة.. وبعد تسكروا تمشوا للإنداية تكبوا مويتكم وتجوا صادين.. يا هي دي رجالتكم ..

صمتوا جميعًا ولمْ يردوا عليه، فعاد يحثهم على فعل شيء ويستفزهم للمقاومة:

• خلاص.. خفتوا مِنْ ود العُمدة.. بقيتوا زي الحريم ..

قاطعه الجاك ود الأمين ود جاد الله مستهزءًا:

• دحين ده مو الطيب ود العُمدة السجنا كلنا كده فِي بيوت أماتنا وقيدنا بالسلاسل فِي كرعين العناقريب.. وأنت نفسك كت معانا.. مو يا هو الطيب الكسر إيد الصادق قدام الناس بإيد واحدة وزول قاله بغم ما في.. مو يا هو الطيب الفات الكبار والقدرو.. ومشى الله وحده ولف الدنيا دي كلها على فت كراع ورجع أبوه.. وجاب معاهو الكجور الشيخ رابطه بالقيد مِنْ رقبته وجاريهو وراه زي الكلب.. أسكت يا حمد ساكت.. مو أنت.. إبليس الملعون ذاتو ما بقدر علي الطيب ود العُمدة.. أسكر سكرك يا أخوي.. وقوم شوفلك مرة غز فيها ضكرك واتفنقل نوم.. وانسَ ود العُمدة.. كان سكيتو بجيب خبرك..

ضحك يوسف ود بابكر ود جاد الله حتى سعل سعالًا شديدًا، وقال يحدثهم ساخرًا:

• صدقت يا أخوي.. ده جاب أبوه للدنيا بعد ما مات..

سأله حمد مستفسرًا وقد غطت ملامح وجهه دهشة غير مصدقة:

• كيف يعني؟.. كمان الطيب بقي يحيى الموتى.. باين عليكم سكرتوا.. العُمدة ما مات.. العُمدة كان حي.. عند الكجور الشيخ.. أريتو كان كتلو وكتل الطيب وريحنا من خلقتم الشينة دي..

أصر يوسف على كلامه، وقال مؤكدًا:

• كيف ما بيحي الموتى... اسأل ود عمي الصادق.. كده اسأله ..

نظر إليه الصادق عجبًا، وأكمل قائلًا:

• دحين يا الصادق يا ود عمي.. أنت مو قُتْ لنا سابق لما كنا قاعدين في حدا عبد الرحمن ود حسن ود وراق: «إنك شُفته العفاريت بتخنق فِي العمدة لمن كتلته.. وبعدين وقفت فوق رأسه ترقص.. ولما فترت جدعته للمرافعين.. والمرافعين قطعت جسمه حتة حتة.. وقت كان زعيم العفاريت واقف يعاين ليهم ويضحك.. حاجة تخوف.. طويل طول قدر ما تصنقع فِي السماء ما تصل آخره.. ودنقر فوق رأسه وداسه ليك يأصبع واحد لمن طرشقت.. وصرخ صرخة خلت شعرة جسمك كلبت.. وقال بصوت عالٍ.. الدور جاييك يا الطيب يا ود إبراهيم الأرباب.. واتلفت لعفريت فارس كبير عندهم اسمه «شمطار».. وقال ليه رأس الطيب يجيني فِي يومين.. ولو اتأخرته برميك في النار.. وكمان قال لواحد تاني اسمه «برقان».. فرح ود إبراهيم الأرباب.. يبقى عمدة الحوش الجديد من يوم الليلة»..

نظر إلى الصادق وحمد مستهزءًا وعاد يقول:

• مو ده كلامك يا الصادق.. عليكم الله تاني ما تجيبولنا سيرة العُمدة ولا ولده الطيب.. ديل ما بنقدر عليهم.. والشايف نفسه بيقدر.. ديلاك هم.. يمشي يسوي فيهم البقدر عليه.. كان قدر.. بنجي نبارك ليهو.. غير كده ما تحلموا.. كملوا سكركم.. وامشوا

نوموا في بيوتكم.

تأكد حمد بأن رفاقه لنْ يستطيعوا فعل أي شيء حيال الطيب.. وأنهم استسلموا كالعبيد لقدرهم.. وأنَّ العُمدة وابنه يجثمان على صدره، ويكتمان أنفاسه. لملم إليه نفسه، وغادر صحبه دون أنْ ينبس ببنت شفة.

.. وفي الإنداية استقبل أهلها خبر الطيب وتاج الملوك كما يستقبلون الأحلام الجميلة، واختلطت دموع المومسات والبغايا بزغاريد الفرح المأمول والسعادة المرتجاة، وحلمن بأيام جديدة لا تباع فيها الأرواح والأجساد والمشاعر بالمال، ولا يسترقن فِيها اللذة الفطرية مِنْ السادة المنتفخين أو العبيد المنبوذين. وأنْ تعيش الواحدة منهن كأي فتاة تحلم برجلٍ واحد تحبه وتعشقه وتخلص له.

.. لمْ تخف الرضية بنت الإزيرق دموعها هذه المرة، فأطلقتها سخية لتغسل شيئًا ما، لمْ تميزه جيدًا. هل هي قصتها التي تتكرر أمامها؟.. لكن الطيب ليس كأبيه، الطيب شديد النقاء، له مِنْ اسمه نصيب، لا يحتمل العيش بحياتين، واضح كالشمس، نقي كالأطفال، يحب العدل ويدرك كيف يكون إنسانًا. أما العُمدة فقادر على العيش بألف وجه ووجه، يستطيع كبح مشاعره متى شاء وكيف شاء. يجري العدل كما يحب لا كما يجب. كلاهما أحب جاريته لكن شتان بين طريقٍ وطريق. طريق الطيب هو طريق الخلاص مِنْ العبودية إلى

الحرية، هو إذن طريقهم جميعًا إلى الإنسانية.

.. كان ود مرسال الشخص الوحيد مِنْ بين أهل الإنداية الذي لمْ تقع عنده الحكايات التي تروى عنْ الطيب ود العُمدة وتاج الملوك موقعًا حسنًا. كان يبكى بكاءً مرًّا حين يسمعها أو حين يرى الناس فرحين بما أقدم عليه الطيب. حبس نفسه فِي قطيته وأبى أنْ يخرج منها. واعتزل الحياة حتى أصابه المرض، ولولا رأفة الرضية وحنانها واهتمامها به لمات كمدًا. مضت أيام وهو على هذا الحال إلى أنْ دخلت عليه ست الدار الحلبية وألمظ الحبشية والشامة بنت الجاز يردن ممازحته، والترفيه عنه، قالت ألمظ بلكنتها الحبشية المميزة:

• قاعد براكي ما لك.. يا ود مرسال ما تعرسني.. والله تعرسني أعمل ليك أكل حبش تبقى راجل تمام..

تبعتها ست الدار الحلبية ضاحكة:

• يعرس ليك شنو يا المطموسة.. هو ود مرسال ذاتو كايس يعرسوه.. ما شايفاه مما الطيب ود العُمدة مشى شان يخطب تاج الملوك مسكته أم هللا هلا..

ولمْ تدع الشامة بنت الجاز حظها فِيه، فقالت:

• اسمعني ياخوي.. أكل بصل وانسَ الحصل.. وتني اللقمة بي توم وارقد نوم.. أنت شن بدور بالطيب.. بتعرفو من وين؟.. يا تبقى علينا وتسوي سواتنا.. يا تنسى الشغلة كلها وتشوفلك مسيدن

تقضي فيهو باقي أيامك..

أجابهن بغضب:

• هوووووووي يا أدبخانات الإنداية.. أبعدن مني.. كُجنتي في الدنيا ظرافتكن الماليها حد دي.. كل واحدة فيكن تمسك خشمها عليها.. وأنا البسويهو بتعرفنوا قريب.. ما إنتن براكن.. الدنيا كلها بتسمع بيهو.. اصبرن بس.. وهسع يللا وروني عجاج كرعينكن..

خرجن محتارات لا يعرفن ماذا يفعلن لأجله.

(47)

سرى الهمس بين سادة الحوش كما تسري النار فِي الهشيم. ولمْ يمضِ كثير مِنْ الوقت حتى علا الهمس وصُكت الآذان. لقد تمرد بعض الرقيق، ورفضوا العمل فِي البيوت والمـزارع والأسواق، وازداد الأمر سوءًا حين بدأت أعدادهم فِي النمو والازدياد، وتبعهن الجواري، فلمْ يعدن يعملن أي شيء، وأكثر ما كان يزعج السادة الشيوخ والأبناء، هو رفضهن التسري بحجج واهية.

.. جلس العُمدة مع كبار سادة الحوش مِنْ أولاد الأرباب، وأولاد وراق، وأولاد جاد الله، يقلِّبون هذا الأمر الجلل، ويحاولون سبر أغواره ومعرفة العلة فِيه، عسى أنْ يستطيعوا له حلًّا. واجتمعوا كعادتهم فِي بيت الأم الكبرى الهدية بنت الشريف. أولم لهم العمدة بكرمٍ فياض، وبعد أنْ امتلأت البطون بالشهي مِنْ الطعام. قال الشيخ حسان كبير أولاد جاد الله:

• يا عُمدتنا.. الشغلة دي كان سكتنا عليها تاني ما بتنلم.. العبيد الأبو الشغل ما عندنا ليهم غير سوط العنج والكريزة.. والعين

الحمراء.. إلا.. أكان رخينا بكرة بطلعولنا فوق ريسينا.. وبنبقى مضحكة للحيشان والفرقان القريبة والبعيدة.. بشمتوا فينا والخشوم بتلوك سيرتنا..

تصاعدت أصوات الجالسين.. وصاح أحد أبناء ود جاد الله موافقًا كبيرهم:

• صدقت والله يا شيخ حسان.. العب بقى يعاين ليك جوه عينك.. ويقول ليك أبيت ما بسوي.. والخادم تقولك ما دايراك تب.. الليلة كان انطبقت السما فوق الواطة ما بتركبني.. يركبن جمل بله ود حمد..

صاح الصادق ود محمد ود جاد الله:

• العبيد والخدم ما غلطانين.. غلطانين حنا.. لمن قبيل سكتنا على البحرشهم شان يبقوا زي أسيادهم رأس برأس.. بقيتوا تفتشوا لي سوط العنج والعصا هسع.. بعد ما الفأس وقع في الرأس.. بكرة بجيكم عبد أمه خادم اشتروها مِنْ سوق التلات يقولكم بدور أبقى عمدتكم..

أدرك العُمدة وشقيقه محمد الحسن ما يريد الصادق ود محمد ود جاد الله قوله، كظم العُمدة غيظه إلا أنَّ شقيقه لمْ يحتمل، فصرخ فِي وجهه قائلًا:

• انطم يا قليل الأدب ولا امشِ أقعد فِي قفا أمك.. كمان بتطاعن

زي الحروم.. أنت البتتكلم فيهو ده ما ضوقك إيده مالك ما كسرتها ليهو ليه يا فالح.. وهو كان قاعد هنا أنت بتقدر تقعد.. إلا لقيته غايب وطلقت فينا لسانك الأغلف ده..

قال الشيخ عبد الله كبير أولاد وراق محاولًا تهدأة الجميع:

• استهدوا بالله يا جماعة.. وأنت يا الصادق يا ولدي أمسك خشمك عليك.. حنا جينا نشوف المشكلة دي حلها كيفين.. مزارعنا وقفت تب وأسواقنا وقفت.. حتى الجنقو واقفين مع العبيد.. مو كده وبس.. والله العب تتكلم معاهو يدور يشاكلكك.. وصحي يا أخوانا الكلام ده ما كدب.. الخدم ابَنْ أولاد العرب تب.. وليلن كله نسمعن يجلَّعن مع العبيد والجنقو.. سوَّن بيوتنا إندايات.. الخادم تاباك وتابا ولدك وتسمِعَك جلعا فِي أضانك.. بالنهار نايمة ما بتشتغل وبالليل نايمة مع غيرك.. وكلام حسان صحي.. ما فِي غير سوط العنج والعصا الغليدة والذلة.. إنْ دقيتلك فرت واحد فيهم وأديته جلدة سمِّحة تاني ما بسووها.. إلا ده ما بنفع فِي بيت واحد.. لازم كلنا نسويها سووه.. والجلد يكون فِي سوق التلات.. فِي حلقة النخاسة.. كل زول فينا يجيب رقيقة ونقع فيهن خبت.. يا رجع زي ما كان يا مات والله يعوض سيده فيهو ..

قال ود عجيب صاحب الطيب ورفيقه للجالسين:

• أديني خاطرك يابا العُمدة.. العبيد والخدم شايلين فِي خاطرن

منك يابا العُمدة.. في شان ما بي لي ولدك الطيب يعرس تاج الملوك.. دورتُم لي الطيب معروفة في شان شنو.. لإنو عايزهم يعيشوا فِي الحوش أحرار زينا زيهم.. ودورتُم لي تاج الملوك برضو معروفة.. بقت لهم زي الملكة.. سوط العنج ما بسوي ليهن حاجة.. سوط العنج بقوي قلبهن.. وبكره بهجموا على الحوش كله ويقعوا فيهو حش.. بدبحونا وحنا نايمين فِي عناقريبنا .. وكان بتديني خاطرك وتقبل نصيحتي يابا العُمدة.. خللو اليعرسه.. شن فرقت.. مو أنت ما عندك مانع يسارره.. شن فرقت.. المهم العبيد يهدوا.. الشايفو أنا الملاوه بتقوي الرأس.. وبتجيب الدم

لمْ يرد عليه العُمدة، وصمت وهو يراقب الجالسين فقال أحدهم:

• أنت جنيت يا ود عجيب.. بتدور تمشي كلام العبيد وتكسر كلام العُمدة.. ولا بدورنا حِنا فرسان حوش الأرباب نلبس طرح ونلوك فِي اللبان.. حرم غير سوط العنج والعُكاز ما في علاج.. ما تسولنا سوات الطيرة أم فص..

وقال آخر:

• آخر الزمن يا ود عجيب ييجي اليوم النعمل فيهو خاطر للعبيد والخدم.. سوط العنج يخلي العبد يبول في لباسو.. ويخلي الخادم ترفع رجليها الليل كله.. الطيب راجل يسوي الدايرو.. يعرسها.. يساررها.. يبيعها.. يهديها.. ما خسانا إلا حنا ما بنخلي عبد يرفع

رأسو تاني ولا بنخلي عبد يحمر عينو في أسياده.. بنقدها طوالي.. هسي حنا كان ما فارغين نجي نقعد فِي ديوان العمدة شان نقوليهو العبيد مابين الشغل وقاعدين يحمروا لينا.. ولا الفريخات الليلاتنا مابيات الفجخ.. قادر الله الخلا العبد سيد..

أجابه ود عجيب مبتسمًا:

• كتر خير العُمدة الفاتح بيتو فِي شان خير الحوش.. إلا بقول.. عبيدنا وخدمنا شموا ريحة الحرية في كلام الطيب وسواته.. الطيب بيقول كلام وبعمل زي ما بيقول.. الله موسع بصيرته وهو عارف شن بسوي.. شان كده تاني عبيدنا وخدمنا ما برجعوا زي أول.. وكان شديتوا عليهم بخربشوكم بي ضفور أحدّ مِنْ مخالب الفهود.. ويعضوكم بأسنان أقوى مِنْ أسنان الأسود.. وبسيل دم كتير منهم ومننا.. وخلونا مِنْ الجقلبة الفارغة حنا ما بندور نتعامل مع ناس تقيف في وشنا وتقول لا.. حنا بندور عبيد تقول سمح وتعمل الحنا دايرنو.. دايرين عبيد رأس فاضي إلا من أسياده.. وغباهم كافي شان ينبسطوا لمن بنياتهم يفجخونهم ويقدونهم وليدات العرب.. إلا ده خلاص زمن فات وطنبارو مات..

صمتوا جميعًا وهم يسمعون كلمات ود عجيب القاسية عليهم، وتسللوا واحدًا واحدًا دون أنْ ينبس العُمدة ببنت شفة، تركوه وشقيقه محمد الحسن لا يدريان إلى ماذا انتهوا جميعًا.

(48)

تسلل العمدة ليلًا، ليقضي ليلته مع الرضية فِي فريق الفقراء، كانت الليلة ليلة السُرة بنت عوج الدرب، لكنه تعلل بما فعلته وأصر على هجرها، ولأجل العدل فإنه سيقضي الليلة بعيدًا عنْ الحوش، وحتى لا تشمت فيها أي مِنْ ضراتها.. أجبرها ألا تخبر أحدًا. رضيت السُرة بحكمه خوفًا مِنْ شماتة الهدية بنت الشريف وفاطنة بنت حمد النيل، وكسبًا للرضا الذي انتاشته سهام الطمع.

.. شعر بخوفٍ شديد وهو فِي الطريق إلى فريق الفقراء، تذكر ليلته الأخيرة مع الرضية، وكيف أنَّ فحولته قد خانته، بلا سبب فقد رجولته وأصابته العُنَّة، وباءت كل محاولاتها ومحاولاته بالفشل. تلك الليلة الأخيرة قبل خطفه بواسطة رجال الكجور الشيخ. منذ تلك الليلة لمْ يقترب مِنْ امرأةٍ مِنْ نسائه ولا سرية مِنْ ما ملكت يمينه، ليعرف إنْ عادت إليه فحولته التي كنَّ يقصصنها النساء للنساء أم ذهبت إلى غير رجعة. ما زال يذكر كلمات الرضية الراجية: «ما

تقرب لي واحدة مِنْ نسوانك إلا تفك سجن الطيب شان الكجور تنفك منك».. الآن الكجور الشيخ ما عاد كما كان، والطيب لمْ يعد فِي السجن، فهل انفكت العُقدة؟.. ما هذا العار الذي علق به.. هل ماتت رجولته؟

.. وكانت الرضية بنت الإزيرق تنتظره على أحر مِنْ الجمر، تنتظر حبيبها الذي أفنت مِنْ أجله حياتها، تلتقيه فِي السر، وتضمه فِي السر، وتعشقه فِي السر. لكن كان لها مِنْ الخوف نصيب أيضًا، وهي تذكر تلك الليلة التي كانت تنتظرها بشوق المحب، لكنها لمْ تجد مِنها ما يشبع جسدها ولا ما يسمو بروحها. عجز العُمدة أنْ يشبع الأنثى داخلها لا بكلمات العشق ولا بفعل العشق. سألت نفسها: «ترى هل شفى مِنْ العُنَّة؟.. هل عاد فحلًا كما كان؟.. هل يستطيع أنْ يذيبها كما كان يفعل؟».. أغمضت عينيها باشتهاء، وهي تأمل أنْ يضمها ويعتصرها ويفعل بها ما كان يفعل فِي السابق، حتى تشبع الأنثى التي بداخلها.

.. دخلت إلى داخل القطية الكبرى تريد تجهيزها كما يجب أنْ يكون، حتى تناسب أغراض مثل هذه الليلة، شاهدت «إبريقًا» غريبًا، لمْ يكن مِنْ مقتنياتها، اقتربت مِنْه وتناولته، يبدو مليئًا بالماء، ومِنْ العجب أنَّ الماء بارد زكي الطعم والرائحة. تذكرت أنه كان فِي يد الطيب حين أتى للقبض على مرجان ود دمباوي، وأنَّه كان

يتوضأ ويشرب مِنه، يبدو أنه نسيه هنا. كان شكله رائعًا وماؤه عذبًا.. كيف نسيه الطيب هنا؟.. تناولته، وهي تنظر إليه بإعجاب، وضعته على طاولة بجانب «البنبر الكبير» بجوار النافذة، جلست على «البنبر الكبير»، وسبحت بأنظارها عبر النافذة ترقب وصول العُمدة. جلست زمنًا تعد النجوم وتجتر الذكريات حتى أصابها النعاس فنامت. ورأت فيما يرى النائم صورة الطيب ود العُمدة يجالس تاج الملوك عند التلة الكبرى، يتناجيان، وتاج الملوك تبتسم له تلك الابتسامة الرائعة.. أخذ الطيب «إبريقًا» وصب لتاج الملوك بعض الماء، تناولت مِنْه جرعتين أو ثلاثًا، ولمْ يمضِ وقت طويل وإذا هي تنهض لترقص له وتغني، ضمها الطيب إلى حضنه، وأذابها فِيه كما تذيب النار السمن».. استيقظت مِنْ نومها فجأة، ونطرت إلى «الإبريق».. ضمته إليها في اهتمامٍ بالغ، ولمعت عيناها بوميض الأنثى.

.. سمعت صوت حوافر حصانه، أصلحت مِنْ هندامها، وقفزت قفزًا لتلتقيه عند باب القطية. بدا مشغولًا ومهمومًا وخائفًا، احتضنته فِي شوق وضمها إليه فِي خوف، شعرت بهواجسه، لمْ تكلمه، وأجلسته على «عنقريب» المُتعة، ثم اتجهت صوب «الأبريق» وصبت بعض مائه فِي كوب، وناولته إياه. دفعه عنه برفق.. لم يشأ أنْ يشرب شيئًا، لكنها ألحت عليه أنْ يتجرع مِنْه وإنْ بعض جرعات،

تناوله على مضض، واحتسى شيئًا مِنْه، أحس ببعض الراحة، تمدد على «عنقريبه»، خلعت مركوبه وبعض ما عليه مِنْ ساتر، وجعلت تمسح بأناملها على صدره شيئًا مِنْ ماء «الإبريق»، أغمض عينيه، شيء ما فيه يتحرك، نظر بين فخذيه، لمْ يصدق ما رأى، وغابا عنْ الدنيا وما فِيها.

.. أشرقت الشمس بنور ربها وأرسلت أشعتها الذهبية لتتسلل القطية إلى العاشقين، فركت عينيها، ما زالت عارية.. ثم نظرت إليه، كما هو ما زال عاريًا، تناولت ثوبها لتستر نفسها.. وتناولت آخر لتستره، فتح عينيه فرآها ترقبه، ابتسم لها ابتسامة لمْ تشهدها مِنْ قبل.. نهضت تغتسل، ونهض ليغتسل. قامت تحضر الطعام وذهب ليصلي صلاة الفجر التي أضاعتها المتعة، وليشكر الله على نعمة الشفاء.

.. وضعت أمامه مائدة مليئة بالطيبات، لمْ يتحدثا بشيء فقد غلبتهما لغة الأجساد. نظرت إليه طويلًا، وقالت:

• حمد الله على سلامتك سيدي العُمدة.. حمد الله على سلامتك..

أجابها وقد رسم ابتسامة فيها كثير مِنْ الزهو:

• الله يسلمك.. الحمد لله.. الكجور فك تب.. الحمد لله.. هم كبير نزل مِنْ ضهري.. كل حاجة ولا خيبة الرجال.. الحمد لله..

صمت برهة وهي تنظر إليه نظرات الأنثى التي لا تشبع، فأردف:

• إلا قولي لي.. شنو سر موية الإبريق.. الأبريق ده ما بغباني ألا ما بتذكر شفتو وين؟.. المحاية دي جبتيها مِنْ ياتو شيخ.. باين عليه شيخ كارب..

أجابته بفخر:

• مِنْ الشيخ الطيب ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب..

انتفض مِنْ مكانه واستل سكينه التي يحملها معه دائمًا رابطًا إياها على ذراعه، وقال:

• أنا مو قلت لك كان نضمتي بجز رأسك وبرميه للمرافعين ..

جفلت مِنْ مكانها خائفة جزعة، وهي تقول:

• لا.. لا.. مو قلت لو شي.. الطيب نساهو هنا.. وحلمني بيه..

أجلسها وهدأ مِنْ روعها وطلب منها أنْ تحكي له ما حدث بالتفصيل. حاصرته الدهشة والحيرة، لكنه قال لها:

• الطيب بقى شيخ الكجور يالرضية .. الطيب ما نسى الأبريق.. الطيب ختاهو معنى.. بدور يعالج أبوه.. كان عارفاني ما بقدر أقرب النسوان.. وإنك أول مرة بجيها لأنك سريتي ولأنك عارفة سري.. وعارف إني ما بجيك الإنداية.. ما هو براه العارف.. حتى الهدية بنت الشريف عارفة.. الطيب مشى مقهور لأني أبيتلو يعرس الخادم.. وبعد السويتو معاه كلو ما زعل.. مرة نجاني مِنْ الكجور الشيخ.. وهسع نجاني من خيبة الرجال.. الله يبارك فيهو ويوقف ليه

ولاد الحلال محل ما يقبل..

همست خائفة:

• خلو اليعرس الدايره.. لا تزعلو..

ابتسم في وجهها، وقال:

• حاضر يا الرضية ..

قالت تشكره:

• يحضرلك الخير يا أخوي ..

التفت إليها كأنه يستجديها، وسألها قائلًا:

ـ بدور أسألك يا الرضية الله يرضى عليك.. العبيد اللي لنا راسون قِوَى علي أسيادن.. والخدم ما بيات الركوب.. وكبار الحوش قالوا ما عندهم غير سوط العنج والعكاز.. يتفوهم تف لمن راسم يجي.. أنا الكلام ده ما داخل رأسي.. دحين شايفة شنو أنت.

أجابته آسفة:

• الكلام ده متأخر شديد يا سيدي.. لا تخلي الدم يجري.. سوط العنج والعكاز بي يلدن الدم.. والدم كان سال ما في شيتن بوقفه

وحكت له بعد تلك الكلمات الحاسمات عنْ أمور كثيرة غابت عنْ وعي السادة، كانت تحكي له وهو ينظر إليها غير مصدق. كل هذا يحدث دون أنْ يعلم، وتزداد الأمور سوءًا بغيابه، وأنهت حديثها ناصحة:

• أول ما تصل الحوش كلم كبارو إنك قبلان بعروس ولدك الطيب.. وكان بتقدر خل للو العمودية.. الطيب هو الوحيد البحل المشاكل وبوقف سيل الدم.. لا أنت ولا غيرك بقدر.. السيل دفر مِنْ فوق الجبل وشايل معاه حجارن كبار.. وما عندك سد غير الطيب.. زول غيره ما في يا سيدي ..

نظر إليها متعجبًا، وحوقل وحمد الله ثم قال لها وهو يربت على كتفها:

• الفيه خير يسويها رب العالمين إنْ شاء الله..

(49)

تمطى وهو ممد على «عنقريبه» الكبير وسط غرفته بدار الهدية بنت الشريف، يشعر بأنه قد عاد كما يجب، وقد قضى وطره مِنْ زوجاته جميعًا واحدة بعد واحدة ـ عدا السُرة بنت عوج الدرب التي يؤدبها بالهجر ـ فأمتعهن جميعًا، وشعرن بسعادة فاقت ما قبلها. عادت إليه فحولته كاملة، وربما زادت عنْ ما كانت عليه أيام شبابه. أدرك بأنَّ «الكجور الأسود» لمْ يعد يؤثر فِي رجولته، لقد فُك السحر تمامًا. والفضل يرجع مِنْ بعد الله لابنه الطيب.. بارك الله فيه، رسم على شفتيه ابتسامة الرضا، وتمطى ثانية كأنه لا يريد أنْ ينهض مِنْ مرقده هذا.

.. وكرت مسبحة ذكرياته، واجتر حديث الرضية بنت الإزيرق، سائلًا نفسه: «هل يسمح للطيب بالزواج مِنْ تاج الملوك؟.. هل يتنازل له عنْ عمودية الحوش؟».. بالقطع سيرضى الطيب بالأولى، ولكن هل سيرضى أهل الحوش بالثانية؟.. وطاف بمخيلته ما فعله

الطيب بالكجور الشيخ، وسر عصا الكجورية.. وما حكاه مرسال يوم قبض ابنه على مرجان دمباوي ومَنْ معه بفريق الفقراء.. وتساءل مرة أخرى: متى وكيف تعلم الطيب الكجورية؟

.. لمْ يلحظ أنَّ زوجته الهدية بنت الشريف ترقبه بكل جوارحها وهو يتقلب على فراشه، وهي جالسة على مصلاتها تسبح بمسبحتها التي لا تفارقها. كانت تنظر إليه بعين العاشقة وعين المودة والرحمة. نزلت مِنْ عينيها دمعة رقيقة، دمعة شوق قديم، وحب قهر السنين بحلوها ومرها، دمعة تعرف قدر صاحبتها، وقدر مَنْ نزلت مِنْ أجله. مسحت دمعتها بطرف ثوبها، ولهجت بالدعاء لزوجها ولولدها الذي لمْ تلده الطيب ود فاطنة بنت حمد النيل.

.. تقلب مرة أخرى على عنقريبه، فرأى زوجه الهدية بنت الشريف تقعد على مصلاتها وتسبح. رسم ابتسامة رائعة، وقال:

• أنت قاعدة هنا وأنا ما جايب خبر.. الله يقبل منك يا بنت الشريف ويجزيك خير.. ادعيلنا باقي أنت دعوتك مقبولة إنْ شاء الله..

نهضت مِنْ مصلاتها، وقالت:

• والله بدعيلك عقب كل صلاة.. يا إبراهيم يا ود آمنة بنت عبد الله.. الله يديك الصحة والعافية ويسدد خطاك ويكرمك بأولاد الحلال ويحسن خاتمتك.. ويجزيك الجنة.. ويجزيك عننا كل خير..

قال مترحمًا على أمه وأبيه، وشاكرًا صنيعها:

• الله يرحمك يُمه.. كانت مرة طيبة وعظيمة.. ويرحمك يابوي العُمدة أحمد ود الأرباب.. والله يجزيك خير يا بنت الشريف ويقدرني أرضيك ..

صمت برهة وقد اعتدل على جنبه الأيمن حتى يقابلها، وأردف:

• إلا بدور أسألك يا بنت الشريف.. أنت ولدك الطيب ده اتعلم الكجورية وين؟.. وكيف؟

ضحكت بصوتٍ عال، ولمْ تجبه فأكمل:

• آفو.. شن بضحكك يا بنت الشريف؟

أجابته متضاحكة:

• أنت برضو محيراك حكاية الكجورية دي؟.. والعكاز أب رويسين.. والشخبتة البكتبها فِي الهواء؟..فِي زول يا أخوي.. حافظ القرآن.. وحافظ السُنة.. بيصدق في الكجورية ويسوي سوات السحاحير..

ذهل لحديثها، وسأل مستفسرًا:

• كيفين يعني؟

أجابته:

• الطيب ما شاء الله عيني عليه باردة.. زول حافظ القرآن.. بعرف الله قال شنو والرسول عليه الصلاة السلام قال شنو.. ما

بسوي السحر..

لايزال حائرًا، أجابها:

• ما فهمته .. كدي وقعي لي كلامك ده..

قالت تجيبه بهدوء:

• الطيب شافله رؤية في المنام.. شاف الكجور الشيخ بسوي معاك شنو.. وشافو بِيسَوِي بالقرعة شنو وبالكوكاب شنو.. وشافو بحرك العصاية كيفن.. وعرف إنو بخاف من الضلام شان كده طفى وقاد النار بالموية.. شان الكجور بتخيل ليهو أنه بشوف حاجات بتخوف فِي الضلام.. والطيب كان داير يقهروا ويوريهو إنه هو أقوى منو.. وعمل كده مع مرجان شان عارفو بخاف من شغل الكجور.. وشان كده كان مُصر يجيب معاكم الكجور الشيخ مربط زي الكلب.. وخلعه لمن دخل عليهو وفي إيده عكاز الكجور الليلت أبوه..

ذهبت إلى زاوية فِي آخر الغرفة الكبيرة، وحملت إليه شيئًا ملفوفًا، وعادت إلى مكانها، وجعلت تفكه، إنها عصا الكجور:

• ما دي عصاية الكجور الشيخ كسَّره الطيب حتة حتة.. وقال ختوها هنا لما ييجي يحكي ليك.. لكن يمكن نساها.. وسافر يودي تاج الملوك.. لمن ييجي أقعد معاه وأسمع منه..

بدا لها كأنه لا يصدقها ابتسمت له، وافترت شفتاه عن ابتسامة

باهتة، وتمتم قائلًا دون أنْ تسمعه:

• معقول.. الطيب ود إمبارح يودي الكجور الشيخ وولده البحر ويجيبون عطشانين.. أهه صدقنا دي.. الإبريق البي مويته.. وحِليمتو للرضية.. والحصل مع الرضية ومع النسوان التلاتة يقولوا عليهو شنو... كلو كان نفخ.. عاد نفخ كيف وأنا السويتو بي رقبتي..

أحست به يتمتم بشيءٍ ما لم تسمعه، فسألته مستفسرة:

ـ بتقول حاجة يا أخوّي؟

أجابها سريعًا:

• لا.. لا..

صمت برهة، وقال:

• بدور رأيك يا بنت الشريف..

قالت:

• قول يا أخوي

قال:

• أنا ما عندي مانع إنه الطيب يعرس تاج الملوك.. إلا ده مو الشيء المهم.. الطيب راجل ويعرس اللي يدوره.. بس أنا بدور أخليله العُمودية.. بدورو أبقيهو العُمدة قبل لا موت.. أشوفو العُمدة وأنا حي.. الولد ده فيهو حاجة من الله.. الله فاتح بصيرته على حاجات حنا ما شايفنها.. الكلام القاعد يقولوا قلب علينا العبيد.. وكان

قامت العووة الدم ببقى للركب.. والعبيد نفسن كعبة.. إنْ قبلوا علينا ما بخلولنا جنبن نرقد عليهو.. شن قولك يا بنت الشريف؟

سألته:

• أنت بتدور رأي.. ولا بتدور ترضيني ساكت.

قال:

• أفو.. أنا بشاورك في حال الحوش مو في أسارر منو وأعافي منو

أجابته:

• أول بالتبادي ترسل لي الطيب يعقد على عروسه وييجي يدخل عليها هنا فِي بيتو.. وتاني شي.. الطيب هو الوحيد في ولادك البستحق تبقيهو عُمدة.. ليك طولت العمر.. لكن أنت كفاك.. خللو العمودية وشوف ولدك بي حياتك كيف بحكم بين الناس..

لمْ يجبها لكن بدت عليه علامات الرضا واضحة.

(50)

حاول مرسال جاهدًا أنْ يسيطر على القلق والاضطراب اللذين كانا يتسكعان على مهلٍ على خطوط وجهه وأخاديده، وهو يراوح بين بيت الأم الكبرى الهدية بنت الشريف والأم الثالثة فاطنة بنت حمد النيل. والوقت يمر بلا كابح منضبط، سريعًا مرة وبطيئًا مرة. اليوم سيزف الطيب ود العُمدة إبراهيم ود أحمد الأرباب إلى عروسه تاج الملوك.. الخادم الخلاسية الجميلة التي اشتراها مِنْ سوق الثلاثاء، أعتقها لوجه الله، وأكرمها فساقها إلى دار أهلها معززة مكرمة ليخطبها منهم، وهي الآن فِي دار أمه عزيزة فِي حريتها ونفسها وجسدها. لكن لمْ يكن هذا ما يشغله، فما أسر به الطيب ود العُمدة إليه كان أعظم، وما ساقته إليه الرضية بنت الإزيرق كان شديد الخطورة. كان يُمني نفسه بالسُكر وشرب «الخندريس» و«المريسة» و«العسلية»، والعربدة بين فخذي حواية الفرخة الناهد التي أهدتها إليه الرضية ليفض بكارتها يوم كان فِي معيته باب الله الأعرج، وأخبرها بسؤال الأم الكبرى عنها.

لكن المسئولية الملقاة على عاتقه اليوم لن تمكنه مِنْ السُكر حتى يغيب عنْ وعيه، ولنْ تسمح له باللهو والعبث بفرج حواية هذه المرة. عليه أنْ يكون يقظًا بعيونٍ مفتوحة، وذهنٍ صافٍ.

.. وأرسلت الرضية بنت الإزيرق خمسًا مِنْ فتياتها اللائي كن يسكن بفريق الفقراء ولا يعرفهن أحد مِنْ أهل الحوش أو من أهل الإنداية، ليكن بجانب تاج الملوك وفِي خدمتها. أوصتهن ألا تغيب عنْ أعينهن العُروس مهما كان السبب، إلا إذا دخلت غرفتها فِي وجود عريسها الطيب ود العمدة. وحذرتهن ألا يتركنها وحدها وإنْ كان ذلك فِي وجود الأم فاطنة بنت حمد النيل. كانت قد اتفقت مع الطيب ود العُمدة على أنْ يدخلن بيت أمه، ويجلسن فِي معية عروسه على أنهن مِنْ أهلها جئن لكي يحتفلن بها عروسًا. كانت تخاف شيئًا لمْ تدركه، فاليوم على كونه يوم فرح سيكون صعبًا وعصيًّا على فهم الكثيرين مِنْ أهل الحوش وأهل الإنداية على السواء. ما زال الكثيرون لا يصدقون أنَّ ابن العمدة سيتزوج مِنْ خادمٍ اشتراها أمامهم، كما يتزوج الحُر الحرة منهم.

.. وكان ود عجيب أكثر أهل الحوش قلقًا واضطرابًا وقد أسر له صديقه الطيب ود العمدة بأمورٍ لمْ يكن ليصدقها لولا أنَّه مصدرها. وكانت مهمته غاية فِي الصعوبة، لكنه كان يدرك أنَّ فشله يعني سيلًا مِنْ الدماء لنْ تنتهي لا فيْ يومٍ ولا ليلة. لذا تحرك فِي هدوء وأمسك

عليه قلقه واضطرابه، وحرك جنده دون أنْ يخدش فرح أهل الحوش بما يفعل.

.. انتهت صلاة الجمعة، وتسور أهل الحوش وضيوفهم حول عائلة العُمدة لتقديم التهاني بالزواج الميمون. وكان ود عجيب يرقب المصلين والمحتفلين بعيني صقر، وأدرك منذ بدء الصلاة أنَّ الطيب قد أصاب فِي حدسه، وأنْ أمرًا ما يتوقع حدوثه. نهض العُمدة واقفًا وبعد أنْ رحب بأهله وضيوفهم، قال:

• بدور أقولكم شيتن مهم.. شان كلكم تشهدوا عليه.. من يوم الليلة عُمدتكم هو الطيب ولدي.. أنتو ما غبيانين مِنْو.. وهو ولدكم كلكم.. ما حصل غلَّت علي زول.. وصادق ما بعرف الكدب.. وفارس ما في زول بغلبو.. وكلمته واحدة ما بعرف شغل اللولوا.. وحافظ القرآن.. وحافظ الحديث وسُنة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.. ما سِكر فرت يوم.. وما بعرف درب الإندايات.. وما حل سروالو فوق حرام.. ولا لي سرية.. وأنا ما شايف زول أحق منه بالعُمودية.. والطيب ما محتاج لي وصاية.. الله موسع بصيرته.. وإن شاء الله كلنا فِي قفاهو.. و..

.. سُمعت صرخة عالية قطعت حديث العُمدة، ومنعت الناس الفرحة، وذعر الحاضرون مِنْ هولها، وأخذوا يتلفتون، وإذا ود عجيب ومرسال قد طرحا أحد الحاضرين أرضًا، وإذا هما يجثمان فوق صدره،

وإذا الرجل هو حمد ود عبد الله ود الباقر، وإذا هو يحمل خنجرًا أراد بها قتل العمدة. تمكنا منه وشدا وثاقه إلى قيدٍ ثقيل. وتصاعدت الأصوات الغاضبة والحانقة، اقترب الطيب مِنْ حمد وقال له:

• أنا مو حذرتك قبال ده.. أنت فاكر الفي رويسك ده بفوت علي.. ولا أنت فاكر إنه البتسوي فِي بطن بيتك ومع ود عمتك الصادق ما بعرفو.. مو قلت لك أبوك كتلو طمعه فِي الدنيا الفانية.. مو قلت لك أبوي ما كتل أبوك.. أنت الحسد كاتلك فوق شنو.. أبوك شن سو غير جابك يا الشقي للدنيا دي شان تحسد الناس فِي رزقهم.. المحرش ما بكاتل.. والصادق خلاك وجرى يدسه عِن عمتك يا الخايب.. أبوك الخسيس.. سرق البل حقين الأبالة البغشوا الحوش مديِّننا الأمان.. وباعن فِي سوق قوز البعاشيم.. إلا أبوي العمدة كان صاحبه.. اشتراهن كلهن.. ورجعهن لأصحابهن.. وشان هو كان صاحبه.. ما اتكلم.. سكت ساكت وقطعه فِي حشاو.. أبوك سمع خبر وصل لى الأبالة أصحابه.. وقت تأكد من الخبر ما قدر استحمل الفضيحة لإنه عارف الأبالة ما بسكتو كان عرفو بدفنوه حي.. شرب السم ومات يا العفين.. جاي بعد الله ستر أبوك كل السنين دي ترفع غطاه وتكشف عورته للناس ..

ضرب العُمدة إبراهيم كفًا بكف، وظهرت على وجهه أخلاط مِنْ الغضب والحنق والأسف والخوف، اقترب مِنْهما وقال:

ـ بتدور تكتل عمدتك في شان شيتن أنت ما خابره.. الله يلعنك فِي القبل الأربع.. والله يلعن الولدة الفاسدة.. منو الوسوسلك يا الشقي وقالك العُمدة كتل أبوك.. أبوك كان صاحبي.. رفيق عمر ورفيق درب.. إلا السواها كانت شينة.. وشان هو عبد الله ود الباقر.. اشتريت الإبل السرقة وباعه في سوق قوز البعاشيم.. ورجعتها لأصحابها.. وقت لهم لقيت السارقة وكتلتو في الخلا.. وجدعته لي المرافعين.. أنت متل أبوك خسيس وقلبك أسود.. بس أنت محظوظ شان الحكم عليك في يد العُمدة الجديد.. كان كان في إيدي كان لحقتك أبوك..

ربت الطيب على كتف أبيه، والتفت إلى أهل الحوش، وقال:

• شن بتقولوا فِي كلام أبوي عنْ العمودية.. تبايعوني ولا عندكم رأي تاني..

تصارخوا بنفس واحد:

• بنبايعك.. يا كاه مننا وفينا ..

اتجه ناحية أخيه فرح، مد يده إليه وأنهضه، وسأله أمام الجميع:

• وأنت شن بتقول يا أخوي.. إنْ بتدوره لي نفسك وبتقدر عليها بفوته ليك..

جرت دموع فرح سخينة على خديه، واحتضنه قائلًا:

• لا.. يا أخوي أنت أحق بيها.. نحن كلنا وراك.. وتلقاني ليك

سند إن شاء الله.. وألف مبروك يا عريس العروس والعُمودية

أمسك يد أخيه، وأوقفه بجواره، ورفع يده الأخرى إلى أهل الحوش، وقال سائلًا وهو يؤشر على حمد:

• بتقبلوا حكمي فيه وفي صاحبو الشرد؟

أجابوه:

• بنقبل.. قول يا عُمدة..

قال:

• مِنْ الحين ولي غادي.. الاتنين ديل مطرودين مِنْ الحوش.. ما عندهم مكان بينا هنا تاني.. ويا ود عجيب تسوق حمد ود عبد الله ود الباقر لي بيتو فِي فريق أولاد جاد الله.. يودع أمه وأهله.. وتغشى الصادق ود محمد ود جاد الله في بيته.. وتكلمه يودع أمه وباقي أهله.. بعدها تسوقهم بره الحوش.. مطرودين.. إنْ لحق واحد فيهم رجع هنا تاني دمهم مهدور.. إلا خلي عساكرك يحضرولن جملين وزوادة تكفيهم شهر أربطوها ليهم فِي جملن تالت..

لمْ يكد ينتهي مِنْ حكمه حتى سمعوا صراخًا يأتي مِنْ عند بيت فاطنة بنت حمد النيل والدة العمدة الجديد. كان مرسال هو الأسرع بين الجميع فجعل يعدو باتجاه البيت وهو يطيح بكل مَنْ هو أمامه، دفع الباب متجهًا إلى الداخل يتبعه الطيب والعمدة وفرح وعباس والشيخ محمد الحسن وهم يتساءلون، ماذا حدث؟ صاحت بهم فاطنة

بنت حمد النيل وهي تشير إلى غرفة تاج الملوك:

• ألحقونا فِي واحدة مجنونة بتدور تكتل العروس؟

لمْ ينتظر مرسال إذنًا مِنْ أحد، بل دفع الباب بقدمه فانفتح على مصراعيه.. فرأى الفتيات الخمس يتسورن حول تاج الملوك الممددة على الأرض والدم ينزف مِنْها، وامرأة أخرى تمسك خنجرًا ينزف مِنْه الدم، ملثمة فِي ثوبٍ أسود. لمْ يفكر كثيرًا وطرحها أرضًا بضربةٍ واحدة، نزع عنها لثامها، وتسمر مكانه كأن مسه الشيطان. فما كانت المرأة إلا ود مرسال.طلب الطيب بجلدٍ عظيم مِنْ الجميع أنْ يخرجوا مِنْ الغرفة، وأنْ يمسكوا بود مرسال خارجًا حتى يرى فِي أمره.

.. كانت تاج الملوك ترقد على أرض الغرفة مغشيًا عليها، حملها إلى «العنقريب» الجديد المخصص لدخلتهما، أرقدها فِيه بهدوء، فحص جُرحها واطمأن حين وجده جرحًا متوسطًا على ذراعها الأيمن. لكنه ما زال متخوفًا أنْ يكون الخنجر مسمومًا. نهض واتجه إلى خزانة مِنْ الخشب موجودة على جانب الغرفة، فتحها وتناول قنينة واقترب منها، عصر الجُرح حتى سمعها تئن، ونزفت منه دماء كثيرة، مسح قطعة قماش بدمها ثم وضع على الدم بعضًا مِنْ سائل القنينة، تغير لون الدم إلى الأزرق. حينها تأكد أنَّ الخنجر مسموم. جعل يعصر الجرح ويخرج منه أكبر قدرٍ مِنْ الدماء. شعر بارتفاع حرارة جسدها، فنهض مرة أخرى إلى الخزانة وتناول منها قنينتين، صب إحداهما على الجُرح،

وسقاها عنوة بعضًا مِنْ الأخرى. وجلس يرقيها.

كان الجميع خارج الغرفة وجلين، لا يعرفون هل يستمرون فرحين أو أنَّ فرحهم سينقلب إلى كارثة تنتهي بالموت. خرج الطيب بعد نحو ساعتين، وما إنْ رأت أمه الابتسامة مرتسمة على شفتيه حتى أطلقت الزغاريد. اقترب الطيب مِنْ ود مرسال، وسأله:

• أنت مجنون.. شنو البلبسك توب العوين.. وتيجي شان تكتل ليك مرة.. منو الرسلك؟.. قول.. الصادق ود محمد ود جاد الله ما كده..

سمع الجميع صوت الرضية بنت الإزيرق وهي تقول:

• لا.. لا.. يا العُمدة.. دي حكايته طويلة.. الصادق ما عنده ذنب.. إلا ما بقدر أتكلم إلا أنا وأنت برانا..

ذهل الجميع بمن فيهم العمدة الأب لرؤية الرضية بنت الإزيرق فِي أحد بيوت الحوش خاصة بيت العُمدة الأب والعُمدة الابن. انتحي الطيب بها جانبًا، وحكت له السبب الذي مِنْ أجله أراد ود مرسال قتل تاج الملوك. ضرب كفًا بكف، واقترب منه قائلًا:

• قدامك طريقين يا ود مرسال شان آخد حقي منك.. إما تبقى خادم لي جامع الحوش وتتوب إلى الله والرسول ولا بجز رأسك في ساحة الحوش كفايتن لي حقي.. أما حق المسكينة تقوم براها تأخده منك..

سمعها تقول:

• أنا عافية ليهو حقي.. أكان تاب لله والرسول..

نظروا باتجاه الصوت، فإذا تاج الملوك تسند نفسها على جدار الغرفة، فِي ابتسامة رائقة، هرولت إليها أمه تسندها، وأحاطها أهل الحوش بالفرح. سمع صوتًا خلفه يقول:

• وأنا كمان بدورك تعفي لي ..

التفت خلفه ناحية الصوت، فإذا هي السُرة بنت عوج الدرب، اتجه ناحيتها وضمها إليه، وقال:

• فِي ولدن بسامح أمو..

مسحت دموعها وقالت تستجديه:

• مبروك يا وليدي.. إنْ شاء تغلبه بالمال وتغلبك بالعيال..ابقَ عشرة على أخوك الكبير فرح وأخواتك البنيات..

ربت على كتفها وقال وهو يسحبها إلى أبيه، وقال:

• لا توصيني على أخوي وخوياتي.. ابقِ أنت عشرة على أبوي ..

تبسمت فِي خجل وهي تلتصق ببعلها، حانت منه التفاتة إلى وجه أمه، فشاهد منها عبوسًا، وأدرك أنَّ كيدهن عظيم.

تمت بحمد الله